حدث فى مصر

جمال بدوى



تصميم الغلاف: جمال قطب

الإخراج الفنى والتنفيذ

صبرى عبد الواحد



في حب مصر

هل يلام الإنسان على إسرافه في حب وطنه؟

كثيرا ما سألت نفسي هذا السؤال، وفي ثنايا ذاكرتي عبارات مستبقاة من خطبة «زيزينيا» التي ألقاها مصطفى كامل في عبارات تنبض حبا وإجلالا لهذا الوطن العظيم.

في تلك الخطبة الشهيرة تصدى الزعيم الشاب لمن كانوا يتهمونه بالتهور في حب مصر، وكان رأيه أن المصري مهما أظهر من الحب، فلن يبلغ الدرجة التي يدعو إليها جمال مصر وجلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها. وقد ورثتُ عن مصطفى كامل هذا التهور في حب مصر، وإن قصرت بي السبل عن بلوغ مستواه في التعبير عن حبه بكلمات رقراقة ودافئة كأنها قصيد سيمفوني، استلهم سيد درويش مطلعه «بلادي بلادي.. لك حبي وفؤادي» وجعل منه لحن الوطنية الخالد، الذي صار النشيد القومي للجيل الحالي.

فالحب عندى ينبغى أن يظل خفيا مكتوما، يتأجج بين الضلوع ويتوهج فى حنايا القلب، ولا يكشف عن نفسه إلا فى ساعات الشدة التى يتعرض لها الوطن، وحينها تباع دماء العشاق، وتبذل المهج والأرواح. كما قال أبو القاسم الشابى فى معشوقته تونس:

لا أُبالى وإنْ أُريقتْ دمائى

فدماء العشاقِ دوْماً مُباحة

وعندما أبحث فى أعماق وجدانى عن سر هذا الحب، لا أجد جوابا شافيا، فالوطن عندى ليس مجرد أرض صماء أو شوارع غناء أو عمارات ومبان، إنه عندى كائن حى يتنفس ويحيا ويتحرك ويمنحنا سر الوجود، ويغمرنا بالسعادة التى نشعر بها خلال الساعات والأيام والسنين التى نقضيها على ظهر الأرض قبل أن نرحل إلى عالم الخلود.. إنه مهد الذكريات والوعاء الذى انصبت فيه القيم الروحية والعاطفية والخلقية، ومفاهيم العدالة والحب والضمير.

وعندما تعلمت الكتابة، كانت مصر هى شغلى الشاغل.. أراها فى صحوى وفى منامى.. لا تفارقنى ملامحها وقسماتها وضحكاتها ودموعها مهما دفعنى الترحال إلى أقاصى الدنيا.. ولا يصرفنى عنها ما، يصادفنى من مظاهر الحياة الرغيدة فى بلاد أكثر ثراء، وأسخى طبيعة.. فأنا أعشقها كما هى.. بلا رتوش ولا تزويق ولا مساحيق... أحبها على طبيعتها التى فطرت عليها منذ بدء الخليقة... وأتابع مسيرتها الطويلة على مدار التاريخ.. أرصد

انتصاراتها وانكساراتها... وأفخر بصمودها وشموخها وبقائها على وجه الحياة برغم المحن والكوارث التى عرضت لها فى مختلف العصور، ولا أجد تفسيرا لخلودها سوى فى العناية الالهية التى حفظتها، وأبادت كل الذين أرادوها بسوء.

أين الهكسوس والفرس والأشوريون والإغريق والرومان والمغول والصليبيون؟ لقد ابتلعتهم مصر فى جوفها العميق، ولم يبق منهم سوى ذكريات مريرة نستعيدها فندعو بالرحمة للأجداد الذين ضحوا.. وجاهدوا.. ونشعر بالأسى على أولئك الطغاة الذين ساقهم الغرور إلى بلادنا فلقوا حتفهم.. ولو حفرنا فى عمق التراب المصرى فسوف نجد تحت كل حفنة رفات شهيد بذل روحه من أجل كرامة مصر، ولو استنطقنا الأرض المصرية لتكلمت كلاما شجيا فى معناه.. عميقا فى مبناه.. ثريا فى مغزاه.. مبهرا فى رؤاه.. وليست فصول هذا الكتاب إلا بعض ثمرات هذا الكلام.. وكل ما أرجوه من القارئ العزيز أن يرهف السمع...

جمال بدوى

روكسي ـ مصر الجديدة

ديسمبر ٢٠٠٠



الأميرة المتمردة

عرفت الحياة الاجتماعية المصرية ظاهرة الصالونات والمنتديات الثقافية منذ سبعينيات القرن التاسع عشر، وكان يرتادها رجال السياسة والفكر والأدب، للتداول فى هموم الوطن وما عسى أن تحمله رياح التغيير والتطور، فى وقت تعرضت فيه البلاد لخطر النفوذ الأجنبى، ويمكن اعتبار حلقة السيد جمال الدين الأفغانى فى قهوة «متاتيا» بميدان العتبة الخضراء أول شكل لهذه التجمعات التى تشربت أفكاره الثورية وتجسدت عمليا فى الثورة العرابية .

أما ظاهرة الصالونات النسائية فلم تعرفها مصر إلا فى صالون الأميرة نازلى فاضل، وقد فتحت أبواب قصرها فى درب الجماميز لاستقبال صفوة العلماء ورجال السياسة والصحافة والأدب والعلم. وفى هذا الصالون التقى الشيخ محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين وإبراهيم الهلباوى وإبراهيم المويلحى وفتحى زغلول وعلى يوسف وغيرهم من نجوم المجتمع الذين حملوا مشاعل النهضة

الاجتماعية والسياسية والفكرية التى شهدتها مصر فى أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وهى الفترة التى شهدت انبعاث الروح المصرية من جديد بعد انقشاع الصدمة التى أعقبت الاحتلال .

ومن المفارقات الغريبة أن صالون نازلى فاضل لم يجد الاهتمام الكافى عند مؤرخى الحركة الأدبية والاجتماعية. على الرغم من أن هذا الصالون قد أدى دورا مهماً فى تغيير فكر واتجاهات جماعة الشيخ محمد عبده، ويكفى أن تعرف أن قاسم أمين تحول من خصم لتحرر المرأة المصرية إلى داعية لتحررها بفضل تأثير نازلى فاضل وبعد مناقشات ومجادلات بين قاسم أمين وصاحبة الصالون كان ثمرتها تأليف كتابه الشهير (تحرير المرأة) .

حار بعض الباحثين فى تعليل تجاهل المؤرخين لصالون نازلى فاضل، بينما ركزوا الأضواء على صالون الأديبة (مى) وعللوا ذلك بأن نازلى فاضل تنتسب إلى تركيا الشمس الغاربة وتنتمى إلى الأسرة العلوية المكروهة !! .

وعندما نقبت عن الدراسات التاريخية التى اهتمت بصالون نازلى فاضل، لم أجد عندى سوى دراستين هامتين :

الأولى : كتبها الدكتور عبد المنعم الجميعى أستاذ التاريخ الحديث بجامعة القاهرة ونشرها فى المجلة التاريخية المصرية (المجلد ٣٨).

الثانية : للدكتور السيد فهمى الشناوى، ونشرها فى مجلة (الهلال) سبتمبر ١٩٨٢. واتفق الباحثان على أن نازلى فاضل صارت من مظاليم التاريخ. بل شهيدة .. ويكفى أنها من أوائل من شاركن فى الحركة الأدبية والتنوير الفكرى وإيقاظ الحياة المصرية العامة مع بعض نساء الأسر الراقية : مثل عائشة التيمورية، ثم هدى شعروای وكان لمشاركتهن هذه - إن لم يكن لريادتهن - أثر كبير فى وضع المرأة المصرية وتغييرها من مخلوق أنثوى إلى إنسان كامل .

وقبل أن نتحدث عن الصالون، نتحدث عن صاحبته :

تنتمى الأميرة نازلى فاضل إلى الأسرة العلوية المالكة، فأبوها الأمير مصطفى فاضل أخو الخديو إسماعيل، وابن البطل المغوار إبراهيم باشا، وحفيد مؤسس مصر الحديثة محمد على باشا، وكان من المفروض أن تنتهى إلى أبيها ولاية العرش بعد إسماعيل، بمقتضى فرمان ١٨٤١ الذى يجعل الحكم لأكبر أفراد الأسرة العلوية، ولكن إسماعيل، بعد أن استقر على الأريكة الخديوية، عمل على تغيير نظام وراثة العرش، واستخدم الرشاوى الطائلة حتى حصل من السلطان عبد العزيز على فرمان يجعل العرش من نصيب أكبر أولاد الخديو، وتبخرت أحلام مصطفى فاضل فى الحكم، ودخل فى صراع مرير مع أخيه إسماعيل انتهى باستسلام

مصطفى فاضل وتنازله عن أملاكه فى مصر، وهاجر إلى عاصمة الدولة العثمانية ليشن من هناك حربا على أخيه وعلى نظام الحكم العثمانى المستبد، ويتحول إلى أحد دعاة الحرية والدستور حتى أطلقوا عليه لقب (أبو الأحرار) وانصرف إلى العلم والأدب، فجعل من أحد قصوره مدرسة (الخديوية) وتحولت مكتبته الضخمة إلى دار الكتب المصرية التى تضم عيون الأدب والتاريخ والثقافة العربية.

روح التمرد:

فى هذا المناخ المترع بالثقافة والتحرر والمتأثر بروح التمرد على الجالس على العرش، نشأت ابنته نازلى، ففتحت أبواب قصرها لتستقبل الرجال مصريين وأجانب : تجالسهم وهى سافرة .. وتحاورهم فيما يكتبون .. وتشاركهم الشراب على أنغام الموسيقى الغربية .. فى الوقت الذى كانت فيه المرأة المصرية لا تزال أسيرة الحجاب واليشمك والبرقع .. ومحظور عليها مخالطة الرجال، فإذا أضفنا إلى ذلك ما كانت تتمتع به من جمال فتان، وذكاء خارق، وحب للجدل، لوجدنا أنفسنا أمام طراز نسائى غريب على الحياة الاجتماعية المحافظة. ولكى نقترب من الصورة الوصفية لهذه الأميرة المتمردة، نستمع إلى شهادة أحد رجال العصر وهو الزعيم محمد فريد الذى كان يعرفها عن قرب. فيقول فى الجزء الأول من مذكراته :

كانت نازلى فاضل من أنصار الانكليز وعشاقهم، وكانت تجاهر بذلك، تربت تربية أوروبية، ثم تزوجت بخليل شريف باشا، أخى على باشا شريف سفير الدولة العلية (العثمانية) بباريس، وعاشت معه سنين بها عيشة أوروبية بحتة، ولما توفى عادت إلى مصر، وبقيت مدة بلا زواج صاحبت فى أثنائها الكثيرين من الافرنج والمصريين، وكان لها شغف خصوصى بضباط الانكليز، كانت مشتغلة بالدسائس، فكانت تتجسس لعبد الحميد (السلطان) على إسماعيل (الخديو) وعليه كذلك للانكليز، وكانت تخاطب الصحافيين وتنشر آراءها فى الجرائد وكلها ضد المصريين، ولها حديث مشهور نشره (جرفيل) الأمريكى فى كتاب عن مصر، وصفت فيه الشبيبة المصرية أقبح وصف، وحديث آخر نشر فى الإجيبشيان جازيت حوالى سنة ١٩٠٩ قالت فيه إن الشباب المصرى لا يساوى ثمن الحبل الذى يشنق به، فقامت عليها الجرائد، وان كنا على طرفى نقيض فى السياسة. لكنها كانت تحترم آرائى، وكانت تكره مصطفى كامل، وتتهمه بالمتاجرة بالوطنية، ولكنها كانت لا تكلمنى بشأنه مطلقا لاختلافنا الكلى على هذه النقطة، ثم زعلت معها وقاطعتها من أواخر سنة ١٩٠٧ عندما كنت فى زيارتها بتونس، وكان مصطفى كامل فى مرضه الاخير فدعت عليه أمامى، وتمنت موته، فغضبت منها، ولم أقابلها بعدها قط مع أن صلتى بها كانت متينة .

ثم يقول محمد فريد: إنها كانت تتدخل فى القضايا مقابل سمسرة تأخذها باسمها أو باسم القضاة، فأضرت باسمهم كثيرا، هذه الصورة القاتمة لشخصية نازلى فاضل، كما رسمها محمد فريد يجب أن نقرأها بحذر، وعلى ضوء العلاقة الحميمة بين فريد ومصطفى كامل الذى كانت نازلى تجهر بالعداء له وتتهمه بالمتاجرة بالوطنية ولم تتورع أن تتمنى موته أمام رفيق نضاله، ولكن بغضها لمصطفى كامل يتعادل معه تأييدها ومناصرتها للزعيم أحمد عرابى وثورته، غير عابئة بنقمة الخديو توفيق الذى كان يتربص بكل من يصدر عنه رائحة التأييد لعرابى. فما بالك وهى لا تمل الكلام عن نزاهة أغراضه ونبل مقاصده. وقد سجل الكاتب الانجليزى الحر «بلنت» فى مذكراته عن سنة ١٨٨٧ ما جرى بينه وبين الأميرة نازلى من حديث حول «عرابى» بعد خمس سنوات من نفيه :

«زرت اليوم الأميرة نازلى، وهى ماهرة بمقدار ماهى جميلة، وحديثها بارع، ولو وجدت فى أى وسط لزانته، وقد أخبرتنا أشياء كثيرة خاصة بعرابى، وهى تعجب به، وتأسف لهزيمته، ولا تمل الكلام عن نزاهة أغراضه، ومما قالته انه لم يكن جنديا حسنا لأن قلبه كان أطيب من أن يساعده على ذلك، ولو كان رجلا يسطو ويعنف مثل محمد على، لأخذ توفيقا (الخديو) مع جميع الأمراء إلى القلعة وقطع رؤوسهم وصار أميراً على البلاد، ولو استطاع أن يجعل الخديو يسلك معه مسلك الشرف، لجعله ملكا على البلاد،

وكان عرابى فى رأيها أول وزير وطنى جعل الأوروبيين يحترمونه ويخضعون له، وكان المسلمون فى وقته يرفعون رؤوسهم ولا يمكنون الأوروبيين أن يخالفوا القوانين» ثم قالت : «لقد أخبرت «توفيق» بكل هذا، فان المصريين الان يخضعون للقوانين، بينما الأوروبيون لا يكترثون لها ».

هل كانت نازلى فاضل مجنونة حتى تناصر عرابى ضد كبير الأسرة المالكة التى تنتمى إليها ؟ وهل بلغ بها التهور أن ترى عرابى خليقا بأن يسوق الخديو ومعه جميع الأمراء إلى القلعة ويقطع رؤوسهم وينصب نفسه أميراً على مصر (!!) الواقع أن الأميرة المتمردة لم تكن مجنونة ولا متهورة .. ولكنها كانت مثل معظم أمراء وأميرات الأسرة العلوية ينقمون على توفيق خضوعه للإنجليز وانحيازه إليهم حتى وقعت البلاد فى ذل الاحتلال .. ونحن نعلم أن ثلاثة من أمراء الأسرة العلوية تصدروا الحركة العرابية ووقعوا على وثيقة خلع توفيق . ولكننا لا نعلم أن بعض أميرات هذه الأسرة كن معجبات أشد الإعجاب بعرابى وثورته حتى إن إحداهن عرضت عليه أن يتزوجها بعد فشل ثورته والحكم عليه بالإعدام ثم النفى. وأن هؤلاء الأميرات كن يبكين عليه بكاء حارا ويتسابقن على تقديم الهدايا إليه وهو فى طريقه إلى المنفى. وقد أثارت هذه الظاهرة دهشة المحامى الانجليزى (برودلى) الذى تولى الدفاع عن عرابى. وأشار إليها فى كتابه (كيف دافعنا عن عرابى) فقال :

لم يحدث فى أى جزء من أجزاء العالم أن خططت المرأة لكى تمارس المزيد من النفوذ السياسى الفعلى مثلما فعلت المرأة فى الشرق، ولعله لم يكن للمرأة نفوذ له قوته كدافع فى شئون الدوله مثلما كان نفوذ المرأة فى مصر إذ فى الحريم المصرى، وجد عرابى بعضا من أكثر أشياعه وطنية ونفوذا. لقد كانت القضية الوطنية، حتى فى مراحلها الأولى، تؤيدها بحرارة : الغالبية العظمى من سيدات مصر، وقد استمررن فى تأييدها حتى صار الأمل منها ميئوسا، ولم يكن سرا أن أعلنت أميرات الأسرة الخديوية تعاطفهن القوى مع «عرابى». وقد ذكرت «الوقائع الرسمية» حتى اليوم الذى أعقب ضرب الاسكندرية، الهدايا المجانية من الخيول التى وهبتها للجيش «أم الخديو إسماعيل» المسنة، وابنته الأميرة «جميلة هانم»، وشكلت اتحادات تحت رعايتهما لنجدة وإغاثة الجرحى فى كفر الدوار واعداد امدادات من الأتيال والضمادات ليستخدمها الجراحون فى الجبهة. هذا المظهر فى تاريخ الحرب يقدم بكل تأكيد ردا من الردود الجديرة بالملاحظة تماما على من ينكرون حركة عرابى .

وبعد بضعة أيام من انتهاء المحاكمة، دهشت لأن يزورنى خادم أمين من طرف «الأميرة إنجى» أرملة «الخديو السابق سعيد باشا»، التى تعد واحدة من أكثر النساء حبا للخير وأكثرهن شهرة فى مصر .

جاءنى بخطاب من سيدته هو أهم دليل على مالـ «عرابى» من تأييد فى داخل البلاد .

المشاعر الحقيقية:

بعد ذلك ببضعة أيام، كان لى، يقول برادلى، شرف الاستماع إلى الأميرة، التى كانت تود أن تحدثنى حديثا غير متحفظ عن المشاعر الحقيقية للأسرة الخديوية فيما يتصل بأسباب ونتائج الأحداث الراهنة فى مصر . قالت الأميرة «إن كل فرد منا يتعاطف سرا، من بادئ الأمر، مع «عرابى» لأننا كنا نعرف أنه لا يسعى إلا لخير المصريين. لقد اعتقدنا مرة أن «توفيق» كان أيضا فى جانبه، ولكن عندما اكتشفنا أن «توفيق» يقصد خيانة مصر، كرهناه من قلوبنا . ولقد بذل توفيق كل ما فى وسعه ليجعل حيواتنا بؤسا منذ ذلك الوقت. لقد عرفته الأميرة «انجى» التى نبجلها جميعا، عرفته مرتين وفى منتهى الوضوح، بسوء مسلكه، ولكن لم ينصلح حاله بأية صورة، ثم مالبث بعد ذلك أن ذهب «توفيق» إلى الإسكندرية، وبعدها سمعت أنه انحاز تماما إلى الانجليز ثم استقر رأينا جميعا منذ هذه اللحظة أن نتطلع فقط إلى «عرابى» للدفاع عن البلد، وعقدت اجتماعات من كل كبراء مصر فى القاهرة، حضرها «الأمير إبراهيم» و «الأمير كامل» والأمير أحمد واستقر الرأى بالاجماع بتفويض «عرابى» باستئناف الحرب. لقد رأينا فى «عرابى» محررا ولم يعرف حماسنا له أية حدود. إننا جميعا بعثنا له بخطابات

وتلغرافات بتهنئته وتشجيعه، لقد كتبت الأميرة الى «عرابى» خطابا غاية فى الحماقة، إذ عرضت عليه فيه، على ما أعتقد أن تتزوجه باعتباره منقذا لمصر، فكان كل ما قاله لها عرابى أن تهتم بشئونها وأن تبقى فى دارها. لقد ساهم كل فرد منا فى تكاليف الحرب طبقا لإمكاناتنا. وكنا نحن الأميرات مشغولات دائما بعمل ضمادات للجنود، وفى يوم من أيام سبتمبر، عاد «عرابى» إلى القاهرة وسمعت أول ما سمعت أنه جاء معه برأسى «الجنرال ولسلى» و «الأميرال سيمور» ولكن تبين أن هذه الإشاعات لم تكن صحيحة، وأنه كان يعانى من هزيمة منكرة. عمنا جميعا حزن شديد، ولكننا لم نكن بالغات الاكتئاب تماما مثلما صرنا عندما علمنا بعودة «توفيق» منتصرا، لأننا توقعنا جميعا سوء معاملته لنا، وقد كان: فقد بعث أولا فى طلب الأميرة المسكينة وعنفها لمكاتبتها لـ «عرابى»، ولكن أمها، مع ذلك، أعلنت فى شجاعة أنها هى التى كتبت الخطاب وختمته بخاتم ابنتها، فكان مآلها الطرد بعد ذلك، ولكن الأم عنفت بصوت عال: الأغا الذى وشى بهما عند الخديو باستمرارها فى مراسلة «عرابى»، وضربته فوق رأسه بكرسى، فجرى بعد ضربه، وهو يدمى، الى سلم الخديو «توفيق» ليعلن عن شكواه.

وفى النهاية، صدرت لنا جميعا الأوامر بالذهاب الى القصر، كثيرات من السيدات كن يصحن خوفا، ولكن أم توفيق «عنفتنا

بصوت عال وقالت أن بطلنا «عرابى» سيسلمه الانجليز لهم ليقتلوه قتلا بطيئا بالمخاريز bodkins وأمسكت بقائمة فيها أسماء كثيرات منا سجلن لينفذ فيهن حكم الإعدام، ولكنى منذ أن تبين أنه لا يمكنهم أن يفعلوا شيئا سواء لنا أو لعرابى بدون موافقة الانجليز، من وقتها وهم يكرهون الانجليز الآن أكثر من كراهيتهم لنا. ولما عُرف فى القصر أن حياة «عرابى» قد أبقى عليها، استسلمت النساء لحزن وكآبة شديدين، كما لو كان الموت قد حل بالأسرة فجأة. كان رأينا عن المستقبل رأيا إجماعيا تماما، وهو أنه بعد كل ما حدث، فإنه طوال حكم توفيق، فلن يكون هناك سلام بالنسبة له، ولنا، أو لمصر».

الانغماس فى السياسة:

كانت الأميرة نازل فاضل من الجناح الناقم على الخديو الخائن توفيق. ودفعها الحماس إلى الانغماس فى شئون السياسة، ولا عجب أن تولدت فى صالونها المشاعر القومية بعد فترة من الكبت السياسى والفكرى والأدبى، حيث قربت منها العديد من رجالات مصر السياسيين أمثال: جمال الدين الأفغانى، ومحمد عبده، وسعد زغلول، وقاسم أمين ومحمد فريد وإبراهيم الهلباوى وحسين رشدى .. ويعزو الدكتور الجميعى اهتمامها بالسياسة إلى أنها تنتمى إلى فرع من الأسرة الحاكمة كان يرى أحقيته بولاية العرش، لذلك فإنها كثيرا ما ناوأت الخديو إسماعيل، ووقفت بجانب

معارضيه أمثال الأفغانى أثناء تواجده بمصر أو خلال تواجده بالأستانة، كما كانت تتجسس على الخديو عباس الثانى لحساب السلطان عبدالحميد، وعلى السلطان لحساب الإنجليز كما ذكر محمد فريد، يضاف إلى ذلك أنها كانت على علاقة بأعضاء جماعة تركيا الفتاة مما أدى إلى سخط السلطة عليها، وقد توثقت علاقتها بالأفغانى لدرجة أن قال عنها : «إنها تمثال الكمال والجمال، حضرة البرنسيس التى لها من قلبى المنزل الأبهى، والمقام الأسنى». كما حاول أن يطلب لها من السلطان «وسام الشفقة المرصع»، ولكنه لم يفلح فى ذلك، أما أثرها فى الحياة الفكرية والأدبية فيستحق التسجيل .

سمعت عن الأميرة نازلى فاضل وصالونها لأول مرة من استاذنا المرحوم الدكتور عبد اللطيف حمزة وهو يحاضرنا فى قسم الصحافة بجامعة القاهرة عن المنتديات والمجالس الأدبية فى القرن التاسع عشر. وأثرها فى تكوين مشاهير الأدب والصحافة والفكر والفن، فكان يقول : لئن افتخر الجيل الذى نحن من أبنائه بالكثيرين ممن تخرجوا فى المدارس والجامعات، فقد كان من حق الأجيال التى سبقتنا فى القرن الماضى أن تفخر بالكثيرين من أصحاب المواهب الخاصة، ممن لم يتخرجوا فى جامعة ولا مدرسة، ولئن افتخر الجيل الحاضر بهذه المؤسسات الكثيرة كالمعاهد والجامعات، فقد كان من حق الاجيال السابقة أن تفخر بالمجالس الأدبية سواء

ماكان منها أرستقراطيا كمجلس الأميرة نازلى فاضل، ومجلس محمود سامى البارودى باشا، ومجلس اسماعيل باشا صبرى، وماكان منها شعبيا ديمقراطيا كهذه الجماعات التى كانت تتحلق دائما حول التجار فى محلاتهم المنتشرة فى الأحياء الشعبية وكما كانت المجالس الأدبية الارستقراطية تجذب إليها من شيوخ الأدب بعض سراة القوم وبعض الشباب المثقف، فقد كانت الحلقات الأدبية الشعبية تجذب إليها أخلاطا من شيوخ الأزهريين، وبعض المتعطشين من الشباب إلى الظهور فى عالم الأدب، أو النبوغ فى ميدان الشعر والخطابة والكتابة .. وكان هؤلاء يجدون فى هذه المجالس الصغيرة من اللذة والمتعة ما يصرفهم، ويصرف التجار معهم حتى عن العمل الذى يكسبون منه العيش .

كان صالون نازلى فاضل من النوع الاول، فصاحبته تنتسب إلى العائلة المالكة، وضيوفها صفوة القوم فى مصر من أمثال شريف باشا أبو الدستور، ورياض باشا كبير النظار، وسلطان باشا رئيس مجلس النواب، وحسين رشدى باشا، وسعد باشا زغلول وأخيه فتحى باشا، والمحامى الضليع إبراهيم الهلباوى، والصحفى الألمعى إبراهيم المويلحى، وقاسم بك أمين أول داعية لتحرير المرأة، والشيخ على يوسف صاحب «المؤيد» والأديب الثائر أديب اسحق، وكان هؤلاء الأفذاذ لا يكتفون بمناقشة قضايا الأدب والشعر والصحافة، وإنما كانت جلساتهم تتناول هموم الوطن وعلى رأسها قضية

الاحتلال، ويعرضون وسائل الإصلاح الاجتماعى وأحوال المرأة المصرية وغيرها من القضايا ذات الاهتمام المشترك .

ولو دققت فى المنابع الثقافية لرواد الصالون، فسوف تجد أن بعضهم ينتمى إلى الثقافة الأوروبية وعلى رأسهم صاحبة الصالون التى كانت تتحدث الفرنسية كاحدى بنات «السين» فضلا عن الانجليزية والتركية والعربية، ولكن تربيتها الأوروبية لم تضعف غيرتها على دينها ومجتمعها ووطنها، فكانت تدفع رواد الصالون للرد على مفتريات الكتاب الأوروبيين الذين تهجموا على الإسلام، وتشجعهم على تفنيد أقوالهم بالحجج القوية والبراهين المنطقية، وكان من شأن هذا اللقاء بين تيارين مختلفين : الشرقى الإسلامى والغربى الأوروبى، أن يفهم كل منهما الآخر، وأن تنشأ أرضية مشتركة انطلقت منها الدعوة للارتقاء بالمجتمع المصرى، والتخلص من العلل التى تراكمت عبر مئات السنين، وكان اكثر رواد الصالون تأثرا بأفكار الأميرة نازلى وشخصيتها اثنين من أعلام النهضة المصرية هما : الإمام محمد عبده، والأستاذ قاسم أمين، وكان أثرها واضحا فى تغيير أفكارهما .. أو – إن شئنا الدقة – تطور أفكارهما.

ساعى الأميرة:

أما محمد عبده فقد توثقت صلته بالأميرة بعد عودته من منفاه عام ١٨٨٨، خاصة أنه علم بمساعيها لدى الخديو توفيق، واللورد

كرومر، ورياض باشا رئيس النظار فى إصدار العفو عنه، فأصبح عضوا بارزا فى صالونها وتوثقت علاقته بها مما كان له أثره العميق فى حياة الشيخ نفسه كما يشهد على ذلك تلميذه محمد رشيد رضا وهو يؤرخ لأستاذه، أما الإمام الشيخ مصطفى باشا عبد الرازق - وهو من تلاميذ محمد عبده - فيرى أن الأميرة استطاعت أن تؤثر فى أفكار الشيخ محمد عبده فى وجوه ثلاثة هى:

(١) على الرغم من عداوة الشيخ محمد عبده للانجليز، وكتاباته الملتهبة ضدهم، خاصة فى جريدة «العروة الوثقى» التى أصدرها بالاشتراك مع أستاذه «الأفغانى» فى باريس، فقد استطاعت الأميرة عن طريق علاقتها الوطيدة به أن تخفف من عداوته لانجلترا، وأن تقربه من صديقها «كرومر» لدرجة أن تلاشت من صدره عداوة إنجلترا، وأصبح يجهر فى كتاباته بدورها فى تنظيم أمور مصر، كما أعلن عن مهادنه للإنجليز موضحاً أن إصلاح الأمة لا يتحقق إلا عن طريق التربية والتعليم والاستنارة، وتكوين أفرادها علميا وفكريا، وأنه لا يمانع فى الاستعانة بالانجليز على نوال بعض الإصلاح، ولو أدى ذلك إلى معاداة الخديو .

يضاف إلى ذلك أن محمد عبده قاد عملية التفاهم بين السلفية والتحديث، وأباح للعقل المصرى أن يفكر غير متحرج ولا متحفظ فى أمور الدين والسياسة، والاجتماع، وعرض كل شىء للنقد واستخلاص وجه الحق فيه، برغم أى قيود أو ظروف .

(٢) إلمامه فى كتاباته بموضوعات لم يتعرض لها قبل تعّرفه على الأميرة، ففى مقاله «الصور والتماثيل وفوائدها وحكمها» قام بتقريظ فوائد حفظ هذه الآثار؛ وأجاز للرسامين عملها بقوله : «إن الرسم ضرب من الشعر الذى يرى ولا يسمع، والشعر ضرب من الرسم الذى يسمع ولا يرى»، وقوله : «وأما إذا نظرت إلى الرسم – وهو ذلك الشعر الساكت – فأنك تجد الحقيقة بارزة لك تتمتع بها نفسك، كما يتلذذ بالنظر فيها حسك»، وقوله : «فحفظ هذه الآثار حفظ للعلم فى الحقيقة، وشكر لصاحب الصنعة على الابداع فيها».

(٣) أن أسلوبه الكتابى فى أواخر أيامه يميل إلى الدعابة والخفة، كما فى الفصول التى كتبها عن سياحته .

ويعلق الدكتور عبد المنعم الجميعى على أفكار الشيخ محمد عبده حول الصور والتماثيل بأن هذا الكلام ما كان يخرج من شيخ أزهرى مثل الشيخ محمد عبده لولا تأثير الأميرة عليه، ويضيف إلى أقوال الشيخ مصطفى عبد الرازق : إن عناية الشيخ باتقان الفرنسية ربما كان نفحة من نفحات الأميرة، ويرى أن المبالغة فى تأثير الأميرة على الشيخ محمد عبده إلى هذا الحد قد يبعدنا عن الموضوعية بعض الشىء .

ويستطرد الدكتور الجميعى لتبرير التطور الذى حدث على أفكار الامام فيقول : حقيقة إن الشيخ ساند العرابيين خلال ثورتهم، ووقف للانجليز بالمرصاد، وهاجمهم على صفحات العروة الوثقى

وغيرها هجوما عنيفا، وأنه بعد أن قابل الأميرة تغير موقفه تجاههم .. ولكن لماذا لا نرجع ذلك إلى اقترابه من سن الشيخوخة وأن التجارب صقلته، وحنكت أفكاره، حقيقة إن بعض عظماء الرجال برزت عبقريتهم فى منبت العطف والتأثير النسائى، وأن الشيخ محمد عبده تأثر ببعض أفكار هذه الأميرة، ولكن ليس إلى الحد الذى يسلبه أفكاره كوطنى حاول بث فكرة الوطنية المعتدلة فى نفوس مواطنيه، وطالب الحاكم بإصدار دستور عادل لحكم بلاده .

تحرير المرأة

أما تأثير الأميرة البارز فقد كان على قاسم أمين، إذ نقلته من النقيض إلى النقيض .. ودفعت به من فريق المتحاملين على المرأة إلى أكبر المدافعين عنها .. وترجع قصة هذا التحول إلى كتاب «مصر والمصريون» الذى كتبه أحد قضاة المحكمة المختلطة الفرنسيين واسمه الدوق «داركو». وقرأ قاسم أمين الكتاب فثارت فى نفسه الحمية، واستفزته المطاعن ضد الإسلام وضد المصريين. فقد كان الكتاب سلسلة من الإفتراءات تناولت الجماعة المصرية بالتجريح وسوء القصد والحقد الأسود، ولم تصدر عنه كلمة واحدة تنفى الشك فى سوء نية المؤلف .. وكأنما كان باعثه الوحيد أن يطلع أمته الفرنسية على مثالب الدولة التى تركتها بلاده لتفترسها انجلترا وحدها دون أن تشاركها الغنيمة.

يقول الدكتور ماهر حسن فهمى فى تأريخه لقاسم أمين : قرأ قاسم الكتاب، فأصيب بحمى لازمته عشرة أيام، لأن كل هذه المطاعن فى مصر والمسلمين كانت مثيرة لحواس مسلم غيور مثله يرى فى كل كلمة جارحة من كلمات الدوق طعنة موجهة إلى كرامته، ورأى أن الرد على هذه الطعنات يستوجب وضع كتاب يكشف الأباطيل التى أذاعها الدوق الفرنسى، حتى إذا وصل إلى الجزء الخاص بالمرأة تناول الموضوع من جوانبه المتعددة، فاذا كانت المرأة الشرقية محجبة أو متأخرة عن زميلتها الأوروبية، فان ذلك يرجع إلى عصور الجهالة والظلم، ودافع قاسم أمين عن الحجاب فقال : إن الحجاب فى مصر لا يعنى السجن فى المنازل كما زعم الدوق، فالمرأة المصرية تخرج للزيارة وإلى الأسواق، وقارن بينها وبين المرأة الأوروبية ليكيل الصاع صاعين للكاتب الموتور، فأورد إحصاء قاسيا يدل على أن ربع المواليد فى فرنسا غير شرعيين، ويؤكد أن المرأة الباريسية هى التى تعيش لغرائزها، ولاشك أن مرجع ذلك إلى الاختلاط الشديد بين الرجل والمرأة التى تهيأ لها كل ظروف الرذيلة، فهناك النزهات الطويلة حيث يقضى الرجل والمرأة وقتا فى جو مثير للغرائز حين يخلوان إلى نفسيهما على العشب، وهناك حمامات البحر «البلاجات» حيث ترتدى المرأة لباسا يبرز كل تقاسيم جسمها، وهناك الحفلات الصاخبة والولائم المليئة بكؤوس الخمر، حيث يصطحب الصديق زوجة صديقه، فتنعقد الألسنة ويفقد الجميع إرادتهم وعقولهم، ثم هناك الحفلات الراقصة حيث تلبس

المرأة ثيابا شفافة عبث بها المقص من كل ناحية، وتلتف الساق بالساق، وتلتصق الأجسام ويحتضن الرجال النساء ويتحركون مع أنغام الموسيقى والرؤوس على الأكتاف .. فهل بعد كل هذا إلا التهتك، وهل نتوقع إلا الانحلال الخلقى، وانتهى إلى ضرورة قبوع المرأة المصرية فى بيتها لترعى شئون الأسرة ولا تخوض الحياة العامة تحت أى ظرف .

لقاء:

هذا ما كتبه قاسم أمين مؤيدا لفكرة الحجاب ومدافعا عن التقاليد الشرقية، وقرأت الأميرة نازلى هذا الكلام فاستشاطت غضبا، وتصورت انه يعرض بها لأنها - كما سبق القول وكما وصفها محمد فريد - تعيش حياة أوروبية صرفة، فطلبت من الشيخ محمد عبده أن يبلغ صديقه قاسم أمين استياءها الشخصى، وانها مستعدة أن تناقشه بالحسنى قبل أن تهاجمه علنا، فحمل محمد عبده رسالة الأميرة إلى صديقه، واقترح عليه أن يقابل الأميرة ويستمع إليها ويوضح لها حسن نيته خاصة أن بعض رواد الصالون وجدوا فيما كتبه قاسم أمين تعريضا جارحا بالأميرة، وقبل قاسم أمين العرض، وذهب بصحبة الإمام فماذا وجد ؟ وجد - على حد قوله - نفسه أمام امرأة مصرية تدافع عن مصر ونساء مصر وحقوق مصر، وكل ما يمت الى مصر، بل إنها تجادل الكتاب الأوروبيين وتشدد النكير عليهم إن هم تحاملوا على مصر،

وتجادلهم عيانا وجهارا عندما يذهبون إلى صالونها، وهى تفعل ذلك دون أى حرج، وبلا مقابل تتوقعه، ودون طمع فى مركز سياسى أو مكسب اجتماعى أو طنطنة إعلامية، بل كل ذلك عن أصالة وتجرد .

وعن أثر هذا اللقاء يقول الدكتور السيد فهمى الشناوى : خرج قاسم أمين من عندها ممسوسا وقد علم أمرين كان جاهلا بهما ، علم من نازلى فاضل أن المرأة المصرية لو تعلمت لأصبحت خيرا من المرأة الفرنسية التى كان قد رآها وكتب متأثرا برقيها وتقدمها، وعلم من محمد عبده أن الإسلام نفسه يدعو ويوجب تعليم المرأة المسلمة، ولما كانت أداته فى التعبير هى الكتابة، وكان قد استعمل هذه الأداة فى نقد المرأة المصرية، دفعته شجاعته الأدبية أن يكتب ما يناقض ما سبق له كتابته، فنشر سلسلة مقالات - بعد تحوله من النقيض إلى النقيض - فى صحيفة «المؤيد» جمعها فى كتابه الشهير «تحرير المرأة» والواقع أنه تحرير لفكر قاسم أمين على يد هذه السيدة من خلال هذا الصالون، فإذا قلنا إنها كونت أو طورت قاسم أمين، لا نكون مبالغين .

إلى هذا الحد بلغ تأثير نازلى فاضل وصالونها على أحد رواد العصر، دخل تاريخ الحركة الاجتماعية من بوابة «تحرير المرأة» وجاء هذا الكتاب انتصارا لأفكارها، وإرضاء لتطلعاتها.

وترديدا لما كان يدور فى حجرات صالونها، ويمكن اعتبار هذا الكتاب ثمرة جهود ثلاثة عقول هم : نازلى فاضل، والشيخ محمد

عبده، وقاسم أمين، فالأميرة تحمست لقضية تحرير المرأة المصرية، ومحمد عبده بث الأفكار التى تؤكد احترام الاسلام للمرأة، وقاسم أمين اقتنع فعبر بقلمه عن هذه القضية الخطيرة.

صانعة الزعماء:

يبقى بعد ذلك جانب هام فى شخصية نازلى فاضل، هو علاقتها بالانجليز وعلى رأسهم عميدهم «كرومر» الذى كان يتردد على صالونها بصفة منتظمة، ويلتقى بالساسة والمفكرين المصريين، ويستمع إليهم ويشارك فى مناقشاتهم وقد أدى هذا إلى التشكيك فى وطنية الأميرة، ووصفوها بأنها كانت انجليزية الهوى والتفكير، وان كلمتها كانت ذات وزن وتأثير لدى السفارة البريطانية، وفى ذلك يقول الدكتور الشناوى : الواقع أن الانجليز كانوا يحترمونها ويقدرونها وكانوا يرون فى رواد صالونها خلاصة الفكر الراقى من الوطنيين الذين كان الانجليز أنفسهم حريصين على تعرف نبضهم ومحاولة استقطابهم إن أمكن .. ولكن هل يمكن إلا أن نعترف بأن أمثال سعد زغلول وقاسم أمين ومحمد عبده، كانوا مخلصين لمصر، وفوق أى شبهة عمالة للانجليز وأن تقرب الإنجليز منهم إنّما كان كياسة وحسن سياسة، لقد كتب «رونالد ستورز» عنها فى تسعة مواضع فى مذكراته المعروفة باسم «شرقيات» والتى كانت أشبه بتقرير رسمى وسجل دقيق له كسكرتير شرقى للسفارة فى فترة كرومر وجورست.

والسكرتير الشرقى هو أهم وأخطر مساعدى المعتمد البريطانى، وستورز بالذات لعب أخطر الأدوار فى تاريخ الشرق الأوسط، وهو يقول إن نازلى هى التى نصحت سعد زغلول بتعلم اللغة الفرنسية، وأنها هى التى رشحته للزواج من «صفية» ابنة مصطفى باشا فهمى رئيس الوزراء، وكانت تزكيتها له هى جواز المرور للموافقة، فقد كان سعد فلاحا ابن فلاح، وكان مصطفى فهمى تركيا، مما يدل على مقدرتها الفائقة على حسن الاختيار، وعلى صدق الفراسة من ناحية نازلى ومبلغ الزعامة الكامنة فى سعد حتى يفرض زعامته مبكرا على هذ الأميرة ذاتها، ثم أنها هى التى رشحته بقوة وتصميم ليصبح وزيرا، فكان أول وزير مصرى صميم، وفى وزارة هى أهم وزارة وقتئذ «وزارة المعارف» صحيح أن تزكية نازلى وحدها لم تكن لتكفى فى التأثير على المعتمد البريطانى، لولا كفاءة سعد نفسه، وها هو الصالون نفسه يعج بصفوة الصفوة من أهل الرأى مثل محمد عبده وقاسم أمين وعلى يوسف والدمرداش باشا وغيرهم، بل ان رونالد ستورز ينص فى مذكراته على أن فتحى زغلول كان أكثر ميلا للانجليز، ومع ذلك لم يصبح وزيرا ومات محسورا لعدم بلوغه هذا المنصب .

ولعل فى كل هذه المساندة من نازلى لسعد زغلول تكفيرا لمن يقول إنها كانت انجليزية الهوى والميول، فقد خدمت الحركة الوطنية بمساندتها لسعد، وهيأت خطوة النجاح الأولى فى يسر وسهولة

حتى اذ تهيأت الظروف آلت إلى سعد قيادة الثورة الشعبية سنة ١٩١٩.

***

وهكذا استطاعت هذه الأميرة المثقفة التى كانت تفوق أكثر أهل عصرها من أبناء الشرق فى الاشتغال بالسياسة، والاهتمام بقضايا بنات جنسها، أن تسوس مواهب رجالات مصر، وأن تؤدى دورها الطليعى فى الحياة الفكرية المصرية، وأن تهيئ المناخ الفكرى لحركة التغيير التى كانت تترقبها مصر، حتى وافاها الأجل فى ديسمبر من عام ١٩١٣.



سعد زغلول يرفض العرش
هل عرض الانجليز على سعد زغلول عرش مصر؟

فى غضون عام ١٩٦٣ فوجئ الناس بصحيفة «الأخبار» تنشر سلسلة من الدراسات للكاتب الكبير المرحوم مصطفى أمين فى شكل تحقيقات صحفية عن ثورة ١٩١٩، ووجه الدهشة أن الصحف، ومعها كافة وسائل الاعلام والتثقيف، كانت قد كفّت عن ذكر المرحلة السياسية السابقة على قيام ثورة يوليو ١٩٥٢، على أمل أن ينسى الناس هذه المرحلة التاريخية، وتنمحى من ذاكرتهم، وأن الثورة الوحيدة التى تستحق الذكر هى ثورة يوليو وكان الميثاق الوطنى - الذى أطلقوا عليه وصف إنجيل الثورة - كان قد صدر قبل ذلك بعام تقريبا، وتضمن تهوينا من شأن زعيم ثورة ١٩١٩ سعد زغلول واختزل دوره فى أنه لم يفعل أكثر من ركوب موجتها (!!) وصار من المحظورات - أو المكروهات - نشر أى شئ يعيد إلى ذاكرة الناس أمجاد هذه الفترة التى شهدت ازدهار الحياة المصرية، وتمخضت عن بروز رواد وعظماء فى السياسة والاقتصاد والأدب والفن والطب والهندسة .. الخ ..

ومن هنا كانت دهشة الناس من جرأة مصطفى أمين على كسر الحظر، وإنعاش ذاكرة الجيل الجديد بأمجاد ثورة ١٩١٩، ويبدو أن هذه الدهشة، كانت تصاحبها فى نفس الوقت غضبة فى دوائر الحكم .. فقد توقف النشر فجأة دون إبداء الأسباب(!!) ..

ومرت سنوات .. حتى أواسط السبعينيات، وكنت وقتها فى أبو ظبى، إذ عثرت فى إحدى المكتبات على جزءين من (الكتاب الممنوع) بقلم مصطفى أمين، وقد روى فى مقدمة الكتاب قصة هذا المنع، فقال إنه - قبل أن ينشر سلسلة التحقيقات فى صحيفة «الأخبار» استأذن الرئيس جمال عبد الناصر، فأذن له، وبعد فترة قال له جمال عبد الناصر أنه تلقى تقارير من الأجهزة المختلفة تقول إن الغرض من نشر هذا التحقيق الكبير هو التقليل من قيمة ثورة ١٩٥٢، وأن عبد الناصر قال له إنه لا يعتقد فى صحة هذه الأقوال، وطلب منه الاستمرار فى النشر، ثم اتصل به مرة أخرى وقال له إن بعض الأجهزة تؤكد أن الغرض من هذا التحقيق إثبات أن فى قدرة الشعب الأعزل أن يثور على الجيش المسلح، ورغم ذلك فإن الرئيس طلب منه أن يستمر فى النشر، وفجأة .. قامت قيامة مراكز القوى، وادعت أن الغرض من هذا التحقيق هو تحريض الشعب على الانقضاض على الثورة .. وعندئذ صدر الأمر بوقف النشر فى صحيفة «الأخبار»، فاتفق مصطفى أمين مع الدكتور السيد أبو النجا - المشرف العام على دار المعارف - على نشر هذه التحقيقات فى كتاب، وفجأة .. صدر أمر بعدم طبع الكتاب (!!) ..

يقول مصطفى أمين : واستمر المنع أحد عشر عاما، فقد دخل الكتـاب السـجن فى يوليـو ١٩٦٣، ودخل الكاتب السـجن فى عـام ١٩٦٥، ثم جاء عصـر العبور، وتم الافراج عنى، وكـان لابد أن يتم الافـراج عن الكتـاب الممنوع، ثم يروى مـصـطفى أمين الدوافـع التى أملت عليـه الاهتـمـام بثـورة ١٩١٩، فـقـد ولد فى بيت الأمـة – بيت سعد زغلول – وعاش فى هذا البيت لمدة ثلاثة عشر عاما، فقد كان سعد خال والدته، وقد تبناها بعد وفاة أبيها، دون إشارة إلى اسم الأب أو مـهنتـه، وكـان مصطفى أمين ينادى سـعـد زغلول (يا جدى) وينادى زوجـتـه أم المصـريين (ياسـتى) وعـايش أحـداث الثورة يومـا بيوم .. حضر مواكبها وجنازات شـهدائها، وعاصر انتصاراتها وهزائمها، ورأى المعارك بين الانجليز المسلحين بالمدافع، والمصريين المسلحين بالطوب، ثم إنه اطلع على مذكرات سعد زغلول، ومذكرات قـادة الثـورة، وانتـهى من كل ذلك إلى أن ثورة ١٩١٩ كـانت ثورة شـعـبيـة أصيلة، خرجت من القرى والكفور قبل أن تخرج من المدن والبنادر، وانطلقت من الشوارع المفتوحة والميادين الواسعة، كانت ثورة شعب بأكمله لا ثورة فريق دون فريق، جمعت الفقراء والأغنياء، الأمـيين والمثقفين، الرجال والنساء، الباشوات والفلاحين، الموظفين والعمـال، وإن قيـمـة هذه الثورة فى أنها قـامت بعد أيام من خروج بريطانيـا من الحـرب العظمى وهى أقوى إمبـراطورية فى العـالم لا تغيب عنها الشمس، فلم ينقض الشعب المصرى على عدو مـهزوم، وإنما انقض على أعظم دولة منتصرة فى تاريخ العالم ..

ويعترف مصطفى أمين أنه لم يكتب عن ثورة ١٩١٩ بالأسلوب التقليدى، بل ترك الوقائع حية تتكلم، وتحكى، وتروى، وتكتب، وقد أدى ذلك إلى تداخل الوقائع فى بعضها البعض، وتشابك الأحداث فى تتابعها وتربطها، وإلى حدوث بعض التكرار فى عرض بعض الوقائع التى تضمنتها الوثائق والتقارير ..

فمصطفى أمين أخذ بأسلوب التحقيق الصحفى الذى يتحرى الحقيقة من أكثر من مصدر، ويعرض كل وجهات النظر ولو كانت متعارضة، ويترك للقارئ حرية استخلاص النتائج التى يطمئن إليها، ولم يلتزم مصطفى أمين بالمنهج التاريخى فى تصفية الوقائع وتحليلها ونقدها، ثم عرضها فى شكل برشامة سابقة التجهيز، وقد فضل مصطفى أمين أن يشارك القارى فى الأحداث ..

وعلى طريقته فى كشف المفاجآت المدهشة، استهل مصطفى أمين كتابه بمفاجأة ظهرت له أثناء قراءة مذكرات سعد زغلول، وهى أن المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى كان عضوا فى الجهاز السرى لثورة ١٩١٩، بل كان عضوا فى المجلس الأعلى للاغتيالات السياسية، وهو الجهاز الذى كان يدبر عمليات اغتيال عملاء الاحتلال، ويشرف عليه الرجل الأسطورى عبد الرحمن فهمى ويعاونه مجموعة من ألمع الشباب الوطنى مثل أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى وحسن كامل الشيشينى وشفيق منصور، وكل

هؤلاء سقطت عنهم السرية وقدموا للمحاكمة، أما الرافعى - الذى اشتهر بالاعتدال والرصانة - فلم يؤثر عنه الميل إلى العنف أو الانضمام للجمعيات الثورية، وقد كان - وظل إلى آخر حياته - مواليا لمدرسة الحزب الوطنى، حزب مصطفى كامل ومحمد فريد، الذى حمل راية النضال الوطنى طوال العقدين الأولين من القرن العشرين، فلما قامت ثورة ١٩١٩ وظهر الوفد المصرى بزعامة سعد، مالت شمس الحزب الوطنى نحو الأفول وقامت بين الحزبين خصومات كلامية، إلا أن هذه الخصومات لم تمنع المؤرخ الرافعى من أن ينغمس فى العمل الوطنى الفدائى، كما لم تمنع أخاه أمين الرافعى، صاحب جريدة «الأخبار» من أن يشارك فى أحداث الثورة الوطنية، فكانت له مواقف غاية فى النبل محفوظة فى سجلات الثورة ..

كان وضع المؤرخ عبد الرحمن الرافعى فى قيادة تنظيم الاغتيالات مفاجأة مذهلة بكل المقاييس بالنظر إلى تكوينه الشخصى، ولم ينتظر مصطفى أمين أن يضع هذه المعلومة فى مكانها الطبيعى من الكتاب عند حديثه عن نشاط الكفاح السرى، ولكنه بادر بنشرها فى المقدمة ليثير انتباه القارئ إلى ما سوف يراه بعد ذلك بين دفتى الكتاب ..

لقد أثارت المفاجأة شهية مصطفى أمين لمعرفة المزيد من المعلومات حول هذه الواقعة، لقد سبق له قراءة كل مؤلفات الرافعى

فلم يجد إشارة واحدة إلى هذا الموضوع، وكانت تجمع بينهما صلة عائلية إذ كان الرافعى شريكا للأستاذ أمين يوسف (والد مصطفى أمين) فى مكتب للمحاماة فى دمياط والمنصورة، وكثيرا ما كان يراهما يتبادلان الذكريات دون أن يذكر مرة واحدة أنه كان قياديا فى الجهاز السرى للثورة، وما كان من مصطفى أمين - المحقق الصحفى الضليع - إلا أن ذهب إلى الرافعى ليعرف منه الحقيقة. واعترف الرجل بالحقيقة، فلما سأله عن عدم ذكره لها فى كتبه ومذكراته، قال : لأننى أقسمت اليمين ألا أفتح فمى مادمت حيا. فقال له مصطفى أمين : ولماذا لا تكتب هذه الأسرار وتطلب عدم نشرها إلا بعد موتك ؟ فكان جوابه وهو يضحك : لو كتبت ذلك أكون قد حنثت فى اليمين (!!) ..

سعد ملكاً على مصر

وليست تلك هى المفاجأة الوحيدة التى افتتح بها مصطفى أمين سلسلة تحقيقاته الصحفية عن ثورة ١٩١٩، فقد أعقبتها مفاجأة ثانية وهى رغبة الانجليز فى تعيين سعد زغلول ملكاً على مصر بعد خلع الملك فؤاد ..

ومسألة تغيير الجالس على عرش مصر، من المسائل التى خاضت فيها الأقاويل، فقد قيل أن الانجليز فكروا فى إقصاء الأسرة العلوية وتعيين «أغا خان» ملكاً على مصر .. وقيل أن الانجليز عرضوا العرش على زعيم مصرى مرموق - هو محمود

باشا سليمان - ولكنه أبى (!!) ولكن كل هذه الأقاويل تفتقر إلى السند التاريخي الذي يدعمها، وفي تصوري أنها لم تكن أكثر من أداة لتهديد الملك فؤاد حتى يذعن إلى مطالبهم ..

أما مصطفى أمين فقد كان حريصا، وطرح المسألة في شكل سؤال: هل حاول الانجليز القضاء على ثورة ١٩١٩ بتعيين زعيم الثورة ملكا على مصر ؟ وهل عرض عرش مصر على سعد زغلول ؟ ثم يقول إن هذا سوال لم يجب عنه التاريخ بعد، ومن واجبنا ونحن نحقق ثورة ١٩١٩ أن نكشف الستار عن هذا السر ! فماذا كان وراء الستار ؟

يشير مصطفى أمين إلى زيارة قام بها رئيس الوزراء البريطاني، لويد جورج إلى مصر، عام ١٩٣١، أي بعد وفاة سعد زغلول بأكثر من أربع سنوات وفي أثناء حفل غداء أقيم له بفندق هليوبوليس، روى للوزراء المصريين أن الحكومة البريطانية - بعد أن أعتقلت سعد زغلول للمرة الثانية عام ١٩٢١ - وفي أثناء مقامه في عدن، بعثت إليه الحكومة البريطانية بضابط مخابرات عرض عليه أن يتولى عرش مصر، ولكنه رفض، وعندئذ أدرك الانجليز أنه لا أمل في مساومته أو تطويعه، فأمروا بنقله إلى جزيرة سيشل في أعماق المحيط الهندي، ويقول مصطفى أمين أن الذي نقل إليه كلام رئيس الوزراء البريطاني، أحد الوزراء الحاضرين حفل الغداء وهو توفيق باشا دوس. ويعقب مصطفى أمين على ذلك بقوله : لا يمكن

للمؤرخ أن يعتمد على هذه القصة لأنها قصة بلا مستندات . ولذلك نراه يعود إلى البرقيات السرية التى بعث بها المعتمد البريطانى - لورد اللنبى - إلى حكومته، ليستنتج منها ما يؤيد الرواية التى رواها لويد جورج ونقلها توفيق دوس ..

ولكن مجمل البرقيات التى بعثها اللنبى خلال الأيام السابقة على اعتقال سعد ونفيه إلى عدن ثم سيشل، كانت تعبيرا عن الحالة الهستيرية التى أصابت دار المعتمد البريطانى بسبب صلابة سعد زغلول، ولم يكن فيها ما يشير إلى مسألة العرش. عندئذ يعود مصطفى أمين إلى كتاب أصدره مستر «سيلفستر» السكرتير الخاص لرئيس الوزراء البريطانى كشف فيه النقاب عن العرض الانجليزى ..

فى آخر ساعة

يقول مصطفى أمين : إن الصحف والمجلات - طوال حكم الملك فؤاد - بقيت صامتة لا تستطيع أن تفتح فمها، فتذكر أو تشير إلى السر الخطير ..

ومات الملك فؤاد ..

وبعد وفاته خرجت مجلة (آخر ساعة) فى يوم ١٤ يونيو سنة ١٩٣٦ وألقت القنبلة .. فقد كتبت بالحرف الواحد :

هناك صفحة من تاريخ مصر الحديث ضائعة، أو حلقة مفقودة من التاريخ السرى للثورة المصرية الأخيرة، ولا نعرف هل آن أوان نشر هذه الصفحة أم لا؟ ولا نعرف كيف ستقابل هذه المعلومات من حضرات الزعماء ومن رجال السراى، ولكنها خدمة نقدمها لأولادنا الذين سيكتبون غدا تاريخ مصر كما يجب أن يكون !

والسؤال هو : هل عرض عرش مصر على سعد زغلول ؟

والجواب : «نعم» وهناك شهود أحياء، ووثائق تاريخية لهذا العرض الذى تم فى عام ١٩٢٢، فعندما نفت السلطة العسكرية سعداً إلى سيشل تقدم إليه فى مدينة «عدن» مندوب رسمى من حاكم عدن، وطلب مقابلته مقابلة خاصة ..

وكان أن أبلغ مندوب الحاكم العام سعد زغلول أن الحكومة البريطانية تعرض عليه أن يختار لنفسه أمراً من اثنين: أن يصر على الاشتغال بقضية الاستقلال، وسوف تكون نتيجة هذا الإصرار نفيه إلى سيشل ليبقى بها مدى حياته (وذكر له المندوب مدى الأهوال التى سوف يصادفها) .. أو أن تنصبه الحكومة البريطانية سلطانا على مصر تحت الحماية البريطانية، وتضمن له استقلالا ذاتيا فى حدود هذه الحماية !

وأجاب سعد زغلول بلا تردد : إننى أفضل أن أكون خادما فى بلادى المستقلة، على أن أكون سلطانا فى بلادى المستعبدة المحتلة !

وسأله مندوب الحاكم : هل هذا هو الرد الأخير ؟

فأجاب سعد : إنه لكذلك ..

وهكذا انتهت المقابلة الخطيرة ! ثم يستطرد مصطفى أمين:

ولقد دوّن سعد هذه المقابلة فى مذكراته بتفصيل دقيق، وسمعتها أنا شخصيا من المغفور له فتح الله باشا بركات وأنا أعرف انه دونها فى مذكراته، الموجودة الآن عند الدكتور بهى الدين بك بركات، وأعرف أن أم المصريين تعرف هذه القصة بالتفصيل من سعد زغلول، وأعرف أن عددا من أعضاء الوفد وعلى رأسهم الرئيس الجليل،(يقصد مصطفى النحاس باشا) ومعالى مكرم عبيد باشا، يعرفون القصة (وهما الوحيدان على قيد الحياة من زملاء سعد فى سيشل) ..

(انتهت الكلمة التى نشرتها مجلة (آخر ساعة) فى العدد ١٠١ الصادر يوم ٢٤ يونيو ١٩٣٦ فى الصفحة ١٢ ..)

إساءة للأسرة المالكة

وبعد نشر هذه الرواية ثارت ثائرة الأمير محمد على – وكان فى ذلك الوقت رئيس مجلس الوصاية على الملك القاصر فاروق – وتحدث فى ذلك مع عبد الفتاح الطويل الوكيل البرلمانى لوزارة القصر، وتحدث أيضا إلى مكرم عبيد باشا، فقال له مكرم : إن الرواية صحيحة مائة فى المائة، فقال له الأمير محمد على انه لا يعترض على صحة الرواية، ولكن نشرها فيه إساءة للأسرة المالكة

ولم ينشر تكذيب لهذه القصة، حتى ظهر كتاب (سعد زغلول) للأستاذ عباس محمود العقاد. وجاء فيه :

«نزل سعد وأصحابه فى قلعة عدن، فلم يلبثوا قليلاً حتى جاءهم رسول من مصر هو موظف سورى كبير كان يعمل فى دار الحماية، فاستأذن فى لقاء سعد على انفراد، وخرج معه فى ركنه الرياضى، افتتح معه حديثا وجيزا عن المفاوضات والحلول المعروضة ثم فاجأة بكلمة مقتضبة لا علاقة لها بحديثه السابق قائلا : ستكون ملكاً على مصر» ..

فدهش سعد لهذه المفاجأة وأجابه فى حدة واستغراب : «مالنا ولهذا ؟ وما شأنى أنا والمُلكُ. ولست إلا واحدا من الرعية ؟» فعاد الرجل إلى الكلمة يكررها وأضاف إليها : «إنك زعيم الأمة الذى لا ترتضى سواه، ولو قبلت ما يعرضه الانجليز عليك وعلى الأمة لما خالفك أحد» .. فاختصر سعد هذه المحادثة، وقال للرجل: «إننى أفضل أن أكون فرداً فى أمة مستقلة على أن أكون ملكاً لبلاد مستعبدة فى ظل حماية أجنبية». ولزم الصمت فى عودته إلى القلعة، بعد أن قال له – على ما أذكر : «إننى أحب لو أننى لم أسمع شيئا مما تقول، ولا أود أن أسمعه مرة أخرى، منك أو من سواك» ..



الشيخ..والسلطان

كانت زيارة السلطان عبد العزيز لمصر فى عام ١٨٦٣ هى أول زيارة يقوم بها سلطان عثمانى للمحروسة منذ وطأتها سنابك خيول السلطان سليم الأول فى عام ١٥١٧ .. وشتان بين الزيارتين .. والفاصل بينهما حوالى ثلاثة قرون ونصف قرن عاشتها مصر فى غياهب الفقر والجهل والتخلف والنهب العثمانى .. وانقطع ما بينها وبين العالم .. لولا أن نهض بها محمد على، ونفث فى روحها نفحة حيوية جديدة .

لقد دخلها سليم الأول فاتحا وغازيا وناهبا كما كان يفعل المغول والهمج، وعندما خرجت إليه القوات المصرية بقيادة السلطان «قنصوه الغورى» لتصده عن اقتحام الشام، استخدم سليم الغدر والخيانة لدحر الجيش المصرى واستطاع أن يشترى ذمم اثنين من الأمراء المماليك هما : جان بردى الغزالى، وخاير بك الذى سماه المصريون (خاين بك) ليكون اسما على مسمى، وصدم الغورى من هول الخيانة فأصيب بالشلل وخر صريعا وهو فى قلب المعركة ولم

تظهر له جثة .. وانهزم الجيش المصرى فى «مرج دابق» بالقرب من حلب .. وانفتح الطريق أمام الجيش العثمانى للزحف نحو مصر(!!).

كان خروج السلطان الغورى الى الشام، متسقا مع النظرية الاستراتيجية الأزلية التى تؤكد أن أمن مصر القومى - شمالاً - يبدأ عند «حلب» وأن انهيار خط الدفاع السورى يعنى سقوط مصر فى أيدى الغزاة .. وهو ما فعله سليم الأول .. إذا انساحت جيوشه نحو مصر، وفشلت المقاومة الباسلة التى بذلها «طومان باى» لصد العثمانيين، ووقع فى أيديهم فشنقوه على باب زويلة، وأباح سلطان المسلمين لجنوده أن ينهبوا ويسلبوا ويسرقوا ويعيثوا فسادا فى أهل القاهرة ثمنا للجهد العظيم الذى بذلوه فى احتلال مصر حتى ارتوت نفوسهم المتعطشة الى المال والدماء، ومن يومها تحولت مصر من دولة مستقلة ذات سيادة، الى ولاية تحكم من استانبول، ورغم كفاح محمد على من أجل استقلال مصر، فقد بقيت بضعة خيوط تربطها بدولة الخلافة .. هى خيوط الشرعية التى لا تسمح لحاكم مختار من الشعب بأن يمارس صلاحياته إلا بعد الحصول على صك الاعتراف من الخليفة (!!)

زيارة السلطان عبد العزيز

نحن الآن فى سنة ١٨٦٣ م وهى السنة التى جلس فيها إسماعيل على أريكة مصر تحدوه آمال كبار فى أن يجعل منها

قطعة من أوروبا، فنقل إليها مظاهر الحضارة والتنوير .. ولكنه لم يستطع أن يكْبح ضعفه الانسانى كأب يريد أن يمتد حكمه الى أكبر أبنائه، وليس إلى أكبر أفراد الأسرة العلوية كما تنص فرمانات ١٨٤١، ولكى يصل الى مبتغاه كان لابد أن يصل الى قلب السلطان .. وهو طريق لا يرتاده إلا من يحمل فى يده القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، وهى الأداة الوحيدة التى لها تنصاع إرادة السلطان .. وفكر اسماعيل فى حيلة ذكية وخبيثة تعزز مكانته عند السلطان عبد العزيز، وهى دعوته لزيارة المحروسة ليلقى نظرة على رعاياه المتشوقين لرؤية طلعته البهية، فيرق قلبه لحالهم .. وفى نفس الوقت يستجيب لمطلب اسماعيل فى تغيير نظام وراثة العرش. ولبى عبد العزيز الدعوة وهو يعلم أهدافها المعلنة والخفية .. ولم يكن عنده أى مانع فى التوقيع على أى فرمان .. طالما أن الثمن مدفوع .. والشك ممنوع .. وكانت هذه الزيارة التاريخية التى شغلت صفحات عديدة من كتاب (تاريخ مصر فى عصر الخديو إسماعيل) الذى وضعه إلياس الأيوبى واستمد مادته من كتابات المؤرخين الأجانب الذين عاصروا هذه الزيارة. وكتبها الأيوبى بلغة شاعرية تناسب الأيام والليالى المخملية التى قضاها السلطان عبد العزيز فى مصر .

فى البداية ينبهنا الأيوبى الى وقع هذا النبأ العظيم على أهل مصر، والشرف الكبير الذى نالهم بهذه الزيارة، فلم يكن فى عالم

الإسلام أحد يتصور أن يأتى الخليفة لزيارة مصر، لأن سلاطين آل عثمان منذ «مراد خان» سنة ١٦٣٠ - لم يغادر أحدهم عاصمة ملكه .. لا لجهاد .. ولا لتفقد أحوال رعيته .. ولا لزيارة غيره من عواهل الدنيا (!!) وما أن أشرف يوم السابع من أبريل إلا ووصل الأسطول المجيد الى عرض بحر الاسكندرية، فتجلت لهم هذه المدينة، كأنها العروس المنتظرة ساعة الزفاف، فدنوا منها فى جهة مرفأ رأس التين، وأعين قاطنى السراى شاخصة إليهم، وقلوبهم مختلجة سرورا وروح «اسماعيل تستمرئ لذة المطمع المحقق (...) ودوت المدافع من الطوابى المحيطة بالمدينة، إيجابا واحتراما، وملأ الفضاء صدح الموسيقات العديدة، وارتفعت أصوات الجم الغفير المحتشد على الساحل، ضاجة .. عاجة .. وقد مزجت التحية السلطانية بالتحية الأميرية وصائحة : «بادشاهمز جوق باشا» «وافنزمر جوق بشا» معا .. ونزل «إسماعيل» ومعه عمه «حليم باشا» وغيره من أكابر رجاله فى زورقه الفخم، وسار قاصدا اليخت السلطانى لتهنئة متبوعة الأعظم بسلامة الوصول، وتقديم فروض الاحترام والإجلال، فقبّل يد السلطان، وصافح باحترام وانحناء أمراء البيت العثمانى .. ثم حمد وشكر، ودعا دعاء صالحا .

إرادة محمد على

ونزل السلطان عبد العزيز فى سراى رأس التين، فبهره زخرفها ورياشها والبذخ المنتشر فى جميع أثاثها، وأخذ يحدق بنظره من

نوافذ السلاملك بالأعمال المدهشة التى خلقتها إرادة «محمد على» الباشا العظيم، وقص عليه إسماعيل كيف أن جده فى بلد كانت تخيم عليه أشباح الهمجية - قد أنشاء كل تلك المعجزات فى أقل من ثمانى سنوات .. وكيف أنه حفر الحوض اللازم للترسانة، وأقام المخازن والمعامل فيها وحولها، وبنى أسطوله العظيم المؤلف مما يزيد على خمس وثلاثين قطعة مشتملة على أكثر من ألف وخمسمائة مدفع بالرغم من عدم وجود الخشب والحديد له، وكيف أن أوصل ماء النيل الى الاسكندرية بحفر ترعة المحمودية التى يرى مصبها أمامه .. وبحفره إياها بدون آلات ومعاول، بل بأيدى الفلاحين وأصابعهم لعدم وجود تلك الآلات فى البلاد، وكيف أنشأ سراى رأس التين والطوابى الحصينة التى تدرأ عنها وعن الساحل تعديات كل عدو. وكيف أقام المنارة الشاهقة لتهدى السفن .

وقص عليه أيضا كيف تم فى عهد عباس، وبالرغم من إرادته، مد خط السكة الحديد بين الاسكندرية ومصر، ولم يكن شئ من ذلك فى معظم البلاد الأوروبية الاكثر حضارة، فارتاحت نفس السلطان إلى أحاديثه. وبعد ذلك قام السلطان يصحبه إسماعيل فى جولة فى شوارع الاسكندرية التى تزينت بالأعلام الخفاقة، والأنوار المتألقة، وكان الأهالى واقفين على حافات حوانيتهم وقفة الخاشعين، وإذا ما دنا منهم الموكب يسجدون عبادة أمام جلالة الخليفة، بينما أناس منهم ينثرون الورود والزهور فى طريق الموكب. أو يحرقون البخور العطر والعود والند .

وحان موعد الانتقال الى العاصمة، فتوجه الركب الى المحطة حيث كان فى انتظاره القطار المعد لركوبه، ولم يكن السلطان قد رأى قبل ذلك قطارا .. فاستوقفته آلاته وعدته، وأهاجت فيه عواطف حب الاستطلاع وكانت قوية فى قلبه، فأخذ يستفهم ويستفسر عن كل ما يرى، فتقدم إليه ناظر المحطة، ومهندس القاطرة بكل بيان شاء، حتى إذا أتت الساعة الحادية عشرة، صعد السلطان الى صالونه الخاص، وجلس اسماعيل فى مقعد آخر بجواره ليكون تحت طلبه، وركب باقى الأمراء العثمانيين والعلويين فى عربات القطار الأخرى ورجال الحاشيتين، فسار بهم القطار يقطع سهول الوجه البحرى، حتى إذا بلغ بهم القطار كوبرى كفر الزيات الفخم، أخذ الكل يعجبون ببنائه، ويعظمون من شأنه، ويبالغون فى تقدير نفقاته، وقال إسماعيل إنه بلغ سبعة ملايين من الفرنكات، وأخذ البرنس حليم يقص على من معه فى المقعد حكاية نجاته من الموت فى حادثة سقوط القطار فى النيل منذ خمس سنوات تقريبا . ولما مروا على طنطا، ورأوا ازدحام الناس على محطتها ونظروا الى مآذن وقباب الجامع الأحمدى، طلب عبد العزيز بعض إيضاحات عنها وعن أهميتها فأجابه إسماعيل الى طلبه، وقص عليه ما يجرى فيها أيام المولد الأحمدى .

وقضى السلطان عبد العزيز خمسة أيام فى القاهرة أقيمت له خلالها حفلات أشبه بسهرات الف ليلة وليلة .. وزار معالم الآثار الفرعونية. ووقف مذهولا أمام الأهرامات وأبى الهول. وأدى صلاة الجمعة فى مسجد محمد على بالقلعة حيث كان يستقبل كبار المهنئين وأعاظم العلماء والبطاركة والرؤساء الروحانيين والوجهاء والأعيان، ولكى يظهر لهم بجملة واحدة مقدار انشراحه من زيارته للقطر المصرى قال لهم : «إنى ضيف إسماعيل وضيفكم» فكان لقوله هذا وقع عظيم فى القلوب، لأنه كان بمثابة إعلان رسمى لاستقلال مصر على حد تعبير الكاتب الياس الأيوبى - الذى بلغت به السذاجة والسطحية اعتبار هذه الكلمة التى تنم عن المجاملة اعترافا رسميا باستقلال مصر (!!) .

حكاية الشيخ العدوى

ومن الطرائف التى وقعت أثناء زيارة السلطان تلك الحادثة التى كان بطلها «الشيخ حسن العدوى» ووضعت الخديو اسماعيل فى مأزق، ذلك أن الخديو طلب اختيار نفر من علماء الأزهر لكى يتشرفوا بالمثول والسلام على جلالة السلطان وأن يقتصر اللقاء على السلام فقط دون تبادل الأحاديث أو الكلمات لأن السلطان لم يكن يعرف كلمة عربية واحدة. وتم اختيار أربعة من شيوخ الأزهر بينهم الشيخ حسن العدوى. وتم تدريبهم على أصول وقواعد المثول بين يدى السلطان. وهى أصول مغرقة فى التشدد. إذ تلزم الداخلين على السلطان - حتى لو كانوا من شيوخ الاسلام - أن يدخلوا

راكعين مع تطويح أيديهم يمينا ويسارا حتى تلامس أصابعهم الأرض. ثم التقهقر عائدين وهم على هذه الصورة المهينة، وقام قاضى القضاة التركى بتدريب المشايخ الأربعة على هذه الحركات البهلوانية. وأفهمهم سماحته أن المقابلة ستكون فى قاعة يقف السلطان فى صدرها على منصة مرتفعة قليلا عن الأرض، وأن عليهم ان يتقدموا راكعين حتى إذا وقعت عين أحدهم على عين جلالته ازداد انحناء حتى يلمس الأرض بكفيه، ثم يتقدم نحو الحاجز الذى يتوسط القاعة بخطوات موزونة حتى إذا صار أمامها كرر الانحناء والتسليم ووقف. فيرد السلطان على تحيته. فيعيد حينئذ الانحناء والتسليم مرة أخرى، ثم يرجع مقهقرا بظهره ووجهه نحو جسم السلطان الى أن يبلغ باب الخروج فيكرر الانحناء والتسليم ثم ينصرف مثلما دخل حتى يتوارى عن نظر السلطان وأثناء عملية التدريب أبدى العلماء دهشتهم من أن تقتصر مقابلة سلطان المسلمين على هذه الحركات من الانحناء وتطويح الأيدى، فقال لهم قاضى القضاة التركى إن الأمر لكذلك ولا يمكن الخروج على هذه التقاليد المعمول بها فى قصور آل عثمان. فقالوا: «قد فهمنا».

مفاجأة غير متوقعة

وحان وقت دخول العلماء .. فدخل ثلاثة منهم قبل الشيخ العدوى وهم على هذه الطريقة التى أمرهم بها القاضى التركى. فلما جاء

الدور على الشيخ العدوى، دخل وانحنى مثل السابقين، ولكنه سرعان ما خرج على التقليد واتخذ طريقه نحو السلطان وقد انتصبت قامته، وارتفعت هامته. وحذاؤه الثقيل يدك البلاط المرمرى، وفزع إسماعيل من تصرف «العدوى» الذى خرق أصول البروتوكول، وأخذ يبحث عن مخرج من هذا المأزق قبل أن يحدث ما يغضب السلطان، أما الشيخ العدوى فكان يحث السير نحو السلطان فى خطى ثابتة .. حتى جاوز الحاجز .. وصعد الى المنصة التى يقف عليها السلطان، وإسماعيل يتوارى ذعرا .. وصوب العدوى نظره نحو السلطان وقال : «السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته». فوثب قلب الخديو من جرأة الشيخ، وانحنى أمامه انحناءة خفيفة، حينئذ انطلق لسان الشيخ من عقاله، وأخذ يخاطب السلطان فيما يجب عليه نحو رعاياه بصفته كبير الحكام، والمسئول الأول عن شئون الرعية وأخذ يحثه على إقامة موازين العدل والقسط بين الناس، وأكد له أن ثوابه عند الله تعالى سيكون بمقدار ثقل المسئولية وحسن أدائه لها، كما أن عقابه عند الله على قدر إهماله الأمانة وتفريطه فيها، وعندئذ امتقع وجه الخديو، وأخذ يعلن الساعة التى اختار فيها هذا الشيخ المتمرد ويسب من أشار عليه باختياره، وأخذ يتوقع أن يؤنبه السلطان على تصرف الشيخ، ولكن المفاجأة أن ملامح الارتياح بدت على وجه عبد العزيز فلما فرغ الشيخ من خطبته، ختمها بالسلام الذى بدأها به، ثم انحنى أمام السلطان. وقفل راجعا بوجهه لا بظهره كما فعل الآخرون. وسبحته فى يمينه،

فلما خرج الى البهو وجد زملاءه فى انتظاره يتميزون غيظا ويلومونه على فعلته، وينذرونه بسوء المصير. فقال لهم: «ولماذا أنتم منزعجون ؟ أما أنا فقد قابلت أمير المؤمنين .. وأما انتم فكأنكم قابلتم صنما .. وكأنكم عبدتم وثنا ..»

أما السلطان فقد التفت الى اسماعيل يسأله : من الشيخ ؟ فبادر إسماعيل يعتذر ويقول : «إنه من أفاضل العلماء ولكنه أبله ومجذوب» .. فقال السلطان : «لا .. إنه ليس مجذوبا .. وإنى لم أنشرح لمقابلة أحد انشراحى الى مقابلته ..» وأمر للشيخ العدوى بخلعة سنية، وألف جنيه جائزة .

* * *

ولقد كذب الخديو وصدق السلطان .. فلم يكن الشيخ العدوى مجذوبا ولا مجنونا كما حاول إسماعيل أن يحط من شأنه، ولكنه كان عالما يعرف قدر نفسه وقدر العلم الذى يحمله بين جنبيه، وقدر الأمانة التى تفرض عليه أن يكون شجاعاً فى حضرة أمير المؤمنين. وليس أدل علي ذلك من الموقف البطولى الذى اتخذه الشيخ العدوى أثناء الثورة العرابية، فقد شارك فى أحداثها بكل شجاعة، وبعد ضرب الاسكندرية وانحياز الخديو توفيق الى الانجليز، كان العدوى أحد العلماء الذين أصدروا فتوى بخلع توفيق لمروقه عن الدين وخروجه على الإجماع الوطنى ووقوفه فى صف الأعداء، وبعد فشل الثورة عانى العدوى من التنكيل الذى أصاب كل رموز الثورة،

فـضُرب وسُجن وحُوكم، وتم تجـريده من جـمـيع الرتب وعـلامـات الشرف والامتياز فخلعها راضيا سعيدا، وبقى اسمه رمزا لكرامة العلم وشجاعة العلماء

أسطورة الفداء الوطنى
أحد نجوم ثورة ١٩١٩ عَبد الحَىّ كيرة

ما أروع النجوم التى لمعت فى سماء مصر مع اندلاع الثورة الشعبية فى عام ١٩١٩ ضد الاحتلال البريطانى، وما أعظم هذا الرعيل الطاهر من شباب مصر الذين سطروا بدمائهم أشرف صفحات التضحية والشهامة والنبل وإنكار الذات .

ومن هؤلاء عبد الحى كيرة طالب الطب الذى جرفته دوامة الثورة فسخر عبقريته فى التنظيم والتدبير وملاحقة جنود الاحتلال أينما كانوا .. ولم يكن أحد من معارفه يتصور أن هذا الشاب الذى يذوب رقة ودماثة وهدوء. يخفى تحت جلده بركانا ثائراً .. وروحا هائمة من أجل عزة مصر واستقلالها وكرامتها .. كان عبد الحى كيرة يتمتع بقدرة فذة على التخفى والهروب من عيون الاحتلال التى كانت تتعقب الشباب الفدائى، وتدهم المواقع التى يتواجدون فيها وبينهم عبد الحى كيرة .. فكان يخرج من المأزق كما تخرج الشعرة من العجين .. ولا يخطر على بالهم أن هذا الشاب الذى يقف بينهم

ثابت الجنان هو العقل المدبر للعمليات الفدائية . وأنه الصيد الثمين الذي يبحثون عنه.

وأذكر أننى قرأت فى أحد مؤلفات الأديب الكبير الراحل يحيى حقى صورة وصفية رائعة لهذا البطل الفذ، وهى صورة تكاد تبلغ حد الأساطير فى الشجاعة والثبات .. إلى أن توصلت إليه عيون الانجليز فقرر الهرب إلى ليبيا متخفيا فى زى الأعراب وبصحبة قافلة بدوية، ومن طرابلس حملته إحدى السفن إلى استانبول، وعاش هناك متنكراً حتى لا تصل إليه أيدى المخابرات البريطانية، ويذكر الأستاذ يحيى حقى أنه التقى به صدفة فى أحد شوارع استانبول عام ١٩٢٩ حيث كان يحيى حقى قنصلا لمصر هناك، ولم يستغرق اللقاء أكثر من بضع ثوان انفلت بعدها عبد الحى كيرة فلم يكن لديه أى رغبة فى الحديث إلى أحد يعرف شخصيته، وبقى عبد الحى كيرة متخفيا فى مدينة استانبول حتى عثروا عليه ذات ليلة قتيلا فى حديقة عامة بطعنة خنجر من أحد عملاء المخابرات البريطانية بعد أن توصلت إليه، وغدرت به انتقاما لنشاطه الوطنى القديم .

المعلومات عن عبد الحى كيرة شحيحة، ولم أعثر فى الكتب التى أرخت لثورة ١٩١٩ شيئا كثيرا عن هذا البطل صاحب الشخصية الفريدة التى كان أهم صفاتها التضحية والإخلاص والنبل ونكران الذات، إلى أن وجدت فى رفوف مكتبتى نسخة قديمة من (مجلتى)

التى كان يصدرها الأستاذ أحمد الصاوى محمد، ويرجع تاريخ العدد إلى أول أغسطس ١٩٣٧، ووجدت بين صفحاته مقالا بقلم الأستاذ حسنى الشنتناوى المحامى، وهو المقال العاشر من سلسلة مقالاته عن أسرار ثورة ١٩١٩. ويقول فى مقدمة مقاله أنه كتبه تلبية لرغبة أصدقائه الذين يطلبون منه كشف الأستار عن هذه الثورة العظيمة ليطلوا على العصر المقدس، ويستمعوا إلى أصداء الصيحة البريئة حينما سرت فى دماء الناس، فجعلتهم كالسكارى أو كالمجانين، فالدنيا كلها تحب المجهول، وتعيش من أجله، وما أتعس الناس إذا هم تلوا قصتهم كما لو كانت فى سجل محدود مكتوب .

ولكن .. من ناحية أخرى يذكر الكاتب أن زملاء قدماء أخرين يرون أن الوقت لم يحن بعد لإزاحة الستار عن مسرح الثورة ليرى الجيل الحديث أخاديد الدم، وحشرجة الأموات وهى تختلط بقهقهة المنتشين، وليرى الثورة وهى تحترق من رماد الأشلاء، ثم تنفجر بالبكاء والضحك والعويل والأناشيد .. هذا البركان المزيج ما أروعه .. ويعبر الكاتب عن حزنه أن تبقى وجوه مستورة عن أعين الناس، يتجاهلونها إذا مروا بها، ولو أنهم عرفوها لقبلوها .. ويتساءل الكاتب : وما معنى السياسة فى مصر ؟ وإذا لم تكن عدتنا الصراحة والشجاعة، فبأى سلاح سوف نقف فى المجزرة القادمة..؟ يطلب بعض أصدقائى، ممن تقدمت بهم السياسة إلى حمل شطر

من المسئولية فى مصر : ألا أنقب كثيراً فى خبايا الماضى، ولكن ذلك لا يمنعنى من أن أقف على باب الهيكل لأتلو آياتى، وأرسل عبراتى على الفانين والأحياء المتألمين .

ثم يروى الأستاذ الشنتناوى قصة عبد الحى كيرة الذى كان يحمل اسما حركيا هو (فهمى) :

فى سنة ١٩١٩ كان شاب نحيل الجسم، أسمر اللون، قصير القامة، ذو عينين ترسلان الشرر، وفى أنفه قطع صغير، يمر ببعض المنازل جاهدا منقبا، فإذا كانت زيارته هى الأولى، وتقدم لمن يريده فى المنزل بواسطة صديق ممن يثق به الطرفان دعا نفسه باسم «فهمى»، وكان «فهمى» سريع التفاهم، سريع الإدراك، سريع الإقناع، ويعرف «فهمى» كيف يصبح متمماً للعائلة التى يطرقها .. ثائرا غضوبا لا تهدأ له قدمان، ولا يستقر له وجدان، ولكنه أليف وديع كالحمامة يحبه الذين يتردد عليهم، فإن مر ببيت صديق من الأصدقاء الذين اتخذهم عونا له فى ثورته - وكانت شطراً كبيراً من ثورة مصر - ثم لم يجده قال لمن يلقاه : (قل لصديقى إن «فهمى» حضر).

وكانت عند «فهمى» الأنباء جميعها، فإن كان أحد أصدقائه مهدداً بالسجن أو متبوعا بالجواسيس فعند فهمى من ذلك نبأ، وإذا اشتد الخناق على صديقه بسط أمامه مختلف الحيل .

فتراه يقول لأحد أعوانه : «البوليس يتبعك، وأظن أنك ستسجن قريبا» ويدور الحديث هادئا كأن السجن زيارة عادية فلا وجل ولا إشفاق من هذا ولاذاك .

ولكن يعقب فهمى على ذلك بقوله : (أتريد أن تهرب ؟ .. إن إردت فإنى أحضر لك «الباسبور» باكرا، فتسافر إلى البلد الذى تختاره).

ولكن صوت فهمى الرنان، وعهد الموت الذى كان بينه وبين أعوانه، يجعل فى الهرب ولو كان رحلة إلى أوروبا عاراً لا يحتمله مثل هذا الحوار الرائع، فيجيب صديقه: أنا لا أهرب، سأبقى هنا معكم حتى يحملنى البوليس إلى السجن. ولا يجد فهمى فى ذلك ما يثير دهشته، فيبتسم ابتسامة هادئة ستبقى فى آذان من رأوها داوية كالرعد .

الرجل الساخر من الحياة والموت يبتسم ابتسامة النصر، وكل شيء ضئيل ممدود تحت قدميه .

وينتقل فهمى من حديث العذاب والسجن المنتظر إلى جلائل الأمور، فيقف بمفرده كالجيش الزاحف الذى لا يصده شئ، ويرسم الخطط، ويصدر أوامر كانت كالوحى الذى لا يرد على أعوانه .

ولكن صديق «فهمى» الموعود بالسجن القريب، يسأله إذا كان هو أيضا مهدداً بالوقوف موقف الاتهام، فيطمئنه ويقول له أننى مازلت بعيداً عن أعين الجواسيس .

وكان «فهمى» يحضر لأعوانه ومعه الخرائط الدقيقة والالات السريعة، ثم يقول لأحد الأعوان : فى هذه الساعة تجد على بعد كذا من الأمتار شخصا وهو مكلف أن يمدك بالمعونة وأن يحميك عند الحاجة وعلى بعد كذا تجد عربة تحمل ذياك الرقم فاقصدها إن أردت ...، وفى ساعة محددة ستمر أمامك سيارة .. وعند نهاية الشارع شاب ...

ثم يحدث ما توقعه لصديقه، فيقبض عليه ويسجن متهما بما ظنه البوليس من عمله وهو فى حقيقته من صنع «فهمى» .

ويبلغ من شأن الرجل الساخر، «فهمى» أو «عبد الحى كيرة» إن أردت أن تعرف اسمه الرهيب على حقيقته، إنه يزور صديقه فى السجن، ويجلس معه فى فنائه تحت حجرات البوليس السياسى، وقد يدخل أحد أقطاب هذا البوليس ويتبادل مع «عبد الحى» النظرات، ثم يتحول أحدهما عن الآخر كأن لم تكن بينهما شئون ولا أسباب، ولو علم البوليس حينئذ لأدرك أن القيادة السرية كلها رابضة على خطوات منه وتحت نوافذه .

* * *

وسيدة أخرى مجهولة تعرف «فهمى» وكان «فهمى» يعرفها، فأرسل يوما أحد أتباعه فى مهمة سرية، وعاد منها وفى ساعده جرح وفى بذلته مزق كبير، والدنيا مائجة تتحدث عن المهمة السرية،

ومجرد ظهوره بعد ذلك في الطريق بالدم والبذلة الممزقة يوقعه في أيدى الباحثين المتلهفين من رجال البوليس ..

وأشفقت السيدة على الشاب المجروح، وكان يتحدث مع ابنها عسى أن يجدا مخرجاً من الشبهات، فنظرت إليهما باسمة، وكأنما تقول لهما إننى أعرف كل شئ ...

وكانت ابتسامة غائرة جمعت بين المحبة والإشفاق والإعجاب، ثم اختفت قليلا وعادت ببذلة أخرى لأبنها وكان فى مثل قوامه، وطلبت إليه أن ينزع رداءه المقطوع وطلبت إليهما مرافقتها حتى سطح المنزل، وسكبت على البذلة سائل البترول ثم أشعلتها. فطوت بذلك أثراً كان يوقع من يوقع، ومن يدرى فربما بقاؤه كان يغير شيئا من التاريخ ...

وبقى الدم السائل من ساعده .. ولكن «فهمى» كان يعد طبيباً لمثل هذا الطارئ ويقول لأعوانه اطرقوه فستجدوه مستعداً مطلعاً .

وهو الآن طبيب كبير ولكنه صامت ..

فذهب الجريح وصديقه، وكاد الطبيب يفتح لهما شقى صدره وهما يدخلان عليه : أحدهما جريح والآخر صديق، ولهؤلاء القوم ابتسامة ساخرة عاتية واحدة، فانتقلت من فم «فهمى» إلى فم الطبيب، ونسى كل شئ فى عيادته إلا القادمين، وبعد دقائق يعلو نداء باعة الصحف على ملاحقها بنبأ المهمة السرية، والثلاثة واقفون يضحكون ...

ولكن من الطبيب ومن الصديق ومن الجريح .. !!

وهل هى رواية محبوكة أم سر عظيم يرفع من أحد أطرافه الدقيقة .. ؟!

واشتدت جلبة الباعة واشتدت النشوة بالثلاثة الواقفين، وفى هذه اللحظات تتحد الأرواح جميعا، وأما الأجسام المنفصلة فلا قيمة لها...

وينتهى الطبيب من جريحه وهو فى كل التفاتة يكاد يقبله، ثم يعطيه الدواء ويتراجع الجريح مع صديقه نحو الباب وقد علت رهبة الموقف على الكلام والمجاملات، فينفصلون ولا تكاد تسمع لهم تحية ولا وداعا، شئ ليس فى الأرض ولكن الثورات تجود به فى فترات تمر ويبقى ذكرها كالسحر ...

والسيدة التى اشتركت بحياتها مع الرجال، تطرق أبواب الشيخوخة الآن، وتتذكر الماضى وترى «البترول» وهو يسيل من بين يديها على الرداء المشبوه، ولكن نظراتها تشرد وتضل فى مجاهل سحيقة نائية، أين الذين أشعلت النار لإنقاذهم، صيحتى المتداعية لا تعنيهم الآن، أكانوا ثائرين ... أم دفعونا للثورة ثم قعدوا ... ؟

ولبعض النفوس خطرات فى العتب تزأر كالزلزال .. ورب أنة فى كوخ بجلالها وصدقها تكفى لإشعال ثورة فى إمبراطورية ...

تلك خواطر السيدة .. ولكن فاتها أن القلب يشعر بالحياة فى الألم أكثر من إحساسه بها فى الرخاء ...

خواطرها هذه تكمل تاريخ مصر، ووجودها له مغزاه، فالدورة لم تتم، وهذه الخواطر غذاؤها ودافعها .. والمستقبل آت قريب ..

* * *

ومررت بصانع له شأن فى الثورة الماضية، وحينما يتقابل الثوار القدماء ينسجون من ذكرياتهم أحلاما يخدعون بها أنفسهم فى الزمن الجاحد المنكود .

وقال لى الصانع، ومن له حق الكلام كالصناع ؟- أتذكر الشهيد «ر» - وهو ضحية من الضحايا الذين حكم عليهم بالأعدام .. قلت له أذكره. ولو أن بقية الناس لا يذكرون ..

وكل ما بقى له فى الدنيا دوسيه وتشبيه فى ملفات الأقسام الجنائية بالحكومة .. كالمتشردين واللصوص والسفاكين ..

ولقد كانت الثورة نضالا مشروع انتهى بصداقة ..

فليس فى تخليد الجنود من الجانبين إنكار للصداقة، بل إحياء لها لأنهم هم الذين حددوا المواقف وفتحوا أبواب المستقبل ..

لا عار علينا من أن نقبل هذا القبر، ونترحم على ذاك الشهيد، ونقول فوق جسده : شكراً للروح البريئة التى رفرفت علينا لتحمينا...

وعدنا لأنفسنا من الأحلام. وقال محدثى : «إننى سمعت أن زوجته تغسل ملابس الناس لتعيش ..»

وليس فى الاحتطاب للعيش عار، ولكن العار كله فى الجحود والنكران «يا أرواح الشهداء تأسياً، فالتاريخ ليس يوما وليلة..».

والنفس تتألم ولكن إلى أمد، فقلت لمحدثى : «اعفنى يا عزيزى من بقية الحديث .. ولا تيأس ..

فهذا الألم الذى يدب وينتشر كالنور أو كالظلام، مثله كما شئت وبما شئت، يبسط الآن مهاد المستقبل ...

ويا للمستقبل إذا شيد وئيدا على لبنات من الألم والحسرات... »

عيد الجهاد الوطنى

سمعت عن عيد الجهاد الوطنى لأول مرة، وأنا فى سن العاشرة عن طريق قطع الإملاء، وكان مدرس اللغة العربية ينتقيها من مقالات كبار رجال الفكر والسياسة، وكان هذا الأستاذ الجليل - وهو المرحوم السيد العجان - يحرص على أن نسجل اسم الكاتب الذى يأخذ عنه، حتى نتعلم الأمانة فى النقل والاقتباس، وتتولد الصلة الروحية بيننا وبين هؤلاء الرواد وكانت القطعة المنتقاة عن ذكرى عيد الجهاد مقتبسة من المقال الافتتاحى لصحيفة «المصرى» .. ولا تزال ذاكرتى تختزن السطور الأولى من هذا المقال .. «عيد الجهاد الوطنى .. أو يوم الحرية والكرامة .. يوم نهضت مصر الكريمة نهضتها، ووقف سعد وصاحباه يعلنون كلمتها .. الخ .

يومها لم نكن نعرف ما معنى الجهاد فى سبيل الوطن .. ولا لماذا ذهب سعد وصاحباه إلى دار المعتمد البريطانى .. ولا بأى شئ كانوا يطالبون .. ولكنها كانت البداية التى جرفتنا إلى هذا

العالم المترع بالحيوية والكفاح النبيل .. أو هو الشعاع الذى أضاء لنا الطريق لكى نعرف معنى الوطنية والإباء والشجاعة والعزة والتضحية فى سبيل مصر الخالدة .. وبدأنا نعرف .. ونفهم ... ونعى .. لأننا وجدنا أساتذة يرفعون مستوى اهتماماتنا .. ويغرسون فى عقولنا بذور الحب والاشتغال بقضايا الوطن وهمومه.

فى صباح ١١ نوفمبر ١٩١٨ انطلقت أخر قذيفة من المدافع الألمانية المهزومة، وبعدها صمتت البنادق فى كل أنحاء أوروبا، وانقشعت سحابة الحرب العالمية العظمى، وارتفعت رايات السلام، وتطلعت الشعوب المقهورة للحصول على حريتها واستقلالها، وكانت مصر قد عانت من ويلات الحرب الشئ الكثير، ففى بداية الحرب وضعت بريطانيا مصر تحت الحماية، الأمر الذى زعزع استقلالها وسيادتها، وتمثل فى خلع الخديو عباس حلمى الثانى، وتعيين عمه حسين كامل سلطانا بقرار من المعتمد البريطانى شأنه فى ذلك شأن أى موظف تابع لسلطات الاحتلال، وسيق المصريون إلى جبهات القتال فى فلسطين وتركيا ليحاربوا قسراً مع قوات بريطانيا العظمى، حتى هلك من المصريين فى تلك المعارك مئات الألوف، وصودرت المحاصيل والأقوات والدواب لخدمة القوات المحاربة، واضطر الفلاحون إلى بيع ممتلكاتهم وحلى نسائهم بثمن بخس ليشتروا به غلالا لسد حاجة الجيوش بعد أن عجزت الأرض عن الوفاء بالضرائب العينية التى فرضتها عليهم سلطات الاحتلال،

واستخدمت من وسائل القمع ما يندى له جبين الحضارة الغربية، وبلغ الضيق والقنوط بالمصريين حداً أدركوا معه أن بقاء الاحتلال - بعد انتصار بريطانيا - يعنى المزيد من المهانة والإذلال، وأن الوقت قد حان لزوال وصمة الاحتلال وبزوغ شمس الحرية والاستقلال.

وشجعهم على ذلك تلك المبادئ النظرية العظيمة التى أعلنها الرئيس الأمريكى ويلسون عن حق الشعوب فى الحرية وتقرير المصير. ورأوا فى تلك المبادئ ما يشجعهم على الذهاب إلى مؤتمر الصلح فى فرنسا حيث كان المنتصرن يبحثون فى مستقبل الدول الصغيرة بعد انتهاء الحرب .

واختمرت فى أذهان الطليعة الوطنية من أبناء مصر فكرة تأليف «وفد» ينوب عن الشعب المصرى فى عرض مطالب مصر فى الحرية والاستقلال، وظهر إلى الوجود لأول مرة فى تاريخ مصر اسم «الوفد المصرى» كهيئة شعبية تمثل إرادة الأمة فى طلب الاستقلال التام بعيداً عن سلطان الحاكم والحكومة .. وأن تكون «حركة شعب لا إمارة .. وحركة استقلال لا خلافة» على حد تعبير أحمد لطفى السيد .

ويسجل المؤرخ عبد الرحمن الرافعى الظروف التى ولدت فيها فكرة تشكيل «الوفد» فيقول :

فى هذه الظروف تقدم سعد زغلول باشا الوكيل المنتخب للجميعة التشريعية، وأخذ يعمل على تأليف جماعة لرفع صوت مصر

والمطالبة بحقوقها، وتبادل الرأى فى هذا الشأن مع بعض من كانوا يتصلون به بصلة الزمالة فى الجمعية التشريعية أو الصداقة الشخصية، وكانت وكالته للجمعية التشريعية، وهى الهيئة الرسمية شبه النيابية القائمة فى ذلك الحين، وزعامته للمعارضة فى هذه الجمعية، واعتراف زملائه له بالزعامة، وقوة شخصيته، ومواهبه ومكانته، ومقدرته الخطابية، كل أولئك كان يؤهله لرياسة هذه الهيئة والتحدث عن الأمة فى تقرير مصيرها.

فاتفق مع عبد العزيز فهمى بك وعلى شعراوى باشا : زميليه فى الجمعية التشريعية، على أن يطلبوا من دار الحماية تحديد موعد لهم ليقابلوا «السير رجنلد ونجت» المندوب السامى البريطانى، للتحدث إليه فى طلب الترخيص لهم بالسفر إلى لندن، لعرض مطالب البلاد على الحكومة الإنجليزية، وكان هذا الطلب بنصيحة من حسين رشدى باشا رئيس الوزارة، وبوساطته طلبوا هذه المقابلة يوم الإثنين ١١ نوفمبر سنة ١٩١٨. وهو يوم إعلان الهدنة، فأجابت دار الحماية طلبهم، بوساطة رشدى باشا أيضاً، وحددت لهم يوم الأربعاء ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ الساعة الحادية عشرة صباحاً موعداً للمقابلة المطلوبة، وقابل ثلاثتهم المندوب السامى فى الموعد المحدد، ودار بينهم حديث طويل فى شأن المقابلة وأغراضها نذكره هنا، نقلاً عن المحضر الذى وضعه الوفد عن هذه المقابلة، لأن فيه بياناً للمقاصد التى ذهب إليها الزعماء الثلاثة فى بداية الحركة.

اللقاء التاريخى :

بدأ **السير ونجت** الحديث بقوله :

إن الصلح اقترب موعده وأن العالم يفيق بعد غمرات الحرب التى شغلته زمناً طويلاً، وأن مصر سينالها خير كثير، وأن الله مع الصابرين، وأن المصريين هم أقل الأمم تألماً من أضرار الحرب، وأنهم مع ذلك استفادوا منها أموالاً طائلة، وأن علهيم أن يشكروا دولة بريطانيا العظمى التى كانت سبباً فى قلة ضررهم وكثرة فائدتهم .

فأجابه **سعد باشا** : ما تكون انجلترا فعلته خيراً لمصر فإن المصريين بالبداهة يذكرونه لها مع الشكر، وخرج من ذلك إلى القول بأن الحرب كانت كحريق انطفأ ولم يبق إلا تنظيف آثاره وأنه يظن أن لا محل لدوام الأحكام العرفية ولا لمراقبة الجرائد والمطبوعات، وأن الناس ينتظرون بفروغ صبر زوال هذه المراقبة كى ينفسوا عن أنفسهم ويخففوا عن صدورهم الضيق الذى تولاهم أكثر من أربع سنين .

فقال **السير ونجت** : حقاً انه ميال لإزالة المراقبة المذكورة، وأنه تخابر فعلاً مع القائد العام للجيوش البريطانية فى هذا الصدد، ولما كانت هذه المسأله عسكرية فإنه بعد تمام المخابرة والاتفاق مع القائد سيكتب للحكومة البريطانية، ويأمل الوصول إلى ما يرضى، ثم استمر قائلاً : يجب على المصريين أن يطمئنوا ويصبروا ويعلموا

أنه منذ فرغت انجلترا من مؤتمر الصلح فإنها تلتفت لمصر وما يلزمها ولن يكون الأمر إلا خيراً .

فقال **سعد باشا** : إن الهدنة قد عقدت، والمصريون لهم الحق أن يكونوا قلقين على مستقبلهم ولا مانع يمنع الآن من أن يعرفوا ما هو الخير الذى تريده انجلترا لهم .

فقال : يجب ألا تتعجلوا وأن تكونوا متبصرين فى سلوككم، فإن المصريين فى الحقيقة لا ينظرون للعواقب البعيدة .

فقال **سعد باشا** : إن هذه العبارة مبهمة المعنى ولا أفهم المراد منها .

فقال : أريد أن أقول أن المصريين ليس لهم رأى عام بعيد النظر .

فقال **سعد باشا** : لا أستطيع الموافقة على ذلك فإنى إن وافقت أنكرت صفتى، فإننى منتخب فى الجمعية التشريعية عن قسمين من أقسام القاهرة، وكان انتخابى بمحض ارادة الرأى العام مع معارضة الحكومة واللورد كتشنر فى انتخابى، وكذلك كان الأمر مع زميلى على شعراوى باشا وعبد العزيز بك فهمى .

فقال **السير ونجت** : إنه قبل الحرب كثيراً ما حصل من الحركات والكتابات من محمد فريد وأمثاله من الحزب الوطنى، وكان ذلك بلا تعقل ولا روية، فأضرت مصر ولم تنفعها فما هى أغراض المصريين؟

فقال **على شعراوى باشا** : إننا نريد أن نكون أصدقاء للإنجليز صداقة الحر للحر لا العبد للحر .

فقال **السير ونجت** : إذن أنتم تطلبون الاستقلال ؟!

فقال **سعد باشا** : ونحن له أهل، وماذا ينقصنا ليكون لنا الاستقلال كباقى الأمم المستقلة ؟

فقال **السير ونجت** : ولكن الطفل إذا أعطى من الغذاء أزيد مما يلزم تخم .

فقال **عبد العزيز بك فهمى** : نحن نطلب الاستقلال التام وقد ذكرتم جنابكم أن الحزب الوطنى أتى من الحركات والكتابات بما أضر ولم يفد، فأقول لجنابكم أن الحزب الوطنى كان يطلب الاستقلال، وكل البلد كانت تطلب الاستقلال، وغاية الأمر أن طريقة الطلب التى سار عليها الحزب الوطنى ربما كان فيها ما يؤخذ علينا، وذلك راجع إلى طبيعة الشبان فى كل جهة، فلأجل إزالة الاعتراض الوارد على طريقة الحزب الوطنى فى تنفيذ مبدئه الأساسى الذى هو مبدأ كل الأمم، وهو الاستقلال التام، قام جماعة من الشيوخ الذين لا يظن فيهم التطرف فى الإجراءات وأسسوا حزب الأمة وأنشأوا صحيفة «الجريدة»، وكان مقصدهم هم أيضاً الاستقلال التام، وطريقتهم أخف فى الحدة من طريقة الحزب الوطنى، وذلك معروف عند الجميع، والغرض منه خدمة نفس المبدأ المشترك بطريقة تمنع الاعتراض، ونحن فى طلبنا الاستقلال التام

لسنا مبالغين فيه فإن أمتنا أرقى من البلغار والصرب والجبل الأسود وغيرها ممن نالوا الاستقلال قديماً وحديثاً .

فقال **السير ونجت** : ولكن نسبة الأميين فى مصر كبيرة، لا كما فى البلاد التى ذكرتها إلا الجبل الأسود والألبان على ما أظن .

فقال **عبد العزيز بك فهمى** : إن هذه النسبة مسألة ثانوية فيما يتعلق باستقلال الأمم فإن لمصر تاريخاً قديماً باهراً وسوابق فى الاستقلال التام وهى قائمة بذاتها وسكانها عنصر واحد ذو لغة واحدة وهم كثيرو العدد وبلادهم غنية، وبالجملة فشروط الاستقلال كما قدمت، لأن الذين يقودون الأمم فى كل البلاد أفراد قلائل؟ فإنى أعرف أن لإنجلترا وهى بلاد العظمة والحرية عند أهلها ثقة كبرى بحكومتها فأرباب الحكومة وهم أفراد قلائل هم الذين يقودونها وهى تتبعهم بلا مناقشة فى كثير من الأحوال لشدة ثقتها بهم وتسليمها لهم، ولذلك فمجلس نوابها ليس كل أفرادهم العاملين، وإنما العامل منهم فئة قليلة، فبلاد مصر يكفى أن يكون فيها ألف متعلم ليقوموا بإدارتها كما ينبغى وهى مستقلة استقلالاً تاماً – ونحن عندنا كثير من المتعلمين ، بدليل أن أولى الحل والعقد نسمع منهم فى كثير من الأحيان أن التعليم زاد فى البلد حتى صار فيها طائفة من المتعلمين العاطلين، وأما من جهة تشبيهنا بالطفل يتخم إذا غذى بأزيد من اللازم فاسمحوا لى أن أقول أن حالنا ليست مما ينطبق عليها هذا الشبه، بل الواقع أننا كالمريض مهما أتيت له من نطس الأطباء

استحال عليهم أن يعرفوا من أنفسهم موقع دائه، بل هو نفسه الذى يحس بألم الداء ويرشد إليه، فالمصرى وحده هو الذى يشعر بما ينقصه من أنواع المعارف وما يفيده فى الأشغال العمومية وفى القضاء، وغير ذلك، فالاستقلال التام ضرورى لرقينا .

فقال **السير ونجت** : أتظنون أن بلاد العرب وقد أخذت استقلالها ستعرف كيف تسير بنفسها ؟

فقال **عبد العزيز بك** : إن معرفة ذلك راجع إلى المستقبل، ومع ذلك فإذا كانت بلاد العرب وهى دون مصر بمراحل أخذت استقلالها فمصر أجدر بذلك .

فقال **السير ونجت** : قد كانت مصر عبداً لتركيا، أفتكون أحط منها لو كانت عبداً لإنجلترا ؟

فقال **الشعراوى باشا** : قد أكون عبداً لرجل من الجعليين وقد أكون عبداً للسير ونجت الذى لا مناسبة بينه وبين الرجل الجعلى، ومع ذلك لا تسرنى كلتا الحالتين، لأن العبودية لا أرضاها ولا تحب نفسى أن تبقى تحت ذلها، ونحن كما قدمت نريد أن نكون أصدقاء لإنجلترا صداقة الأحرار لا صداقة العبيد.

فقال **السير ونجت** : ولكن مركز مصر حربياً وجغرافياً يجعلها عرضة لاستيلاء كل دولة قوية عليها وقد تكون غير انجلترا .

فقال **سعد باشا** : متى ساعدتنا إنجلترا على استقلالنا التام، فإننا نعطيها ضمانة معقولة على عدم تمكين أى دولة من استقلالنا

والمساس بمصلحة انجلترا فنعطيها ضمانة فى طريقها للهند وهى قناة السويس، بأن نجعل لها دون غيرها حق احتلالها عند الاقتضاء بل نحالفها على غيرها ونقدم لها عند الاقتضاء ما تستلزمه المحالفة من الجنود .

ثم قال **شعراوى باشا** : يبقى أمر أخر عند هذا الحد وهو حقوق أرباب الديون من الأجانب، فيمكن بقاء المستشار الإنجليزى بحيث تكون سلطته هى سلطة صندوق الدين العمومى.

فقال **سعد باشا** : نحن نعترف الآن أن أنجلترا أقوى دولة فى العالم وأوسعها حرية وإنا نعترف لها بالأعمال الجليلة التى باشرتها فى مصر، فنطلب باسم هذه المبادئ أن تجعلنا أصدقاءها وحلفاءها صداقة الحر للحر، وأننا نتكلم بهذه المطالب هنا معك بصفتك مشخصاً لهذه الدولة العظيمة، وعند الاقتضاء نسافر للتكلم فى شأنها مع ولاة الأمور فى انجلترا، ولا نلتجئ هنا لسواك ولا فى الخارج لغير رجال الدولة الإنجليزية، ونطلب منك بصفتى عارفاً لمصر مطلعا على أحوالها أن تساعدنا للحصول على هذه المطالب .

فقال **السير ونجت** : قد سمعت أقوالكم وإنى أعتبر محادثتنا محادثة غير رسمية بل بصفة حبية فإنى لا أعرف شيئاً عن أفكار الحكومة البريطانية فى هذا الصدد وعلى كل فإنى شاكر زيارتكم وأحب لكم الخير .

فشكره الثلاثة على حسن مقابلته، وانصرفوا حيث كانت الساعة الثانية عشرة .

مفهوم الاستقلال :

هذه هى الرواية التى قام الوفد بتسجيلها عقب المقابلة، وقد ثار بعدها جدل حول مطلب «الاستقلال التام» فقد زعم رونالد ونجت أن ما طلبه سعد وصاحباه هو «الاستقلال الذاتى التام» Complete Autonomy واستغل خصوم الوفد هذه العبارة للتهوين من شأن المطالب التى تقدم بها، وقد حسم الدكتور عبد العظيم رمضان فى كتابه (تطور الحركة الوطنية فى مصر) هذا الجدل العقيم بقوله أن «لفظ» الاستقلال نفسه لم يكن هو المشكلة فى ذهن أبطال يوم ١٣ نوفمبر، بل كانت المشكلة «معنى» الاستقلال، وينقل عن عبد العزيز فهمى بك بخصوص ذلك أنه «يجب أن ندرك قبل كل شئ هاتين الحقيقتين وهما :

أولاً : إن الحماية يستحيل قانوناً التعاقد عليها إلا إذا كانت الأمة الصغرى مستقلة، أى ذات كيان خاص وشخصية متميزة، لأن استقلال الأمة، أى انفرادها بشخصية خاصة متميزة : هو شرط أساسى فى أهليتها لمثل هذا التعاقد، فتونس ومراكش مثلاً : لم يتعاقدا مع فرنسا على حمايتها لهما، إلا وهما دولتان مستقلتان .

ثانياً : إن الحماية لا تمحو شخصية الأمة واستقلالها، بل بالعكس، فأول غرض من أغراضها المفروضة هو المحافظة التامة على هذه الشخصية وهذا الأستقلال، فتونس ومراكش هما دولتان مستقلتان تحت حماية فرنسا، متى علم ذلك أمكننا، بالبداهة، أن نعلم لماذا ينكر الإنجليز على مصر استقلالها من وقت أن أعلنوا حمايتهم عليها، بل صرح جلالة الملك (بريطانيا) فى خطابه للسلطان حسين أنه عامل على منع ما يمس بهذا الاستقلال ... إذن ليس «الاستقلال» ولا «الاعتراف بالاستقلال» هو ما يهم فى قضيتنا، لأن الاستقلال، كما رأيت، حاصل للأمم التى تحت الحماية، إنما المهم هو «حرية الأمة فى سياستها الداخلية والخارجية».

* * *

ويمضى الدكتور عبد العظيم رمضان فى تفسير مفهوم «الاستقلال» عند رجال ١٣ نوفمبر .. وهو ما وضح فى المحالفة التى عرضها سعد زغلول على السير ونجت فى اللقاء التاريخى فواضح من هذه العبارة أن سعد زغلول ورفيقيه كانوا يطلبون الاستقلال بالمعنى الذى يفهم منه حرية الأمة فى سياستها الداخلية والخارجية، مع عقد محالفة مع انجلترا تتضمن : ليس بقاء القوات البريطانية فى قناة السويس، بل «حق العودة» إليها عند «الاقتضاء» .. مما يعنى جلاء القوات البريطانية عن الأراضى المصرية .. أضف

إلى هذا أن سعد زغلول سرعان ما شن هجوماً عنيفاً فى المؤتمر الذى عقدته جمعية الاقتصاد والتشريع فى ٧ فبراير ١٩١٩ وبين فيه سعد بطلان الحماية، وهو أمر واضح الدلالة على أن الاستقلال الذى قام يطالب به رجال ١٣ نوفمبر ١٩١٨ هو : الاستقلال التام .. وليس الاستقلال فى ظل الحماية .

تشكيل الوفد :

بعد ساعات من لقاء ١٣ نوفمبر بدأ سعد زغلول على الفور يتشاور مع أصحابه فى تشكيل الهيئة التى ستسافر للمطالبة باستقلال مصر، والطريقة التى يعلنون بها صفتهم فى التحدث عن الأمة، فقرروا تأليف هيئة تسمى «الوفد المصرى» وأن تحصل هذه الهيئة على توكيلات من الأمة تخولها هذه الصفة، وتألف الوفد فعلاً فى نفس اليوم (١٣ نوفمبر ١٩١٨) على النحو التالى : سعد زغلول رئيساً، على شعراوى، عبد العزيز فهمى، محمد محمود، أحمد لطفى السيد، عبد اللطيف المكباتى، محمد على علوبة (أعضاء)، وقد حررت توكيلات الوفد الأولى وفيها هذه الأسماء السبعة فقط للتوقيع عليها من طبقات الأمة المختلفة، ونص فيها على أن لهؤلاء الأعضاء أن يضموا إليهم من يختارونه فى مهمة الوفد، وهى : «السعى بالطرق السلمية المشروعة، حيثما وجد للسعى سبيلاً فى استقلال مصر استقلالاً تاماً» ولقيت التوكيلات استجابة منقطعة النظير من كافة طبقات الأمة، وأقبل الناس على توقيع التوكيلات عن يقين وفهم تام لمدلولها وما تحمل فى طياتها من بشائر الخير لهم .

ورأى سعد باشا أن يستكمل العناصر اللازمة لوفده حتى يكتب له النجاح فى مهمته التاريخية ويمثل كافة عناصر الأمة بكل طوائفها وتياراتها السياسية، فتقرر ضم كل من إسماعيل صدقى باشا، ومحمود بك أبو النصر، وعبد الخالق باشا مدكور.

وبعد ذلك استقبل سعد باشا فى بيته أربعة من رجال الحزب الوطنى هم : عبد المقصود متولى، ومصطفى الشوربجى، ومحمد زكى على، ومحمد عبد المجيد العبد، وناقشوه فى صيغة التوكيل، واشتدوا فى مناقشته حتى اضطر إلى تذكيرهم بأنهم «فى بيته». وهنا رد عليه زكى على - حسب رواية الرافعى - بأنهم يعتبرون أنفسهم فى «بيت الأمة» لا فى بيت سعد باشا الخاص .. فسر سعد لهذه التسمية، وابتسم لمحدثيه، وقال لهم متبسطاً : «لقد تنازلت عن ملاحظتى» ومنذ ذلك الحين أطلق على بيت سعد «بيت الأمة» وانتهى الاجتماع إلى تعديل التوكيل فى ضوء ملاحظات أعضاء الحزب الوطنى، وبعدها تم ضم كل من : مصطفى النحاس بك القاضى بالمحاكم الأهلية، والدكتور حافظ عفيفى بك على اعتبار أنهما يمثلان الحزب الوطنى إذ كانا من المعتنقين لمبادئه .

ضم الأقباط:

وبعد أن فرغ سعد باشا من تمثيل العناصر السياسية فى وفده، اتجه إلى ضم بعض الأقباط لتأكيد معنى الوحدة الوطنية، وسد الطريق فى وجه الدسائس الإنجليزية، فيقول فى مذكراته : كان

سينوت بك حنا أول شخص من الأقباط افتكرنا فيه، ثم جورجى بك خياط فدعوناه، فحضر، وقبل أن يقبل - عضوية الوفد - استفهم منى عما يكون من شأن الأقباط بعد الاستقلال؟

فقلت : «بعد الاستقلال يكون شأنهم شأننا .. لا فرق بين أحد منا إلا فى الكفاءة الشخصية» فسر بذلك.

ويبدو - كما يقول العقاد فى كتابه عن سعد زغلول - أن الأقباط قد خشوا - من قبل أن يتم انضمام سينوت حنا وجورجى خياط إلى الوفد، أن يغفل سعد باشا أمر تمثيلهم، لأنهم اتفقوا فى نادى رمسيس على إيفاد الأستاذ ويصا واصف، ومعه عضوان من أعضاء النادى، لمفاتحته فى الموضوع، وعندما قابلوا سعداً، أزال قلقهم، وظن أنهم يرشحون ويصا واصف لهذه الوكالة، فرحب باختياره، ولكن الأستاذ ويصا تنحى معتذراً مقترحاً أن تكون الوكالة لرجل مثل واصف غالى باشا. فقبله سعد باشا على الرحب والسعة .

وكل هذا يدل على نضوج الفكرة القومية عند الأقباط، وطغيان الوعى الوطنى عند قادتهم .. وترى أن فكرة ضم الأقباط عند سعد زغلول، كان يقابلها فى نفس الوقت عزمهم على الانضمام إلى الوفد من تلقاء أنفسهم، ورغبة منهم فى المشاركة فى الهيئة الوطنية التى شاء القدر أن تحمل مسئولية الكفاح الوطنى . ولم يلبث سعد باشا أن عمل على ضم بعض ذوى المكانة الشخصية فى الأقاليم، فتقرر

ضم حمد باشا الباسل صاحب النفوذ الكبير فى الفيوم، حتى إذا بلغ عدد الأعضاء أربعة عشر - ضعف العدد الأول - أعيد تكوين الوفد من جديد، وصدق الاعضاء الجدد على قانون الوفد فى ٢٣ نوفمبر ١٩١٨. وهو القانون الذى وضعه الوفد الأول .. وبعدها خاض الوفد - بقيادة سعد - معارك ضارية مع سلطات الاحتلال بلغت ذروتها باعتقال سعد وصحبه ونفيهم إلى مالطة، وفى اليوم التالى ٩ مارس ١٩١٩ اندلعت أضخم ثورة شعبية فى تاريخ مصر.

محمد عبد الوهاب... الديلمى

دخل علينا مفتش اللغة العربية ونحن جلوس فى الصف الأول الثانوى ووجه إلينا سؤالا عن قصيدة من مختارات الشعر العربى مقررة علينا وفى نفس الوقت يتغنى بها الموسيقار الكبير محمد عبد الوهاب، وتلفت حولى فلم أجد من الزملاء من لديه الجواب، وعندئذ رفعت يدى مستئذنا فى الاجابة، ثم وقفت قائلا : انها قصيدة الشاعر مهيار الديلمى التى يقول فى مطلعها :

[أعجبتْ بِى بينَ نادى قومها   أمُّ سعدٍ فَمضَتْ تسألُ بى]

وتوقفت عن سرد بقية الأبيات، وعندئذ أستحثنى المفتش على الاستمرار، فقلت له أن القصيدة التى يغنيها عبد الوهاب تغير فيها اسم «أم سعد» الى «ذات حسنٍ» .. واستأنفت سرد القصيدة ولكن المفتش استوقفنى سائلاً : ولماذا فعل عبد الوهاب ذلك ؟ وانتابتنى حالة من الارتباك، ولكنى استجمعت أطراف شجاعتى وقلت له : لا أعرف السبب الحقيقى .. ولكنى أظن أنه فعل ذلك احتراماً لمشاعر

ابن اخيه المطرب الجديد سعد عبد الوهاب. إذ ليس من اللائق أن يتغنى بأسم زوجة أخيه التى هى أم سعد (!!) وفوجئت بالمفتش يستقبل إجابتى بضحكة عالية ترددت أصداؤها فى جنبات الفصل. واقترب منى وربت على كتفى فى حنان وهو يقول : انه تفسير عاطفى مقبول من شاب فى سنك ولكنه ليس مقبولا فى موازين النقد الأدبى .

وكان اسم المطرب الشاب سعد عبد الوهاب قد بدأ يطرق الاسماع عام ١٩٤٨ بعد قيامه بدور البطولة فى فيلمه (العيش والملح) أمام النجمة الراحلة نعيمة عاكف، ونجح الفيلم نجاحاً كبيراً مما جعل النجمين الجديدين يقفزان إلى دائرة الشهرة، ورغم أن عبد الوهاب – الكبير - أدى هذه الأغنية قبل سنوات من بزوغ نجم ابن أخيه، إلا أن تفكيرى الساذج هدانى إلى هذا التفسير فى تغيير اسم المخاطبة فى قصيدة مهيار .. والشئ المثير للدهشة اننى حكيت هذه القصة للمؤرخ الفنى المعروف الأستاذ حسن إمام عمر ففوجئت به يؤيد ما ذهبت إليه، وقال إن التقاليد فى تلك الفترة لم تكن تسمح لعبد الوهاب بأن يتغنى باسم زوجة أخيه الشيخ حسن التى هى (أم سعد عبد الوهاب)

ورغم مرور ٤٥ سنة على قصتى مع مفتش اللغة العربية بمدرسة طنطا الثانوية الأحمدية فلا زلت أشعر بالمرارة فى حلقى من فرض هذه القصيدة علينا ضمن مختارات الشعر العربى. رغم ما تنضح

به من نزعة شعوبية مقيتة، ثم تزداد مرارتى عندما استمع إليها بصوت عبد الوهاب وأتساءل : ألم يجد عبد الوهاب بين كنوز الشعر العربى غير هذه القصيدة التى جعل منها مهيار الديلمى ملحمة يتغنى فيها بمجد آبائه الفرس ويخلع عليهم من صفات التمجيد ما جعلهم - فى ظنه - يرفعون هاماتهم الى كبد السماء، ويناطحون الشمس برؤوسهم، ويجعلون النجوم محلا لسكناهم(!!)

كان مهيار فارسياً ولد فى بغداد فى الثلث الأخير من القرن الرابع الهجرى ونشأ على دين آبائه المجوس، ثم أسلم على يد سيده وأستاذه الحسيب النسيب (الشريف الرضى) وتلقى عنه أصول البلاغة العربية فى أصفى معانيها، إلا انه لم يستطع الخلاص من تلك النعرة الشعوبية التى ظهرت جلية فى قصيدته المذكورة، ولأننى لا أحمل بين جنبى حقدا على الشعوب غير العربية، فاننى أمقت الأصوات المنكرة التى تحط من شأن العرب، وترفع من شأن غيرهم. وديننا الاسلامى يأبى أن يكون العرق أو الجنس عنصر استعلاء بين الشعوب، وقصر معيار الأفضلية على العمل الصالح، وفتح الباب على مصراعيه أمام الخير العام، وما يقدمه الانسان إلى اخيه من ثمرات النفع والتعاون على البر والتقوى، وليس التعاون على الاثم والعدوان .

وأنت عندما تقرأ قصيدة مهيار الديلمى التى يتغنى بها عبد الوهاب، وفرض علينا أن نحفظها فى سن الصبا، تلمس هذه الروح

الاستعلائية الذميمة فهو يرد على محبوبته (أم سعد) حين سألته عن حسبه ونسبه فقال :

لا تخالى نسباً يَخْفِضُنى	أنا من يرضيك عند النسب
قوْمىَ استولَوْا على الدهر فتى	ومَشَوْا فوق رؤوسِ الحقَب
عمَّموا بالشمس هاماتهمُ	وبَنَوْا أبياتهَم بالشهب
وأبِى كسرى على إيوانه	أين فى الناس أبٌ مثلُ أبى؟
قد قَبَستُ المجد من خير أبٍ	وقبستُ الدين عن خيرِ نبى
وضَمَمْتُ الفخرَ من أطرافه	سؤددَ الفرس ودينَ العرب

فهو حين يسرد مقوماته الشخصية لا ينسى أباه كسرى وهو يتبختر على إيوانه الذى حطمه الاسلام بسواعد العرب الفاتحين، ولا يجد فى خلفاء الدولة الاسلامية ولا فى شعوبها من يرقى الى مرتبة كسرى (!!) وإذا كان يعترف بفضل الإسلام إلا أنه يضع فى الكفة الأخرى سؤدد الفرس ومجدهم القديم .

وقد صدق مورخ الادب العربى الدكتور شوقى ضيف حين وصف قصيدة مهيار بأنها صوت منكر يذكرنا بصوت بشار بن برد وأمثاله من دعاة الشعوبية الذين روجوا الأقاويل التى كانت تزعم تفوق الروم والفرس على العرب فى الحضارة والمدنية، وكأنما ذهبت أدراج الرياح مناداة الاسلام بهدم النعرات العصبية بين القبائل، والفوارق الجنسية بين الشعوب، وكأنما كان هؤلاء الشعوبيون

يبتغون أن يحدثوا صدعا لا يلتئم ولا يمكن رأبه بين أفراد الأمة، وقد لجوا فى تصوير ما كان عليه عرب البادية من العيش الخشن والأطعمة اليابسة الجافة، وكيف كان العرب بدواً رعاة أغنام وإبل، وأين هم من ملك الاكاسرة والقياصرة (!!) وأين هم من الحضارة الفارسية والرومية (!!) وأين هم من علوم الروم والفرس والسريان والنبط (!!) وقد نهض الجاحظ - طيب الله ثراه - لهذه الهجمة الخبيثة فوضع كتابه «البيان والتبيين» وجعل منه ردا مفحما على المطاعن والمثالب التى رددها الشعوبيون ضد العرب، وعرض الثقافة العربية الخالصة فى صورها المختلفة من الخطابة والشعر والأمثال، وأوضح ما فيها من صور جمالية، وقيم بلاغية لم تستطع الثقافات الأخرى ان ترقى إليها رغم مرور العصور والأزمان .



الكراسة الوردية

لازمتنى فى مرحلة الصبا هواية جمع المقتطفات من الكتب والصحف والمجلات .. قد تكون حكمة .. وقد تكون بيتا من الشعر .. وقد تكون عبارة مأثورة .. قد تكون جملة من حوار فى فيلم أو مسرحية .. كنت أشبه بالنحلة التى تمتص رحيق الأزهار .. ولا أذكر الآن نوع الأزهار التى كانت تجذبنى .. ولا القواعد التى كنت على أساسها اختار .. كل ما أذكره أننى كنت أستشعر سعادة غامضة أمام كلمات بعينها فتهتز لها روحى .. ويطرب لها وجدانى فتسارع يدى إلى تسجيلها فى كراسة وردية الغلاف حتى تجمع لى محصول وفير من الكلمات ملأت صفحات الكراسة من الغلاف إلى الغلاف .. ومرت السنون .. وضاعت الكراسة فى زحام الحياة، واختفت بين تلال الكتب حتى عثرت عليها أخيراً وكأننى عثرت على كنز، وبدأت أقلب صفحاتها وأعيد قراءة محتوياتها فى نهم لذيذ .

ما أجمل أن يقرأ الانسان صفحة من صباه، ويستعيد ذكريات العمر التى طواها تيار الزمن .. لقد انطوت هذه المرحلة من عمرى وهيهات أن تعود لأن عجلة الزمن لا تدور إلى الوراء .. ولا يبقى لنا سوى إعادة شريط الذكريات الكامن فى أعماق النفس قبل أن تبهت ألوانه، وتضيع معالمه مثل فيلم قديم أو كتاب اصفرت أوراقه .. ونحن حين نشعر بالحنين إلى ماضينا نغوص فى خزانة الذكريات فتمتلئ قلوبنا بالرضا والسعادة حتى لو كانت الصفحات مترعة بالشقاء والعذاب .. فهذا الشقاء يبدو لأعيننا - فى ختام الرحلة - مثل الوقود الذى حرك قطار العمر .. وأشعل جذوة التحدى .. وجعلنا ننهض كلما كبونا .. ونصحو كلما غفونا .. وننشط كلما تسلل اليأس إلى نفوسنا .

أخذت أقلب صفحات الكراسة الوردية .. فوجدت أوراقها لم تزل محتفظة برونقها باستثناء غلالة صفراء تشوبها .. ورائحة القدم تفوح منها .. توقفت أمام عبارة وردت على لسان «سونيا» بطلة مسرحية «الخال فانيا» للكاتب الروسى العظيم «أنطون تشيكوف» .. وفانيا نموذج للإنسان المحطم الذى أنفق حياته فى العمل والكفاح الشريف، فلما أوشكت شمس حياته على المغيب، وجد أنه كالرابح الذى خسر كل شئ، وخرج من الدنيا صفر اليدين .. بينما الأوغاد يجنون المغانم والأسلاب .. وقبل أن تنسدل ستار الختام تقف ابنة أخته سونيا تواسيه بهذه الكلمات التى تشبه خطبة الرثاء فى مأتم رجل عظيم :

وماذا نستطيع أن نفعل ؟! يجب أن نواصل الحياة، ونعيش أياماً طويلة جداً .. وليالي مملة .. ونقاسى فى صبر التجارب التى يفرضها علينا القدر .. سنعمل مثل الآخرين الآن وحين يتقدم بنا العمر .. ولن نحظى بأى راحة .. وعندما يحين الوقت سنموت فى ذلة .. وهناك فيما وراء القبر سوف نقول إننا قاسينا .. وبكينا .. وكانت حياتنا مريرة .. وسيرحمنا الله .. ومن ثم يا خالى العزيز سنبدأ فى التعرف على حياة براقة بديعة .. وسوف نفرح .. وننظر وراءنا إلى متاعبنا بمشاعر رقيقة .. ونبتسم .. إنى أومن بهذا يا خالى .. سوف نرتاح ونسمع الملائكة ونرى السموات تغطيها النجوم كالآلئ .. سنجد جميع آثام العالم وكل متاعبنا وقد اكتسحتها النعمة التى تملأ العالم كله .. وسوف تصبح حياتنا آمنة رقيقة حلوة .. إنى أومن بذلك .. أى خالى المسكين .. انك تبكى .. أنت لم تنعم بحياتك .. ولكن صبراً يا خالى فانيا صبراً .. فسوف نستريح .. سوف ننعم بالراحة.. «تنزل الستار فى بطء».

ريح الظلام:

من مسرحية «جميلة» بطلة الكفاح الجزائرى انتقيت هذه السطور للكاتب الراحل عبد الرحمن الشرقاوى .. وقفز ذهنى إلى الواقع الأسود الذى يعيشه الآن شعب الجزائر تحت مقصلة الإرهاب، تقول الكلمات :

بالله يا ريح الظلام ..

عودى إلى البلد الذى أقبلت منه وبلغى عنا السلام

فإذا مررت على الحقول الخضر ياريح الظلام

ورأيت أوراق الخميلة لا يداعبها النسيم

ووجدت أن الكرمة الخضراء باتت كالهشيم

ورأيت حبات الندى أصبحن كالدمع الهتون

فسلى الأصيل الشاحب .. والغسق المهوم .. والمساء

وسلى الخمائل والربى .. وسلى المساء

وسلى الجنون .. ماذا دهى الزيتون

فإذا سمعت حديثهن عن المآسى والدماء

عودى إلى البلد الذى أقبلت منه وبلغى عنا السلام

دعاء:

لا أذكر من صاحب هذا الدعاء الحنون الذى انفطر له قلبى :

يا من لا تراه العيون، ولا تخالطه الظنون، ولا يصفه الواصفون، ولا تغيره الحوادث .. يا من يعلم عدد قطر الأمطار، وعدد أوراق الأشجار. وعدد ما أظلم عليه الليل، وأشرق عليه النهار،. اجعل خير عمرى آخره، وخير عملى خواتمه وخير أيامى يوم ألقاك، يا ولى الاسلام وأهله، ثبتنى به حتى ألقاك ..

يا ربى .. وقفت على بابك وقفة الذليل الحائر، ومددت يدى بلهفة الغريق، أنت رب الضعفاء وربى، فإلى من تكلنى .. يا ربى .. يا ربى .. لقد وقفت على باب رجائك غير قانط من رحمتك، ولا يائس من عفوك، فلا تردنى خائباً وأنت القائل فى محكم كتابك «فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان» .

إلهى .. اجعلنى لك مخلصاً، واقبلنى عندك تائباً، وأغثنى بك دائماً، ولا تجعل للدنيا سبيلاً إلى قلبى، بل اجعلها فى يدى، ولتكن معى فى الشدة، فليس غيرك يكشف الضر، ويكشف السوء .. يا أرحم الراحمين .

نصيحة:

قال عمرو بن العاص ينصح أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان:

لا تكن بشئ فى أمور رعيتك أشد تعمداً منك لخصاصة الكريم حتى تعمل فى سدها، ولطغيان اللئيم حتى تعمل فى قمعه، واستوحش من الكريم الجائع، ومن اللئيم الشبعان، فان الكريم يصول إذا جاع، واللئيم يصول إذا شبع .

* * *

وكان سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قد اجتنب الفتنة التى وقعت بين الإمام على كرم الله وجهه، ومعاوية بن أبى سفيان، ولجأ إلى بادية بنى سليم، فذهب إليه ابنه عامر يحثه على الخروج من

عزلته والمشاركة فى الصراع. فقال له سعد : أفى الفتنة تأمرنى أن أكون رأساً ؟ لا والله .. حتى أعطى سيفاً إن ضربت به مؤمناً نبا عنه «أى ابتعد» وإن ضربت به كافراً قتلته .. إنى سمعت رسول الله «صلى الله عليه وسلم» يقول : «ان الله يحب العبد التقى الخفى» .

وسمعته يقول : «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً وقنعه الله بما أتاه».

* * *

وكتب الخليفة عمر إلى سعد بن أبى وقاص بعد أن ولاه العراق : إنى آمرك ومن معك من الجند بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة فى الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصى منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما يُنْصَر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا .

* * *

كان الخليفة عمر يشترط فيمن يتولى أمر المسلمين شرطين : الوقار والبساطة .. إذا كان فى القوم، وليس أميرهم، كان كأنه أميرهم، وإذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم .

* * *

من أحاديث الرسول:

* إنا والله يا عماه - العباس - لا نولى هذا الأمر أحدا يسأله أو يحرص عليه .

* من قطع رجاء من ارتجاه، قطع الله تعالى منه رجاء يوم القيامة، فلم يلج الجنة .

* من أشار على أخيه بأمر يعلم أن الرشد فى غيره .. فقد خانه.

* كل لحم نبت من حرام .. فالنار أولى به ..

* أخوف ما أخاف على أمتى رجل منافق عليم اللسان، غير حكيم القلب، يغيرهم بفصاحته وبيانه، يضلهم بجهله

* من أصاب مالاً من مهاوش، أذهبه الله فى مهابط .

* يا أبا ذر : جدد السفينة فإن البحر عميق، وخذ الزاد فإن السفر بعيد، وخفف الحمل فإن العقبة كؤود، وأخلص العمل فإن الناقد بصير .

* ما أنا والدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة .. ثم راح وتركها .

من أقوال الإمام على:

لا تسع بقدمك إلى من يراك دونه، فتصغر فى عينه، واجعل انقطاعك عنه فى مقابلة كبريائه، فإن عزة النفس تضاهى حياة الملوك .

* إنى أعرف الرجال بالحق .. لا الحق بالرجال .

* * من أقوال عمرو بن العاص :

* موت ألف من العِلْية، أقل ضرراً من ارتفاع واحد من السِّفْلة .

* إمام عادل خير من مطر وابل، وأسد خطوم خير من إمام ظلوم، وإمام ظلوم غشوم خير من فتنة تدوم .

* ما وضعت عند أحد سراً فأفشاه فَلُمتُه، لقد كنت به أضيق صدراً حين استودعته إياه .

* مزاحمة الأحمق خير من مصافحته .

* زلة الرجل عظمٌ يُجبر، وزلة اللسان لا تُبقى ولا تَذر، وقد استراح من لا عقل له .

* أمتع اللذات : إسقاط المروءة .

* * العقل هو الإصابة بالظن، ومعرفة ما سيكون بما قد كان.

* قال **عمرو** : ما دخلت فى شئ إلا خرجت منه. فقال معاوية : لكنى ما دخلت فى شئ قط وأردت الخروج منه .

* قال عمر لمعاوية : والله يا أمير المؤمنين لا أدرى إذا كنت شجاعاً أم جباناً ؟

فقال معاوية :

شجا عٌ إذا مكنتنى فرصتى

وإنْ لم تكنْ لى فرصةٌ فجبان

من أقوال معاوية:

* إنّا لا نحول بين الناس وبين ألسنتهم .. مالم يحولوا بيننا وبين سلطاننا .

* لا أضع لسانى حيث يكفينى مالى، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى، ولا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى، فإذا لم أجد من السيف بداً .. ركبته.

* ما غضبى على ما لا أملك وأنا قادر عليه، وما غضبى على ما لا أملك ويدى لا تناله .

* والله لا أحمل السيف على من لا سيف له .. وإن لم يكن منكم إلا ما يشتفى به القائل بلسانه، فقد جعلت ذلك دُبْر أذنى، وتحت قدميّ، ولو كان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت .. إذا شدوها أرخيتها، وإذا أرخوها شددتها .

* المودة بين السلف .. ميراث بين الخلف .

أقوال منثورة:

* المورد العذب كثير الزحام .

* إذا عرف موضع النزاع .. بطل كل نزاع «سقراط» .

* من دوام المروءة أن تنسى الحق الذى لك، وتذكر الحق الذى عليك، وان تتصغر الخطيئة من غيرك، وتستكثرها من نفسك .

* الكرامة هى المثل الأعلى : يسعدنا حين نخسر .. ونسعد به حين نغنم ونظفر «العقاد».

* ما بعد طريق أدى لصديق .. ولا ضاق مكان من حبيب «ذو النون المصرى».

* من طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى توفيه رزقه فيها .. ومن طلب الدنيا طلبه الموت حتى يخرجه منها «سهل بن هارون» .

* البلاغة : إذا سمعها الجاهل ظن أنه يقدر على مثلها، فإذا رامها استعصت عليه «جعفر البرمكى» .

* ليست الشجاعة أن تقول ما تعتقد .. ولكن أن تعتقد ما تقول «أرسطو» .

* لا تقطع صديقاً وإن كفر .. ولا تركن إلى عدو وإن شكر «عمر ابن عبد العزيز» .

* الكلمة الصغيرة : يفوه بها العظيم عفواً .. قد تكشف عنه ما لا تكشفه معركة كبيرة «بلوتارك».

* الأمانة للكاتب مثل البكارة للعذراء .. إذا فقدت مرة فلا تسترد أبداً .

* الحرية لا يمكن فقدها فى أى مكان .. دون أن يحس بفقدانها فى كل مكان .

* فصل الشتاء برده قارس لمن تعوزه الذكريات الدافئة .

* أقوى أنواع الصلب : يحتاج إلى أشد درجات النار حرارة

* ذكريات الحب : أخطر من الحب

* تستطيع أن تستخدم الرماح فى جميع أغراضك .. إلا أن تجلس عليها «نابليون» .

* إن الحيوانات لا تتكلم .. ولكنها تفهم .. بينما البشر يتكلمون، ولكنهم غالباً لا يفهمون (سعد زغلول بعد مشاهدة مصارعة الثيران بأسبانيا) .

* على قدر أهل العزم تأتى العزائم

وتأتى على قدر الكرام المكارم

« المتنبى»

* من جرعته الدنيا حلاوتها لميله إليها، جرعته الآخرة مرارتها لتجافيه عنها «ابن السماك» .

* قال عبد الله بن المبارك لسفيان الثورى : ما أبعد أبا حنيفة عن الغيبة، ما سمعته يغتاب عدواً له قط، فقال سفيان : هو أعقل من أن يسلط على حسناته ما يذهبها .

* حتى عند حلول المصيبة : تجد في طبيعة الإنسان حباً للظهور يجعله يقول : انظروا كيف أتألم «أوجين سو» .

* عندما تكون قوياً تظاهر بأنك ضعيف، وعندما تكون على وشك الهجوم تظاهر بأنك أبعد ما تكون عنه

«المفكر العسكرى الصينى صن نزو» .

أصادق روح المرء من قبل جسمه

وأعرفها فى فعله والتكلم

«المتنبى»

* ربما فتح الله عليك باب الطاعة، وما فتح لك باب القبول، وربما قدر عليك المعصية فكانت سبباً فى الوصول، ورب معصية أورثت ذلا وانكساراً، خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً

«ابن عطاء الله السكندرى»

* وفى نفس المعنى يقول الإمام على : سيئة تسؤك، خير من حسنة تعجبك .

* لكل عاهة من عاهات الحس تعويض من قوى الروح .. وإننى أحمد الله على العمى كما يحمده غيرى على البصر، فقد صنع لى وأحسن بى، إذ كفانى رؤية الثقلاء البغضاء

«المعرى».

* إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها

هوانا بها كانت على الناس أهونا .

* ان الفقر ليتحدى كل فضيلة وسلام، لأنه يورث صاحبه درجة من الانحطاط والتذمر تكتسح أمامها كل شئ، ولا يبقى قائماً غير هذا المبدأ : كن .. أو .. لا تكن **«توم بين»** .

* رجل الدين الغبى يثير احتقارنا .. ورجل الدين الشرير الردئ يولد الجزع فى نفوسنا، أما الناضج المتسامح البعيد عن الخرافات فهو الجدير بحبنا واحترامنا

«فولتير» .

* ليس علينا أن نتطلع إلى هدف يلوح لنا باهتاً على البعد، وإنما علينا أن ننجز ما بين أيدينا من عمل واضح بين .

* أغلقوا الأبواب على الماضى الذى ولى ولم يعد له وجود، وأوصدوها دون المستقبل الذى لم يولد بعد، وعوّدوا أنفسكم العيش فى حدود اليوم .

* خذ بيدى أيها الضوء الكريم، وثبت قدمى، إننى لا أطمع فى الأفق البعيد، خطوة واحدة تكفينى .

* ليس اليوم الجديد إلا حياة جديدة لقوم يعقلون .

* أعدوا أنفسكم لتقبل الحقيقة، فإن التسليم بما حدث هو الخطوة الأولى فى التغلب على المصاعب

«وليم چيمس»

* إن طمأنينة الذهن لا تتأتى إلا مع التسليم بأسوأ الفروض، ومرجع ذلك إلى أن التسليم يحرر النشاط من قيوده

«لين يوتانج» .

* إن رجال الأعمال الذين لا يعرفون كيف يكافحون القلق : يموتون مبكراً ومثلهم الأطباء والزوجات والفعلة

«كارليل» .

* إن قرحة المعدة لا تأتى مما تأكله ولكن مما يأكلك **«مونتاجى»**

* المتفائل يرى ضوءاً غير موجود، والمتشائم يرى ضوءاً ولا يصدق وجوده، ولكن العاقل يرى الضوء فيبحث عن ماهية وجوده إن كان يفيد أو لا يفيد .

* المسالك المطروقة ليست إلا للمهزولين من الناس، أما الأبطال فمسالكهم لم يطرقها أحد، إنهم دائماً سباقون فى الاكتشاف .

* من غير الحكمة أن يبنى الإنسان حكما لم تساهم التجربة فى تكوينه، وإذا ركن الإنسان لحكم أنجبته المصادفة : فمعناه أنه قد ضل سواء السبيل .

* أنا لا أقر كلمة واحدة مما كتبته، ولكنى سأقف حتى الموت مدافعاً عن حريتك، مؤيداً لحقك فى أن تقول ما تريد

«من فولتير إلى روسو» .

* لا يوجد جيش يستطيع الصمود أمام فكرة حان حين تحقيقها

«هرجو» .

* الحق هو الشمس الخالدة التى لا تستطيع الدنيا بأسرها إعاقة بزوغها

«ويندل» .

* ما استعصت الحرية على من وطد العزم على نيلها «غريبا لدى» .

من حكم ابن عطاء الله السكندرى

* نقصان الرجاء عند وقوع الزلل : دليل على اعتمادك على العمل .

* ما نفع القلب شئ مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة .

* من لم تكن له فى بدايته قومة .. لم تكن له فى نهايته نومة .. فلا تكن مثل حمار الرحى .. يبدأ من حيث انتهى .

* حياة رجل فى ألف رجل : خير من وعظ ألف رجل لرجل .

* العالم يُقتدى به، والعارف يهتدى به، العالم دون ما يقول، والعارف فوق ما يكون .

*** أشعار وأسمار :**

يقول المتنبى :

ولا يقيم على ضيم يراد به

إلا الأذلان عيرُ الحى والوتدُ

هذا على الخسف معقوصٌ بِرمّته

وذا يُشجّ فما يرثى له أحدُ

وتقول رابعة :

إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى

وأبحت جسمى من أراد جلوسى

فالجسم منى للجليس مؤانس

وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيس

* ومن قصيدة أول مايو للشاعر الفرنسى ألفريد دى موسيه، ترجمة محمد مندور :

أى شاعرى قم حى قافلة الربيع القادمة

قم واشجنى بالعود من يدك الصناع الحالمة

ها قد تفتحت البراعم عن ورود ناعمة

ترنو إلى فجر الأمانى والثغور الباسمة

* ومن أغنيات المطرب السورى نجيب السراج :

وقلتِ لى سنلتقى غداً هنا سنلتقى

على بساطٍ أخضر أو فوق سطح زورق

أو فى جناح طائر مغرد مصفق

أو فى نديف غيمة على فضاء أزرق

أو فى انطواء موجة لأعمق فأعمق

* ومن أشعار مصطفى عبد الرحمن وغناء فايزة أحمد :

يا حبيبى ظمئت روحى وحنّت للتلاقى

وهفا قلبى إلى الماضى ونادانى اشتياقى

أنا ظمآن ألاقى من حنينى ما ألاقى

فاسقنى واملأ من النور ليالىّ البواقى

* ومن أشعار أحمد فتحى وغناء رياض السنباطى :

آه من قلبى وما يعتاده من ذكريات

أبداً يشقى بماضٍ مَن رؤى العمر وآت

لا أنا أسلو أمانىّ ولا الحظ يؤاتى

يا نديمى لاحت الشمس فقم وامض بنا

فلعل الدهر أن يغفل عن موكبنا

* ومن أشعار «العتابى» الشاعر العباسى الرقيق :

ما جفَّ للعينين بعدك يا قرير العين مجرى

ان الصبابة لم تدع منى سوى عظم مُبرًى

ومدامع عبْرى على كبدٍ عليك الدهر حرَّى

وداعا .. قصر المسافرخانة

* احترق قصر المسافر خانة ..

التهمته النيران فى ساعات معدودة، بعد أن قاوم عوادى الزمن قرنين وعشر سنين .. وبقى شاهدا على جمال العمارة المصرية فى العصر العثمانى .. ولم يقم هذا البناء الشامخ بأموال الحكومة، ولم يكن صاحبه من الأكابر العثمانين، ولا من الأمراء المماليك الذين بنوا القصور من دم الشعب المقهور، وإنما أقامه أحد تجار القاهرة من حر ماله ليكون مسكنا له ولأولاده، وأنفق عليه من الأموال ما جعل منه تحفة معمارية تضارع البيوت والدور التاريخية التى لفتت أنظار علماء الحملة الفرنسية مثل : بيت السحيمى، وبيت زينب خاتون، وبيت السنارى، وبين حسن كاشف، وبيت الكريتيلية الملاصق لمسجد ابن طولون، والذى أقام فيه الطبيب الإنجليزى «جاير أندرسون» وأودع فيه نوادر التحف التى جمعها من كافة العواصم الإسلامية ..

قصر المسافرخانة أحد معالم القاهرة فى القرن التاسع عشر، فيه ولد الخديو إسماعيل، وفى قاعاته أقيمت الحفلات الرسمية بعد أن تحول البيت إلى دار لإقامة كبار الضيوف الأجانب الوافدين على الحكومة، ومن هنا اكتسب اسم (المسافرخانة) أى دار استقبال المسافرين .. ثم آلت ملكيته إلى نظارة المعارفة لتجعل منه مدرسة للبنات، ولكن الغرض لم يتحقق خوفا من سوء استعماله، ثم تحول الإشراف عليه إلى وزارة الأوقاف ومنها إلى وزارة الثقافة التى رصدت أحد عشر مليون جنيه لتجديده وترميمه .. ولكن النار كانت أسبق ..

فى الحى التاريخى

أما الذى أقام هذا القصر فهو الحاج محمود بن محرم، وينتمى إلى أسرة كانت تعمل بالتجارة فى الفيوم ثم هاجر أبوه إلى القاهرة حيث ازداد نشاطه وتوسعت تجارته .. أما الحاج محمود فقد اشتهر ذكره، وعرف بالصدق والأمانة، وأحبه الأمراء المصريون (المماليك) وتعامل معهم بعقل وذكاء وكياسة، مما جنبه أذاهم ومصادراتهم، وعندما كثرت أمواله شرع فى بنائه عام ١١٩٣ هـ (١٧٧٩م) واختار له موقعا أثيرا فى أرقى أحياء القاهرة فى القرن الثامن عشر، وهو حى الجمالية بالقرب من مسجد الحسين .. وفى هذا الحى التاريخى أقيمت القصور الفاطمية تتوسطها (رحبة العيد) وهى الساحة التى كان يتجمع فيها أهل القاهرة لأداء صلاة

العيدين ثم مشاهدة الطلعة البهية للخليفة الفاطمى، وبعد زوال القصور الفاطمية تحولت (رحبة العيد) إلى مساكن وبيوت وعمائر تتخللها الحدائق الغناء والشوارع والحارات، ومنها درب المسمط ودرب الطبلاوى حيث اختار الحاج محمود بن محرم بناء قصره بين الدربين .. واستعان بالخبراء فى فن المعمار ليجعلوا من قصره تحفة يزهو بها على أقرانه، ولما قام البناء افتتحه الحاج محمود بحفل زواج ابنه أحمد وأقام له فرحا أشبه بأفراح الأنجال دعا إليه الأكابر والأعيان والتجار وأسكنه معه فى داره الجميلة، وفى سنة ١٧٩٢ أقام إلى جوار البيت مسجدا خصص له أوقافا للإنفاق على العاملين فيه، وأقام فيه مدرسة لهم رواتب شهرية، وفى العالم التالى ذهب الحاج محمود لأداء فريضة الحج، وشاء الله أن يختاره إلى جواره أثناء عودته بعد أن مرض بالحمى ..

مواصفات القصر

أما مواصفات دار «المسافر خانة فقد سردها الدكتور عبد الرحمن زكى فى كتابه (القاهرة : تاريخها وآثارها) فيقول إنها من أجمل دور القاهرة فى القرن الثامن عشر، ولها ثلاثة أبواب: اثنان فى درب الطبلاوى، فالباب العام يؤدى إلى «دركاه» أى دهليز يوصل إلى صحن كبير مكشوف، به على اليمين قاعة تحوى إيوانين وقاعة بصدرها صُفة كانت توضع فيها النارجيلات والأباريق .. الخ، وبه فى الجهة الغربية باب يؤدى إلى سلم، وبجواره باب آخر

يؤدى إلى فضاء ربما كان فى الأصل من الحديقة، ويتبعه غرف ومرتفعات للدار، وبه من الجهة القبلية «التختبوش» بعموده الرخامى البديع الحامل للعتب الخشبى المنقوش، والذى كان فوقه مشربية جميلة من الخرط، ولكن انتزعت وحل محلها شبابيك «شيش» ..

والجانب الشرقى للصحن به ثلاثة أبواب : الأيسر يؤدى إلى سلم يصعد منه إلى الغرف العليا وبخاصة إلى الجناح الشرقى حيث ولد الخديو اسماعيل، والأوسط يؤدى إلى قاعة «الأنس» نقش تاريخها على العتب سنة ١١٩٣ هـ وهذا نصه :

إلا أن هذى روضـــة الحـــسن والهنا

وجنة فـــردوس الســـرور المقـــيم

تفـوق على الجـوزا بحـسن جـمـالهـا

وبهـجـة منشـيـهـا الجـوار الكريم

وأقـسم داعى الخط فـيـهـا مـؤرخـا

لقـــاعـــة أنس وسط دار النعــــيم

والباب الأيمن أكثر زخرفة من سابقه، ومصراعه من خشب معشق آية فى البهاء والرونق، وقد نقش على عتبة الرخام ما يأتى :

شـاد العـلا قـاعـة من حـسن رونقـهـا

أضـــحى الدير من جـــملة الخـــدم

على قــواعــد حــفظ الله قــائمــة

وقـــد غـــدت بمزيد الأمن كــالحـــرم

فى بيت عـــز لك العليـــا تؤرخـــه

بشـــراك فـــيـــه بطول العـــمـــر والنعم

ويؤدى هذا الباب إلى رحبة توصل إلى قاعة المجد، وهى القاعة الكبرى القبلية الخاصة باستقبال التجار وكبار الضيوف وإلى أماكن أخرى، ويعلو الباب عتبة نقش عليها :

هذه نزهة لهـــا المجـــد شـــيـــد

وعلى غـــيـــرها لهـــا الله أيد

وبأســـمـــاء ذى الجـــلال تعـــالى

وبآياته لهـــا الحـــفظ يسند

وبالدور العلوى فى الدار «قـاعـة الاسـعـاد» وتحـوى إيوانين ودورقـاعة بينهمـا، فـالايوان الأيسر يشرف على درب المسمط من مـشربية من الخشب المخروط الدقيق الصنع، وبجانبيه خزانات فوقـها طراز دائر حول القـاعة كلها، وبالدورقـاعة باب يوصل إلى طرقة بها حمام وفريزة، وقد كتب على الطراز قصائد متنوعة ..

هنا ولد إسماعيل

وفى القاعة القبلية بهذا الطابق العلوى ولد الخديو اسماعيل فى ١٦ رجب ١٢٤٤ هـ (٢٢ يناير ١٨٤٤م) وبهـذه الغـرفـة خـزانة

بمصراعين بينهما مصراع يؤدى إلى سلم على اليمين، وإلى حجرة صغيرة تتصل بأخرى ضيقة بها باب يؤدى إلى القاعة الشرقية الكبرى العليا، وإذا صعد الزائر من السلم يجد نفسه فى قاعة صغيرة تحوى إيوانا واحدا ودورقاعة بها مشربية جميلة، وهذه تؤدى إلى قاعة كبيرة لا تقل أهمية عن القاعات الأخرى ..

والمصادر التاريخية لم توضح لنا الظروف التى أدت إلى أن يولد الخديو اسماعيل فى قصر «المسافرخانة» بدلا من قصور القلعة حيث كان يعيش عزيز مصر محمد على باشا وابنه القائد ابراهيم باشا، ويخيل إلى أن وراء هذا التحول رغبة الأميرة «خوشيار» زوجة ابراهيم وأم اسماعيل، فى سكنى القاهرة لتكون على مقربة من عمليات بناء «مسجد الرفاعى» الذى أقامته على نفقتها فى مقابل مسجد السلطان حسن، وفى هذا البيت الكائن فى قلب العاصمة قضى اسماعيل فترة طفولته وصباه مما أثار اهتمامه بتخطيط القاهرة وتنظيم عمرانها، وهو ما تحقق بعد أن صار واليا فى عام ١٨٦٣ م ..

فى الخطط التوفيقية

أما المسجد الذى أقامه محمود بن محرم بجوار قصره، فقد أشار إليه على باشا مبارك فى «الخطط التوفيقية» عند حديثه عن درب المسمط : وعلى رأسه جامع محمود محرم، وكان إنشاؤه سنة ست وأربعين وتسعمائة كما هو منقوش على عمود فيه من الرخام،

ثم جدد الخواجا الحاج محمود محرم سنة سبع ومائتين وألف كما هو منقوش على بابه، فعرف به من ذاك الوقت، ووقف عليه أوقافا، شعائره مقامة إلى اليوم من ريعها، وبه منبر وخطبة وخزانة كتب عليها قيم يتعهدها ويعير منها للطالبين، وبداخله ضريح يقال أنه ضريح الشيخ ابراهيم البقاعى المفسر، وأما محمود محرم المذكور فهو الخواجا المعظم،، والملاذ الأفخم الحاج محمود بن محرم، أصل والده من الفيوم، ثم استوطن مصر (القاهرة) وتعاطى التجارة، فاتسعت دنياه، ويتبع هذا الجامع سبيل أنشئ سنة ثلاث وتسعين ومائة وألف وتحت نظر الشيخ مصطفى حجاج، وقد بلغنى - يقول على مبارك - أن المعروف عند اختيارية أهل هذه الخطة أن حبس الرحبة المذكور كان قريبا من جامع محمود محرم، وهناك بالقرب من الجامع سبيلان : أحدهما وقف السلطان إينال، والآخر وقف الجلنشى، وهما عامران إلى الآن بنظر الأوقاف (أى عصر على مبارك) ..

* * *

لقد احترق قصر المسافرخانة .. كما احترق من قبله قصر الجوهرة الذى كان يقيم فيه محمد على بالقلعة .. وكما احترقت دار الأوبرا الخديوية التى أقامها اسماعيل فى مواجهة تمثال أبيه .. ولا ندرى أين ومتى ستندلع النار فى المستقبل .. فكل آثارنا مكشوفة

ومعرضة للتدمير والضياع .. إن لم يكن بالنار فبالإهمال والعبث واللامبالاة (!!)

لقد زال من الوجود واحد من أروع البيوت التاريخية .. طالما شهدت قاعاته وردهاته أفراحا وحفلات واستقبالات .. ودوت بين جدرانه صيحات الإعجاب بما يحويه من زخارف ونقوش .. وفى لحظة من لحظات الإهمال تحول إلى إطلال تنعق فيه البوم ..(!!)

أغاخان: أنا أحلى من البقرة

بعد أن نجح المغول فى تدمير دولة الحشاشين الإسماعيلية فى قلعة آلموت، تعرض الإسماعيليون للشتات فى أنحاء إيران هربا من سيوف المغول التى كانت تلاحقهم أينما وجدوا، وبذلك دالت دولتهم، وانفرط عقدهم، وفقدوا «الإمام» الذى لا تقوم لهم قائمة بدونه، وهاجر معظمهم إلى الهند، وانساحوا فى شعابها الشاسعة يمارسون التجارة، ويتهمون بتأمين أوضاعهم المالية، ثم أخذوا يتغلغلون فى طوائف الهند الدينية دون أن يفصحوا عن هويتهم الاسماعيلية واستمروا على هذا الحال عدة قرون، حتى إذا كان منتصف القرن التاسع عشر – أى منذ ١٥٠ سنة – ظهر فى إيران قاطع طريق اسمه «حسن على شاه» استطاع أن يجمع حوله نفرا من الفتوات والخارجين على القانون، وأخذ يسطو بهم على القوافل، ويشن الغارات على القرى والمدن ويسلب الأموال ثم ينفق بعضها على الفقراء، فاكتسب شهرة كبيرة لدى العامة وانضم إليه العاطلون والناقمون والفقراء من الاسماعيليين وغير الاسماعيليين،

حتى توفرت لديه قوات صارت تشكل خطرا على نظام الحكم وكانت إيران يومئذ تحت حكم شاهات الأسرة «القاجارية»، وخشيت الحكومة من إتساع نفوذه فأخذت تتربص به، وتتحين الفرصة للقبض عليه .

فى ذلك الوقت كانت بريطانيا تسعى إلى بسط نفوذها على إيران، وتدبر الدسائس للإطاحة بالأسرة «القاجارية» الحاكمة وتبحث عن بديل يصلح للجلوس على عرش الطاووس، فوجدت ضالتها فى زعيم العصابه «حسن على شاه» فاتصل به الإنجليز، وأقنعوه بالقيام بثورة سيكون ثمنها مغريا، واستجاب الرجل للطلب، وأعلن الثورة، ولكنها فشلت، ووقع زعيمها فى قبضة الشاه فزج به إلى السجن، ولم يترك الانجليز رجلهم يلقى مصيره المظلم، فتدخلوا لدى الشاه واستطاعوا إقناعه بإطلاق سراح الرجل مقابل إبعاده عن إيران، وخرج «حسن على شاه» من السجن ليضع نفسه تحت أمر السلطة الإنجليزية، فدفعوا به إلى أفغانستان ليعمل على تأليب أهلها ضد النفوذ الروسى، ولكن الأفغان اكتشفوا حقيقة أمره فأبعدوه عن بلادهم، عندئذ أخذه الانجليز إلى الهند، وهيأوا له إقامة طيبة فى بومباى، وأرادوا أن يضفوا عليه صبغة دينية تغرى المسلمين فى الهند على الانصياع له، فجعلوه إماما للطائفة الاسماعيلية – فرع نزار – وخلعوا عليه لقب «أغاخان»، وهو لفظ فارسى من شقين مضمونهما: الزعيم القائد، وكان إسماعيلية الهند

فى تعطش شديد إلى «إمام» ينظم صفوفهم ويدافع عن مصالحهم إزاء الطوائف الأخرى، ويعيد الحياة إلى دعوتهم التى كادت تندثر طوال القرون الماضية، والتف إسماعيلية الهند حول زعيمهم الجديد «أغاخان» ودانوا له بالطاعة العمياء، إلى أن مات سنة ١٨٨١ فخلفه أبنه «أغا على شاه» وحمل لقب أغاخان الثانى، وكان أبوه قد أعده إعدادا ثقافيا يمكنه من تحمل المسئوليه من بعده، فكان يجيد عدة لغات منها العربية، وقام بإنشاء عدة مدارس لأولاد المسلمين دون النظر إلى انتماءاتهم المذهبية، فاكتسب تقدير جميع المسلمين فى الهند، وكان زواجه من «بيبى خان» ابنة شاه إيران الراحل «فتح على» فاتحة خير عليه وعلى الطائفة الاسماعيلية كلها، لما كانت تتميز به من رجاحة العقل وحسن التدبير وسعة الأفق، أما أهم إنجازاتها فهو أنها أنجبت له إبنهما «محمد الحسينى شاه» أغاخان الثالث الذى أكتسب شهرة طبقت الآفاق، لا تدانيها شهرة نجوم السينما وعباقرة السياسة وهو الذى يعرفه المصريون من كثرة تردده على مصر، ثم حرصه على أن يدفن فوق ربوة عالية تطل على نيل أسوان، وهو الذى تذهب إليه الأذهان عندما يذكر أسم أغاخان.

عندما تولى «أغاخان» مسئولية الطائفة الاسماعيلية عام ١٨٨٩ كان عمره لا يزيد على اثنى عشر عاما، فتولت أمه - بيبى خان - الإشراف بنفسها على شئون الطائفة والانتقال بها من تقاليد

القرون البالية إلى آفاق العصر الحديث، ورأت أن ترقية المرأة الاسماعيلية هي الخطوة الأساسية في مشروع النهضة الاسماعيلية، فشجعت المرأة على التعليم والمساهمة في الحياة الاجتماعية جنبا إلى جنب الرجل، ودفعتها إلى المساهمة في الحياة العامة وارتياد المنتديات الثقافية والأدبية والجمعيات العلمية والنوادي الرياضية، وشكلت فريقا من نساء الطائفة لمواساة الجرحى أثناء الحرب العالمية الأولى، وفي نفس الوقت عملت على تدريب إبنها أغاخان الصغير على أعمال الرئاسة والقيادة، حتى إذا بلغ السادسة عشرة تركت له تدبير شئون الطائفة، في وقت شهد العالم فيه تغيرات وتطورات وصراعات دولية هائلة، واستطاع الشاب المحنك أن يقود سفينة الطائفة بحكمة ودراية جعلت منه شخصية أسطورية حار الكتاب في تفسيرها وكشف غموضها .

إن الصورة التي يقدمها لنا الدكتور محمد كامل حسين ربما كانت أصدق ما كتب عن أغاخان لما كان بينهما من مودة وصداقة وإحترام متبادل، حتى أن أغاخان طلب منه أن يشرف على تثقيف ولديه : على وصدر الدين، ولكنه أعتذر، ولم يكن أغاخان ليعهد لهذا العالم المصري بهذه المهمة لولا ثقته في أمانته وعلمه، والصورة تجمع بين متناقضات تثير الغرابة، فهذا الرجل الذي تثقف ثقافة غربية بحتة، واختلط بالمجتمعات الأوربية، لم يكن يتورع عن السماح لأبناء طائفته بأن يعتقدوا في ألوهيته رغم معرفته بما في هذه

الدعوى من خرافة، وبينما كان يبدو أمام العالم فى صورة الغيور على الإسلام والمسلمين، كان يعتنق أفكار الجماعات المتأخرة من إسماعيلية «ألموت» التى أهدرت الإسلام، وأبطلت الشريعة، وأسقطت الفروض الدينية من صلاة وصوم وحج، وفى الوقت الذى كان يغدق فيه الأموال على أبناء طائفته، كان يضن بالقليل على أى مسلم غير إسماعيلى، ومن غرائبه دفاعه الحار عن الخلافة الاسلامية رغم موقف العثمانيين المعادى لمذاهب الشيعة وكل هذه التناقضات لا تحجب مآثر الرجل .

وحدة المسلمين

من مآثره التى يذكرها الدكتور كامل حسين أنه نادى بوحدة المسلمين فى الهند .. حتى يأخذوا مكانهم الطبيعى فى الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية مثل بعض الطوائف التى كانت تتمتع برعاية السلطات الانجليزية، فأسس مع جماعة من المسلمين «الرابطة الإسلامية» سنة ١٩٠٧ وانتخب رئيسا لها سنة ١٩١٤، وكانت هذه الرابطة تجمع كلمة المسلمين جميعا على إختلاف مذاهبهم، وتعمل على النهوض بمستواهم، وقد تطورت الرابطة إلى حزب سياسى دعا إلى قيام دولة باكستان الحالية، وبالرغم من أن مؤسس باكستان «محمد على جناح» كان إسماعيليا ومن أتباع أغاخان، إلا أنه خالف زعيمه فى مسأله إنشاء دولة للمسلمين فى الهند، فقد كان أغاخان يرفض تقسيم الهند، ويرى فى إقامة

«باكستان» إضعاف شأن المسلمين فى الهند وباكستان معا، ولكن «جناح» وأعوانه خالفوا رأى إمامهم، وانساقوا وراء فكرة التقسيم رغم أن أكثر رجال دولة باكستان من أتباع الاسماعيلية الأغاخانية.

أما أعظم أعمال أغاخان فهو إنشاء أول جامعة للمسلمين بالهند، فقد رأى الهندوس يتبرعون بسخاء لإنشاء جامعات علمية لهم، وليس للمسلمين جامعة تدرس العلوم الحديثة بجانب العلوم العربية والإسلامية، ووجد أن المسلمين فى الهند متخلفون فى ميدان العلوم بسبب إنكبابهم على الكتب الدينية فقط، وكان العلماء يزعمون أن العلوم الحديثة هى علوم أهل النار، فحمل أغاخان لواء دعوة المسلمين فى الهند على اختلاف مذاهبهم إلى إنشاء جامعة حديثة للمسلمين، وقام على رأس وفد من المسلمين طاف به كل أرجاء الهند لجمع التبرعات، ودفع أغاخان من ماله الخاص مبلغا يوازى كل ما جُمع من المسلمين، ونجحت هذه الجهود فى إقامة جامعة «عليكرة» وأنتخب أغاخان مديرا فخريا لها عدة مرات.

ويذكر الدكتور كامل حسين حوارا بينه وبين أغاخان بفندق ميناهاوس بالقاهرة عقب إنشاء الجامعة العربية، فأبدى أغاخان أسفه من عدم التفكير فى إنشاء جامعة إسلامية تضم جميع البلاد الإسلامية للنهوض بالمستوى الثقافى والاقتصادى والإجتماعى بين شعوب المسلمين، وكان من رأيه ضرورة إنشاء هذه الجامعة بشرط أن لا تتدخل فى السياسة، وأعلن استعداده بأن يدفع وحده عن

الطائفة الاسماعيلية مبلغا يساوى جميع ما يدفعه المسلمون فى العالم إذا تحققت هذه الوحدة بين المسلمين، ويعتقد الدكتور كامل حسين أن حماس أغاخان للجامعة الإسلامية ربما كان وراءه رغبة الإنجليز فى تحطيم الجامعة العربية. وعلاقة أغاخان بالإنجليز كانت معروفة. وسجله التاريخى حافل بإنحيازه إليهم .

تناقضات فى شخصية أغاخان

أما عن حياة أغاخان الخاصة فكانت مثارا لاهتمامات الصحف فى كافة أنحاء العالم، فقد عرف بحبه للحياة الصاخبة بين موائد القمار وارتياد دور *اللهو البرئ وغير البرئ*، حتى تعجّب الناس من تناقض شخصيته، فهو إمام لطائفة دينية يعتقد أتباعه فى عصمته، ورفعوه فى التقديس إلى درجة الألوهية ثم هو، فى الوقت نفسه لا يتحرج عن أن يأتى ما يتنافى مع كل دين من الأديان، والمعروف عنه أنه كان يسرف فى لهوه ومسراته إلى درجة السفه، وفى الوقت نفسه كان يقتر ويبخل فلا يدفع مليما واحدا لغير أبناء طائفته، ويروى الدكتور كامل حسين أنه كان فى صحبته بالقاهرة عندما دخل عليه أحد أتباعه قادما من كينيا إبان الحرب العالمية الثانية، وأخذ يشكو إليه حاجته إلى فتح محل بالقاهرة يتعيش منه، فقال أغاخان : إذهب وابحث عن المحل الذى يلائمك، وساوم على شرائه وسأدفع لك الثمن، وبالفعل دفع له ألفين من الجنيهات (خلو رجل) لمحل فى عمارة الأيموبيليا، وتاجر فيه هذا الإسماعيلى، وبعد سنة

واحدة إنتهت الحرب ثم انتقل الإنجليز من القاهرة إلى منطقة القناة، فانتقل هذا التاجر الاسماعيلى وراءهم إلى القناة، ثم عاد إلى بلاده بعد ثورة يوليو ١٩٥٢، وفى نفس الوقت الذى دفع فيه أغاخان هذا المبلغ الكبير لشاب إسماعيلى، دخل عليه رجل إيرانى كبير السن رقيق الحال يسأله المساعدة، فثار أغاخان فى وجهه وطرده. ومن ذلك يتبين أن أغاخان كان يصرف كل جهده من أجل رفع مستوى أبناء طائفته، ويسخّر أمواله الطائلة لخدمتهم. فعندما لاحظ ضعف حالة الاسماعيلية فى الشام وأنهم لا يستطيعون دفع (الخمس) الذى يجب على كل إسماعيلى أن يدفعه للإمام، عمل على تأسيس شركة تجارية لهم ورصد لها مليون جنيه، وأعفاهم من هذه الفريضة لمدة عشر سنوات على أن يدفعها القادرون وتجمع هذه الأموال وتنفق فى النهوض بمستوى الطائفة فى الشام وأمر بتشكيل مجلس أعلى للإشراف على ذلك .

وزنه بالذهب والماس

ومن القصص الشائعة عن أغاخان وزنه بالذهب والماس والبلاتينى، وقد حدث ذلك أكثر من مرة، فقد تم وزنه بالذهب لأول مرة فى بومباى عام ١٩٣٦، ومرة ثانية فى شرق إفريقيا بمناسبة مرور خمسين عاما على ولايته إمامة الطائفة الاسماعيلية ووزن ثلاث مرات بالماس سنة ١٩٤٦ احتفالا بمرور ستين عاما على إمامته، ووزن فى القاهرة عام ١٩٥٦ بالبلاتين بمناسبة مرور سبعين عاما

على إمامته، وكان أتباعه يجمعون ما يوازى قيمة وزنه بهذه الجواهر ويقدمون هذا المبلغ هدية منهم إليه فى تلك المناسبات رمزا لحبهم العميق له، ولكن الحقيقة التى لا يعرفها غير أتباعه أن هذه الأموال لم يكن يتسلمها أغاخان، ولم تدخل فى رصيده الضخم فى البنوك، وإنما كانت تسلم إلى «مجلس إدارة الرابطة الاسماعيلية» للإنفاق منها على إقامة المدارس وإنشاء المستشفيات للطائفة، ومساعدة المحتاجين، ورفع مستوى أفرادها فى جميع النواحى وقد وضع المجلس دستورا للجمعيات الأسماعيلية فى جميع بلاد العالم، وتتلخص مواد الدستور فى تقسيم الطائفة الاسماعيلية إلى وحدات، يشرف على كل وحدة أخصائيون اجتماعيون وأساتذة مثقفون وأطباء وعلى الوحدة أن تهتم بتعليم أبنائها بالمجان، وإذا نبغ أحد التلاميذ فالوحدة تبعث به لإتمام تعليمه فى جامعات بريطانيا، وإذا أراد التلميذ اختصار تعليمه والاتجاه إلى التجارة فعلى الوحدة مساعدته ماديا وأدبيا حتى ينجح فى تجارته، وعلى الوحدة أن تنشئ المستشفيات الخاصة بالطائفة والعلاج بها بالمجان أيضا، ويجب أن يهتم الاسماعيلية فى كل الوحدات بالرياضة البدنية، وأن يكون شعارهم هو شعار الاسماعيلية الأغاخانية: طهر نفسك وطهر جسدك .

أنا أحلى من البقرة!

تزوج أغاخان أربع مرات دون أن يجمع بين زوجتين، وكانت أولى زوجاته أميرة إيرانيه هى البيجوم «شاه زادى»، فلما توفيت تزوج من فتاة إيطالية أسمها «تريزا ماجليانو» وأنجب منها ابنه الأكبر «على» الذى تزوج الممثلة الأمريكية المشهورة «ريتا هيوارث» وأنجب منها فتاة أسمها «ياسمين». وفى سنة ١٩٢٧ أعجب بفتاة فرنسية كانت تبيع الحلوى والسجائر فى كشك بجوار مقهى بحى مونبارناس وأنجب منها ابنه «صدر الدين» ثم طلقها وتزوج عام ١٩٤٤ من عارضة أزياء أنتخبت ملكة جمال العالم هى «لابروس» وهى أرملته التى عاشت من بعده وأسلمت واعتنقت الاسماعيلية وتعرف باسم البيجوم «أم حبيبة» وكانت تحرص على الحضور إلى أسوان كل شتاء لتصعد صباح كل يوم إلى مدفن زوجها الراحل وتضع زهرة على قبره حتى توفيت منذ شهور قليلة، وقبل وفاته اختار حفيده كريم لإمامة الطائفة الاسماعيلية.

* * *

من أطراف ما يرويه الدكتور محمد كامل حسين عن المتناقضات فى شخصية أغاخان : كنت أناقشه فى بعض المسائل الفلسفية الخاصة بتطور العقيدة الاسماعيلية وطالت المناقشة وتفرعت من موضوع إلى موضوع مما جعلنى أعجب أشد الإعجاب بعقليته وثقافته وسعة إطلاعه، فاستأذنته فى توجيه سؤال إليه ربما يغضبه

فلما وعدنى بعدم الغضب قلت له: – لقد أدهشتنى بثقافتك وعقليتك، فكيف تسمح لأتباعك أن يدعوك إلها ؟!

فضحك أغاخان طويلا وعلت قهقاته حتى دمعت عيناه من كثرة الضحك ثم قال :

– هل تريد الإجابة .. إن القوم فى الهند يعبدون البقرة .. ألست خيرا من البقرة !!



قطرالندى

الزواج السياسى ظاهرة تاريخية عرفتها الدول قديما وحديثا وهو لايقوم على اتفاق الإرادات أو توافق الميول والعواطف بين طرفى الزواج .. ولكنه تنفيذ لاتفاق سياسى بين دولتين مثل اتفاقيات الهدنة بعد الحروب، أو تقسيم المياه ورسم الحدود وحسن الجوار فى زمن السلم، فالعريس والعروس لا يكون بينهما سابق معرفة، ولا يرى أحدهما الآخر إلا يوم الزفاف، وكان ملوك أوروبا فى العصور الوسطى يلجأون إلى المصاهرة السياسية فى أعقاب الحروب كدليل على حسن النوايا بين المنتصر والمهزوم .

وكان آخر زواج سياسى عرفته مصر فى عصرها الحديث : زواج شاه ايران الراحل محمد رضا بهلوى من الأميرة «فوزية» كبرى وأجمل بنات الملك أحمد فؤاد، ولم يثمر هذا الزواج سوى ابنة واحدة - شاهيناز - ولم يعمر سوى بضع سنوات عادت بعدها فوزية إلى مصر فتزوجت من اسماعيل شيرين آخر وزير للحربية

عشية قيام ثورة ٢٣ يوليو .. وهى تعيش الآن فى الأسكندرية فى عزلة وهدوء، وتلك طبيعتها منذ عادت إلى مصر عام ١٩٤٥ ولم يصبها رذاذ المجون الذى أصاب شقيقاتها وشقيقها - فاروق - ومعهم أمهم الملكة السابقة «نازلى» .. وكان هذا المجون من أهم الأسباب التى أطاحت بالأسرة العلوية كلها .

أما أشهر زواج سياسى عرفته مصر، فهو زواج الأميرة «قطر الندى» بنت أمير مصر خمارويه بن أحمد بن طولون، من خليفة المسلمين وسلطان الدولة العباسية «المعتضد بالله» .. وهو زواج سارت بذكره الركبان، وأثار شهية المؤرخين على توالى العصور .. ولازال اسم «قطر الندى» ثابتا فى الوجدان المصرى .. ويتردد فى الألحان الشعبية وأغانى الأفراح .. صدى لهذا العرس الذى لم يشهد له التاريخ مثيلا .

ما هى دوافع هذه المصاهرة السياسية التى تمت بين «إمارة» مصر وبين دولة «الخلافة» فى بغداد .. وماذا كانت نتائجها ؟

أولا .. نتعرف على العروس .. أصلها وفصلها والظروف التى دفعت بها إلى قمة الهرم الاجتماعى لتقوم بمهمة تحسين العلاقات بين مصر وبغداد ..

كانت مصر فى العصر العباسى ولاية يحكمها أمير يبعث به الخليفة ليدبر شئونها، ويضبط أمورها، وينظم أموالها، ولأن مصر كانت أغنى البلاد وأقواها، كان الخلفاء يختارون حاكمها من بين

أهل الثقة المقربين من الخليفة، وهم فى ذلك الوقت طبقة الضباط الأتراك الذين صار إليهم النفوذ والسلطان، وفى عام ٢٥٤ هـ وقع اختيار الخليفة «المعتز» على أحد هؤلاء الأتراك واسمه «بقبق» ليكون أميرا على مصر، فانتدب ابن زوجته أحمد بن طولون ليحكمها نيابة عنه مؤثرا البقاء فى بغداد ليكون قريبا من عش المؤامرات والدسائس التى تدور فى قصر الخلافة، فلما مات «بقبق» لم يرجع أحمد بن طولون إلى بغداد، وشاء حسن حظه أن تكون مصر من نصيب «بارقوق» والد زوجته .. فأقره على موقعه قائلا : خذ من نفسك إلى نفسك (!!).

كان والد أحمد تركيا اسمه «طولون» ومعناها بالتركية «بدر التمام» .. أهداه أمير بخارى إلى الخليفة المأمون، فعاش فى كنف قصر الخلافة فى زمرة الضابط الأتراك حتى وصل إلى الصدارة، ونشأ ابنه (أحمد) نشأة دينية فحفظ القرآن الكريم وعلوم الاسلام وفنون الحرب، حتى دفعت به الرياح إلى مصر. فاستبد بشئونها، وساورته أعراض الاستقلال الذاتى عن دولة الخلافة، ولتحقيق ذلك أقام جيشا قويا كانت عدته مائة ألف جندى .. جلبهم من كافة الأجناس، ولم يكن من السهل أن تسكت دولة الخلافة على استقلال مصر . فشبت بينهما حروب ومصادمات طوال عهد الخليفة «المعتمد على الله» .. أما العدو الأكبر لأحمد بن طولون فكان «الموفق» أخو الخليفة وصاحب النفوذ الفعلى. والذى قاد الجيوش لإخماد الثورات

والفتن، ومن بينها حركة استقلال مصر. وضاق المعتمد من سيطرة أخيه على الأمور، حتى فكر فى اللجوء إلى مصر، وانتهز أحمد بن طولون الفرصة، وزين له الفكرة،، ورسم له الخطة، وكان هدفه من ذلك انتقال الخلافة من بغداد إلى مصر فترتفع مكانتها فى العالم الاسلامى. ولكن عيون «الموفق» كانت له بالمرصاد، فقبضوا على المعتمد وهو فى منتصف الطريق، وأعادوه إلى بغداد ليقضى بقية عمره شبه سجين .. واستؤنفت الحروب بين مصر وبغداد حتى أنهكت قوى البلدين .. وتدخل ملك الموت لإخلاء المسرح من أبطاله فى فترات متقاربة، الخليفة المعتمد، وأخيه الموفق، وأمير مصر أحمد ابن طولون .

تركة أحمد

آلت الخلافة إلى «المعتضد» بن الموفق .. وآلت إمارة مصر إلى «خمارويه» ولى عهد أبيه .. ونظر فى تركة ابيه فوجد أنه ترك له فى خزائنه من الذهب الخالص عشرة آلاف دينار، ومن المماليك سبعة آلاف مملوك، ومن الغلمان أربعة وعشرين ألف غلام، ومن الخيل الميدانية سبعة آلاف رأس، ومن البغال والحمير سبعة آلاف رأس، ومن الدواب لخاصته ثلاثمائة، ومن مراكبه الجياد مائة، أما ذريته فكانت ثلاثة وثلاثين .. منهم سبعة عشر ولدا وست عشرة بنتا .. وأما اثاره العمرانية فحدث ولا حرج. أشهرها المسجد الكبير الذى لا يزال قائما حتى الآن .. والذى كان يتوسط مدينة عسكرية

تضارع الفسطاط والعسكر التى أقامها العباسيون، فضلا عن القصور الفخيمة .

نظر «خمارويه» إلى هذا الملك العريض الذى تركه له أبوه، والنفوذ الكبير الذى يمتد إلى أقاصى الشام ويتاخم العراق .. ورأى أن استمرار الحروب سيؤدى إلى مزيد من الخراب والدمار. ثم نظر إلى بعيد وبيت النية على أن يمد بينه وبين الخليفة جسرا من المودة لا ينفصم وأن تكون ابنته «قطر الندى» هى هذا الجسر فيضمن استمرار الحكم فى أسرته، ويأمن حدوث أى اجراء يطيح به عن حكم مصر .

فلما اختمرت الفكرة فى ذهن «خمارويه» استدعى أحد خاصته واسمه الحسن بن عبد الله وشهرته «ابن الجصاص»، وأسر إليه بما يعتزم، ثم بعث به إلى بغداد مصحوبا بما خف حمله وغلا ثمنه من الهدايا والتحف ليعرض على الخليفة زواج «قطر الندى» من ابن الخليفة «المكتفى بالله» .. وقام ابن الجصاص بالمهمة التى أوكلت إليه .. فلما مثل أمام الخليفة اختلى به المعتضد ليسأله عن صفات العروس المرشحة للزواج من ابنه، واسترسل الرسول فى وصف قطر الندى وما تتمتع به من جمال يسحر الألباب ويخلب العقول .. فما أن فرغ من كلامه حتى فوجئ بالخليفة يقول له :

– ولماذا يتزوجها ولدى .. أنا أحق بها منه (!!)

وكانت مفاجأة أذهلت ابن الجصاص. وأدرك أن مهمته حققت من النجاح أضعاف ماكان يتوقع .. لقد جاء يطلب يد ولى العهد .. فإذا بولى الأمر نفسه يعرض نفسه صهرا لأمير مصر .. وعاد الرجل إلى مصر وهو يرقص طربا، واستمع خمارويه إلى العرض الجديد وهو لا يكاد يصدق أن خليفة المسلمين سيكون زوج ابنته .. وبدأ على الفور فى الإعداد لهذا الزواج الذى سيربط بين كرسى الإمارة وعرش الخلافة برباط متين .. وصدرت الأوامر إلى كل أجهزة الدولة لترتيب مراسم عرس يضاهى مقام الخلافة ..

وثار سؤال : كيف ستنتقل العروس من مصر إلى العراق وبينهما مسافات شاسعة، وصحراوات قاحلة، وبيداء مقفرة ؟ عندئذ صدرت التعليمات ببناء سلسلة من القصور على طول المسافة بين البلدين، بحيث تقضى العروس فى كل مرحلة بضعة أيام فى منزل لا يقل رفاهية عن قصور أبيها .. وتقطع الرحلة كما يسير الطفل فى المهد، وكان أول القصور عند حدود مصر الشرقية هو قصر «العباسة» الذى يحمل اسم عمتها العباسة بنت أحمد بن طولون التى قامت على رأس الوفد النسائى لتوديعها وهى تغادر وطنها .. ولا يزال اسم العباسة قائما حتى الآن على القرية المعروفة بمحافظة الشرقية.

وعلى مدى أربعين يوما أقيمت الأفراح والليالى الملاح فى كافة أنحاء العاصمة المصرية. ونحرت الذبائح وأقيمت الولائم لكل طبقات الشعب، وكان المطربون يتبارون فى التغنى بهذا العرس السعيد مقرونا باسم «قطر الندى» حتى صار اسمها جزءا من التراث الغنائى الشعبى على مدى العصور. ولما حانت الليلة الأربعون تصدر الأمير خمارويه الاحتفال الرسمى الذى شهده كبار رجال الدولة والقضاة ورجال الدين وكبار التجار. وقدم الجميع تهانيهم إلى أميرتهم قبل أن تغادر البلاد إلى حياتها الجديدة مع خليفة المسلمين .

أما عن الجهاز الذى رافق العروس إلى بغداد محمولا على ظهور الإبل، فقد كان صورة مما بلغته فنون الصناعة المصرية من تقدم، وقد استفرغ الصناع المصريون كل مهارتهم فى إنتاج صناعة تحمل اسم «مصر» وصار هذا الجهاز أثرا تاريخيا يتبارى فى وصفه المؤرخون بدءا من المقريزى إلى على مبارك، وإليك بعض ما جاء على ألسنة المؤرخين :

قال ابن تغرى بردى : حمل معها من الجهاز مالم ير مثله ولا يسمع به. وكان من جملة جهازها دكة أربع قطع من ذهب عليها قبة من ذهب مشبك فى كل عين من التشبيك قرط (حلق) معلق فيه حبة من جوهر لا يعرف لها قيمة، وقال الذهبى : وكان من جهازها ألف (هاوون) مصنوعة من الذهب .

– والهون لمن لا يعرف من بنات الجيل المعاصر هو ذلك الوعاء الثقيل الذى يستخدم فى دق التوابل وكان يصنع عادة من النحاس، فلما غلا النحاس يصنع الآن من الألمونيوم – وقال المسعودى : وحمل ابن الجصاص جهاز قطر الندى وحمل معها جوهرا لم يجتمع مثله عند خليفة، وكان فى جهازها عشرون صينية ذهب فى عشر منها مشام صندل (أى لشم عطر الصندل) وزنها أربعة وثمانون رطلا، وعشرون صينيه فضة فى عشر منها مشام صندل زنتها نيف وثلاثون رطلا، وخمس خلع قيمتها خمسة آلاف دينار. وكان ابن الجصاص يشرف بنفسه على صناعة الجهاز، فلما فرغ من إعداده سأله الأب : هل بقى معك شئ من الحساب، وقال : نعم كسر (أى فضل) قيمته اربعمائة ألف دينار، فقال خمارويه : هى لك. وقال المسعودى إن ابن الجصاص استقطع بعض الجواهر من جهاز قطر الندى، وأبلغ قطر الندى انه يحتفظ بهذا المال عنده إلى وقت حاجتها، فلما ماتت قطر الندى ظل المال عنده، فكان ذلك سبب غناه .. وقال الذهبى : أن خمارويه جهز ابنته بألف ألف دينار (أى مليون بلغة زماننا مع فاروق الأسعار) ويقول القضاعى : ويستدل من ذلك على سعة نفس خمارويه، وكثرة مال ابن الجصاص .

فى عش الزوجية

لما وصلت العروس «قطر الندى» إلى بغداد لم يكن الخليفة «العريس» فى انتظارها، فقد كان خارج البلاد فى محاربة الثائرين،

ولدى وصولها صدرت التعليمات بحظر المرور فى شوارع بغداد - وكان مساء يوم أحد - وأغلقت أبواب الدروب التى تلى شط نهر دجلة، وارتفعت الأشرعة على النوافذ حتى لا يتطلع منها أحد على موكب العروس وهى تختال بين صفين من حملة الشموع حتى انتهى بها الموكب إلى عش الزوجية السعيد فى قصر الخلافة وبعد يومين عاد الخليفة فرأى قطر الندى فراعه جمالها، وأعلن أن ماسمعه عن أوصافها لا يضاهى الحقيقة، وليس من رأى كمن سمع، فأحبها حبا جما .. ووجد من أدبها وسمو أخلاقها ما يسمو على جمال خلقتها، حتى أنه خلا بها يوما وقد وضع رأسه على ركبتها وراح فى سبات عميق .. فأزالت رأسه عن ركبتها ووضعتها فوق وسادة . ثم تنحت عن مكانها وجلست بالقرب منه فى مكان آخر، فلما انتبه ولم يجدها صاح فزعا فعتب عليها إزالة رأسه عن ركبتها وقال لها: أسلمت نفسى لك فتركتنى وحيدا. وأنا فى النوم لا أدرى ما يفعل بى (!!) فقالت ما جهلت قدر ما أنعمت به على .. ولكن أبى خمارويه أدبنى بأن لا أجلس مع النيام .. ولا أنام مع الجلوس .. فأعجبه ردها .. وازداد بها شغفا .

أكذوبة إفقار مصر

يتفق المؤرخون القدامى - إلى حد الإجماع - على أن الخليفة المعتضد أراد بهذه الزيجة ليس تمتين العلاقات مع مصر، ولكن إفقارها (!!)

وهذا القول يحتاج إلى نظر ..

ولا شك أن حجة المؤرخين فى هذا هى النفقات الباهظة التى تكلفها زواج قطر الندى من الخليفة، سواء فى بناء قصور (الترانسيت) أو فى إعداد الجهاز .. ولكن لا يوجد دليل على أن الخليفة اشترط مواصفات معينه لهذا الجهاز كما يفعل بعض العرسان فى زماننا حيث يشترطون على العروس أن تحمل معها ثلاجة ١٨ قدما أو جهاز تليفزيون ٢٥ بوصة أو غسالة فول أوتوماتيك (!!)

ثم .. هل كان مطلوبا من الخليفة أن ينصح أمير مصر بعدم تبديد هذه الأموال الجمة، ويطلب منه التقشف والاعتدال.؟ وهل يكون هو أحرص على أموال مصر من حاكمها ؟؟ وهل كان الخليفة سيغضب ويعلن العصيان إذا وجد الجهاز فى مستوى أقل من المستوى الذى أراده خمارويه ؟ ثم أن هناك حقيقة يغفل عنها المؤرخون، أو يذكرونها على استحياء وهى أن الخليفة دفع فى قطر الندى مهراً يبلغ ألف ألف درهم وهو مبلغ يعوض المبالغ الباهظة التى تكلفها الزواج. وكل هذا ينفى عن الخليفة النية الخبيثة فى إفقار مصر .. وإنما الذى تسبب فى إفقارها عمليا هو سفه خمارويه وحبه للفشخرة وإهداره أموال البلاد فى بناء قصور وملاه ومغان وحدائق يقصر عن وصفها الخيال .. إليك هذه الصورة الوصفية لأحد قصور خمارويه كما جاء فى كتاب ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة):

ولما ملك خمارويه الديار المصرية بعد موت أبيه أحمد بن طولون أقبل على عمارة قصر أبيه، وزاد فيه محاسن كثيرة، وأخذ الميدان الذى كان لأبيه المجاور للجامع، فجعله كله بستانا، وزرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر، وحمل إليه كل صنف من الشجر المطعم وأنواع الورد وزرع فيه الزعفران، وكسا أجسام النخل نحاسا مذهبا حسن الصنعة، وجعل بين النحاس وأجسام النخل مزاريب الرصاص، وأجرى فيها الماء المدبر، فكان يخرج من تضاعيف النخل عيون الماء فينحدر إلى فسقيات يفيض منها الماء إلى مجار تسقى سائر البستان، وغرس فى أرض البستان من الريحان المزروع فى شكل نقوش وكتابات مكتوبة يتعهدها البستانى بالمقراض حتى لا تزيد ورقة فتصعب قراءتها .. الخ .. وعمل فى هذا البستان (دار الذهب) طلى حيطانه كلها بذهب فى أحسن نقش وجعل فى حيطانه صورا بارزة من خشب معمول على صورة الأميرة وصور حظاياه والمغنيات اللاتى يغنينه فى أحسن تصوير، وجعل على رؤسهن الأكاليل من الذهب والجواهر المرصعة، وفى أذانهن الأقراط الثقال .. وجعل فى القصر فسقية ملأها زئبقا .. وسبب ذلك أنه اشتكى الأرق فأشار عليه الطبيب بعمل بركة مربعة طول كل ضلع خمسون ذراعا . وملأها من الزئبق .. ووضع على سطح الزئبق محفة مملوءة بالهواء ومشدودة بخيوط من الحرير إلى جدران البركة .. فينام الأمير على هذا الفرش الذى يتحرك بحركة الزئبق حتى يغلب عليه النوم .

ويقول ابن تغرى بردى إن خمارويه بنى فى قصره مساكن للسباع والفهود وغيرها من الوحوش، حتى لكأنها حديقة حيوان .. وكان له أسد أزرق العينين مطلق السراح يقال له «زريق» نشأت بينه وبين الأمير صداقه متينة حتى أنهما لا يفترقان .. ولا يتناول زريق هذا طعامه إلا على سماط الأمير .. فإذا نصبت المائدة أقبل زريق معها وربض بين يدى خمارويه فيرمى إليه بيده الدجاجة بعد الدجاجة، وهبرة اللحم بعد الهبرة .. وكانت لزريق زوجة لم تأنس بالناس كما أنس زوجها، فتظل محبوسة فى قفصها وله وقت معلوم يجتمع معها فيه، وكان إذا نام خمارويه جاء «زريق» وقعد ليحرسه ولا يغفل عنه لحظة فلا يجرؤ أحد أن يدنو من خمارويه مادام نائما حتى أراد الله إنفاذ قضائه، ولقى خمارويه مصرعه على يدى بعض خدمه فى دمشق، وزريق فى مصر، ولو كان زريق حاضرا لما كان . وسبحان من له الدوام .

ولن أحكى لك عن بقية مظاهر السفه والفجور التى أحاطت بتاريخ «خماويه» والتى كانت السبب الحقيقى فى إفقار مصر وليس زواج قطر الندى كما يحلو لبعض المؤرخين أن يغفلوا الحقائق.. ويركنوا إلى التفسير الأسهل .

اعرف نفسك

لكى تعرف نفسك جيداً لابد أن تقرأ تاريخ بلدك، ولكى تفهم ما يجرى حولك من أحداث اجتماعية أو سياسية لابد أن تعود إلى الماضى لتجد التفسير المطلوب، وإذا كنت تبحث عن سر العلل والأوجاع التى تحاصرك .. فسوف تجدها فى هذا العمق التاريخى الذى يندر وجوده عند أمة من الأمم المعاصرة، ولكن هناك شرطا ضروريا لكى تفهم أغوار التاريخ المصرى وتستخلص منه العبرة المفيدة، هو أن تخلع رداء العاطفة، وتتجرد من عقدة الاستعلاء التى تجدها عند من يعرضون تاريخ مصر وكأنه بانوراما من الأمجاد والمفاخر، وينظرون فقط إلى عصور القوة والازدهار، ويغضون الطرف عن عصور الضعف والتقهقر، فهذه نظرة مضللة تصرفك عن الوصول إلى منبت الداء، ويكون شأنها شأن الطبيب الذى يشفق على مريضه فيخفى عنه سر المرض، ويوهمه بأن صحته «زى البمب»، فيصدقه وينصرف عن مكافحة الداء .

يجب إذن أن نقرأ تاريخ مصر كما هو كائن وليس كما نحب له أن يكون. ولابد أن ندرس فترات الضعف كما ندرس مراحل القوة، ولا ينبغى أن يتملكنا الخجل إذا عثرنا فى تاريخنا على منعطفات وأخاديد تصدم عواطفنا، فكل الشعوب مرت بمراحل ضعف ومراحل قوة، والتاريخ الانسانى لا يسير فى خط مستقيم أو فى خط بيانى يتصاعد من أسفل إلى أعلى .. ولكنه يتحرك فى خط حلزونى يتراوح بين الصعود والهبوط، والرفعة والضعة، والحضارة والتخلف، والشعوب الواعية هى التى تدرس تاريخها كله دراسة جدية موضوعية لتعرف نواحى الخلل والقصور فى حركة الأسلاف فتتحاشاها وتتعلم منها، وتضع يدها على عناصر القوة فتتشبث بها وتعمل على تنميتها، ولكنك لا تجد مثل هذه النظرة التكاملية فى مناهج تدريس التاريخ لأبنائنا فى المدارس، وهى أهم مراحل التكوين الثقافى للشباب والفترة التى يتشكل فيها كيانه العقلى ومزاجه الروحى، ولكنك تجد فى التاريخ المدرسى تركيزاً على مظاهر القوة وإهمالاً لأسباب الضعف .

فتاريخنا الشائع هو تاريخ الفراعين والسلاطين والملوك والولاة، ولكنه لا يفسر للقراء لماذا انطفأت جذوة الحضارة القديمة، ولماذا سقطت مصر تحت سنابك الأجناد الأجنبية، ولا يعطى لنا صورة واقعية عن المجتمع المصرى فى تلك العصور، ولا عن شكل العلاقات بين الحكام والمحكومين، وماذا كان نصيب المصريين فى ثروة

بلادهم، وهل كان المصريون يتمتعون بقدر من المشاركة فى إدارة شئون بلادهم فى كافة العصور، ولا أدرى لماذا لا نحدث أبناءنا بصراحة عن طبيعة العلاقة بين المصريين وحكامهم، وكيف استبد الحكام بالأمر، ولماذا رضى المصريون بالأمر الواقع، وكيف أدى هذا السكوت إلى إصابة الشخصية المصرية بالعجز والانكسار والسلبية .

بذرة الطغيان :

هل يعترينا الخجل إذ قلنا لهم إن الفراعنة وضعوا بذرة الطغيان فى مصر ؟

ولماذا نخجل إذا كانت هذه هى الحقيقة ؟ أم أننا نخجل لأننا لم نستطع أن نقتلع بذرة الطغيان أو نجتث شجرتها التى ضربت بجذورها فى التراب المصرى حتى تأصلت ؟ نحن ندعو أبناءنا إلى الافتخار بالأهرامات والمعابد والقصور التى تمتع بها الفراعين فى الحياة والممات، ولكننا لم نشرح لهم كيف بنيت هذه المنشآت الضخمة، وكيف سيق المصريون تحت لسع السياط ليعملوا بالسخرة فى قطع الأحجار من جبال الصعيد ثم نقلها إلى مواقع البناء ؟ ولا ينبغى أن نخدعهم بترديد المعزوفة التى تزعم إن المصريين كانوا يفعلون ذلك وهم فى غاية النشوة والسعادة «!!» وأنهم كانوا يرددون ألحان الفرح وهم يرفعون طبقات الهرم مدماكا

فوق مدماك، وأنهم قبلوا هذه الأعمال القسرية استجابة لهواتف دينية ترى فى الفرعون تجسيداً للإله، مما دفعهم إلى التفانى فى خدمة الفرعون الإله، إننا حين نروج هذه الأفكار فإنما نزرع فى نفوس أبنائنا إحساساً لا شعورياً بالخنوع والخضوع للحاكم، والقبول بكل ما يصدر عنه من بطش وقهر واستبداد، واعتبار ذلك من الدين، والمفروض أن نبث في نفوسهم قيم الدين لصحيحة، فالدين الصحيح يأبى ألوهية البشر، ويستنكر هذه الأفكار الفاسدة التى يروجها الكهنة لتبرير الطغيان حفاظاً على مصالحهم، والعقيدة التى تبرر الظلم هى عقيدة ظالمة .

وكان ينبغى أن نتخذ من هذه المحن التاريخية القديمة وسيلة لاستنكار الظلم وتوعية الناس، فنقول لهم إن الفرعون لم يصنع نفسه وإنما صنعه الشعب، فالشعب هو المسئول أولاً وأخيراً عن صناعة الطغاة والطغيان، والشعب هو المسئول عن هذه الوصمة التى أصابت الشخصية المصرية بالانحراف عن الفطرة، وحصرت دور المواطن فى الشكوى من الزمان وانتظار الفرج من الأقدار لترفع عنه بلاء الحاكم المستبد «!!» إن كاتب التاريخ ذا الضمير الحى يجب ألا يخدع قومه، وعليه أن يضع الشعب أمام مسئوليته، ولا يعفى الشعب من اللوم حين يقبل بالطغيان، وليس له أن يشتكى بعد ذلك فهو الملوم أساساً، وهو الجانى والمجنى عليه، وهو الفاعل والضحية، وهو الجرح والسكين .

إننا حيث نفعل ذلك فإننا نفتح العيون الغافلة، ونوقظ الهمم الفاترة، ونأخذ بيد الشعب إلى طريق الارتقاء، وندفع به إلى حالة التوهج الحضارى، لأن الديمقراطية تتناسب طردياً مع درجة التقدم الحضارى، وكلما ارتقى النظام السياسى، وكلما تحرر الشعب من القيود والأغلال، كشف عن مواهبه وقدم أعظم ما عنده من كفاءات بشرية وقدرات عقلية ونفحات روحية، ولو بحثت فى تاريخ مصر عن فترات الازدهار الحضارى فسوف تجدها مرتبطة بارتقاء النظام السياسى، وانحسار موجة الاستعمار والاستعباد، وأقرب مثل إلى أذهاننا هو الفترة الليبرالية التى عاشتها مصر بين ثورتى ١٩١٩، ١٩٥٢، وهى الفترة التى عرفت فيها مصر الحياة النيابية والمسئولية الوزارية، وقام فيها دستور وجامعة ومسرح ومراكز بحوث علمية وتاريخية وجغرافية وزراعية، فى هذه الفترة الزاهية أنجبت مصر أعظم رجالها فى السياسة والعلم والاقتصاد والفن والأدب.

عصر النهضة:

وتطول بنا القائمة لو ذكرت لك نجوم ذلك العصر الذى يذكرك بعصر النهضة الذى أخرج أوروبا من ظلمات القرون الوسطى إلى العصر الحديث، عصر دانتى ومكيافيللى ورافاييللى ودافنشى ومايكل أنجلو .. عصر السوربون واكفسورد وكمبردج وبيكون والعلوم الانسانية والاكتشافات الجغرافية ..

ومصر مثلها مثل أى بلد آخر، تكشف عن أسرارها وتقدم كنوزها إذا تحررت من القهر والبطش والاستبداد، وإذا نعمت بالعيش فى ظلال الحرية، وتصاب بالعقم - مثل أى بلد آخر - إذا ابتليت بداء الطغيان، فنحن لسنا بدعاً بين الشعوب، نحن مثل غيرنا من البشر ننتعش بالحرية والديمقراطية، ونفسد بالحكم المطلق، ونتكس بالهزيمة، ويسرى علينا ما يسرى على غيرنا من نواميس البقاء والفناء، وقصارى الأمر إن حقبة الاستبداد طالت عندنا أكثر من غيرنا، لقد اكتوت الشعوب الأوروبية بنار الحكم المطلق مثلما اكتوينا، وعانت من الفساد الدينى مثلما عانينا، ولكن الفرق بيننا وبينهم إنهم ثاروا .. وتمردوا .. وأنزلوا الأباطرة من عليائهم .. ومزقوا الأغلال العقلية التى صنعها الكهنة، وخرجوا على الدنيا بنظريات جديدة فى السياسة وأنظمة حديثة فى الحكم، واخترعوا الديمقراطية، واكتشفوا الانتخابات والبرلمانات وصاغوا الدساتير التى تحد من سلطان الملوك ووضعتهم فى موقع الذى يملك ولا يحكم، لأن الحكم أصبح من مسئولية الشعب عن طريق نوابه فى البرلمان، وجعلوا الحكومة مسئولة أمام هذا البرلمان، يحاسبها ويعاقبها ويطردها إذا لزم الأمر .

تجنيد الفلاحين:

هم فعلوا ذلك .. أما نحن فلم نفعل مثلهم، بل خرجنا من طغيان الفرعونية إلى طغيان الدول الأجنبية التى توالت على مصر : الفرس

ثم الإغريق ثم الرومان ثم الترك الطولونية فالاخشيدية، ثم الفاطمية فالأيوبية فالمملوكية فالعثمانية، ثم الفرنسيين فالانجليز. سلسلة طويلة استغرقت أكثر من ٢٥٠٠ سنة. والمصريون كالأغراب فى بلادهم، يرون جحافل الأجانب تقتحم حدودهم، وتمتلك ديارهم، وتنزف ثرواتهم وهم قعود .. يكتفون بالفرجة .. والصبر .. والهرب إلى الأديرة فى الصحراء .. أو الدعاء إلى الله بأن ينصرهم على الكافرين .. ويهلك الظالمين بالظالمين .. ولك أن تتصور جيش جوهر الصقلى - مثلا - وهو يشق طريقه من الاسكندرية إلى الفسطاط فلا يجد أحداً يقول له : قف .. من أنت ..! أو أحداً يسأله ماذا يريد.. نفس الشئ حدث لسلطان الدولة العثمانية سليم الأول وهو يتقدم من فلسطين إلى سيناء فى عام ١٥١٧ م بدون معترض .. ولا يغرنك ما جرى بينه وبين السلطان الغورى فى مرج دابق، ولا ما جرى بينه وبين السلطان طومان باى فى الريدانية، فكل ما جرى كان بين أجناد تركية عثمانية، أجناد تركية مملوكية .. أما المصريون فلم يكن لهم وجود غير العمل فى خدمة الجيش أو الدعاء للسلطان بالنصر على أعدائه، وهو دعاء تتغير صيغته عقب المعركة ليصبح طلب التأييد للسلطان المنتصر ضد السلطان المنهزم (!!) وهو نفس ما جرى فى معارك المنصورة ضد الصليبيين، وعين جالوت ضد المغول، فنجوم هذه المعارك هم : قطز وبيبرس وأيبك وأقطاى وقلاوون، ولن تعثر فى سجلات هذه المعارك عن شهيد اسمه عوضين أو مدبولى أو شلاطة أو بسيونى، لأن المصريين كانوا

ممنوعين من التجنيد ومحرماً عليهم حمل السلاح، وكان الحكام فى كل هذه المعارك يعتمدون على المرتزقة : أكراد وشركس وصقالبة ومغاربة وترك وسودان، أى مرتزق كان من حقه أن يصير جندياً فضابطاً فأميراً فحاكماً، أما المصريون فكان الجيش من المناطق المحرمة عليهم، وظل جميع حكام مصر يتوارثون هذه التعويذة السحرية ويحرصون عليها خشية أن يحمل المصريون السلاح فيسددوه إلى صدور حاكميهم ..

المرة الوحيدة التى انكسرت فيها هذه القاعدة كانت فى عصر محمد على، حين أزال هذا العائق وسمح بتجنيد الفلاحين المصريين رغم تخوفات أعوانه وأهل بيته - وكلهم من الترك - ولكنه طمأنهم بأن الفلاحين سيظلون تحت السلاح - يعنى عساكر وبس - ولن يرتقوا إلى سلك الضباط ويبقى هذا السلك حكراً للشراكسة والترك، ولكن سعيد - ابن محمد على - الذى كان محباً للمصريين مبغضاً للترك خرج على وصية أبيه وأقدم على خطوتين جريئتين : أولاهما السماح بتجنيد الأقباط بعد أن أسقط عنهم البدل المالى الذى كانوا يدفعونه نظير عدم التجنيد، وثانيهما السماح بترقية عدد من العساكر الفلاحين إلى مستوى الضباط، وكان من بينهم عسكرى فلاح من الشرقية اسمه أحمد عرابى، وفى عهد إسماعيل تحقق ما كان يخشاه أعوان محمد على من تجنيد المصريين، ووقع ما كان يخشاه كل حكام مصر الأجانب، وفى ميدان عابدين وقف عرابى

فى مواجهة الخديو **توفيق** يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١ وبجواره سفيرا فرنسا وانجلترا **ليطلب القضاء** على الامتيازات الطبقية فى الجيش وإصدار دستور **عصرى على** النسق الأوروبى يحدد سلطات الحاكم والمحكومين .. كلام **غريب** يتردد لأول مرة فى سماء مصر ويسمعه المصريون فيطربون .. **ويسمعه** الأجانب فيعلوهم الهم والغم والنكد .. وتنتهى أسطورة **العرابية** بالاحتلال .

الثورة المصرية:

هل صحيح إن **المصريين** لا يحبون الثورة على الظلم، ويفضلون الإخلاد إلى الدعة **والهدوء** ؟

ربما لا يقدم **لنا التاريخ** نماذج لثورات مصرية على غرار الثورات الشهيرة **مثل ثورة** العبيد بزعامة سبارتاكوس قبيل عصر الميلاد، ومثل الثورة **الفرنسية** أو الثورة الانجليزية، وقد صاغ المؤرخون الأوروبيون **من هذه** الظاهرة المصرية منظومة شائعة تقول إن المصريين ليسوا **من أنصار** التمرد والثورة، وراحوا يضعون لذلك مبررات وأسباباً **منها** الطبيعة الجغرافية التى جعلت من الشخصية المصرية **الهادئة** انعكاساً للسهل الأخضر المنبسط الخالى من الجبال **الوعرة**، ونسبوا إلى نهر النيل إنه السبب الأول فى قيام أول حكومة **مركزية** مستبدة للإشراف على ضبط النهر وتوزيع مياهه **بالعدل على** الزراع، ومن هنا كانت مصر منبع أول صورة من صور **الطغيان فى** العالم، وأن المصريين فى سبيل

الاستقرار السياسى تنازلوا عن حريتهم .. ويتناول العلامة جمال حمدان هذه المقولة بالتفنيد والتحليل فيقول : سواء صح أن النيل كان سبباً موضوعياً أو مجرد حجة مزجاة للطغيان الفرعوني، فلا شك من الناحية العملية أن مصر قد دفعت تاريخياً ثمناً فادحاً جداً من «الاجتماع» لحساب «السياسة»، ومن «المجتمع» لصالح «الحاكم»، ومن الحرية والديمقراطية والكرامة، من أجل هدف الوحدة السياسية المبكرة ومبدأ النظام والاستقرار السياسى .

من الناحية الأخرى يرى جمال حمدان إنه من غير الطبيعى بعد هذا كله - أن تخلق هذه الانحرافة الاستبدادية والاستعمارية بيئة اجتماعية تخلو من بعض السلبيات والشوائب المفروضة العارضة، فهى بيئة تفرض قدراً غير صحى من الانتخاب الاجتماعى ربما يصل إلى حد الانتخاب العكسى المعوج، ذلك لأن لكل نظام حاكم انتخابيته التى ينتقى بها أعوانه وعملاءه الذين يحشدهم حوله ويحكمهم تحته، وهم دائما وبالضرورة على شاكلته، ومن جنسه، ليس فقط خُلقياً، بل خلقياً، فعصر الرجل القوى أو الفرعونية الكبيرة مثلاً هو عصر التهريج والادعياء والمتجبرين عادة، وعصر الرجل الصغير أو الفرعونية الصغيرة هو عصر التفاهة والأوساط والمتكبرين غالباً. وفى جميع الحالات فإن هذه الانتخابية تشجع العناصر الرخوة الهلامية الهشة الانتهازية الوصولية واللافقريات أخلاقياً، وتشيع بذلك مناخ النفاق والتزلف والتملق وتنمى روح

الانحناء والخنوع والاستكانة، وبالتالى تتكاثر الأذناب والزواحف والمتسلقات والهوام والإمعات وسائر الكائنات الدنيئة الذيلية القميئة فى المجتمع، وعلى العكس، تحارب العناصر الصلبة الأبية المستعصية التى تتمسك بالكرامة والعزة، فتضار حتى تباد أو تنقرض وتتوارى بالتدريج فشلاً وانهزاماً .

وهكذا يصبح الفاشلون أخلاقياً هم الناجحين اجتماعياً، فى حين إن الناجحين أخلاقياً قد يجدون أنفسهم فاشلين اجتماعياً، وفى النتيجة تصبح الأمة وهى لا يحكمها خيرة أبنائها، بل ربما شر أبنائها أحياناً، وليس هذا يقيناً مما يثرى الشخصية القومية فى شئ بل هو يخربها على المدى الطويل ويدفعها على الأقل إلى السلبية والصمت والتوجس .

ويهمنا فى هذا المجال أن نرصد تأثير هذه التركيبة الاجتماعية السلبية على شخصية الفلاح المصرى أخلاقياً واجتماعياً، وهنا يستعير جمال حمدان من «فلير» ثلاثيته المشهورة عن الفلاح حين يطفح به اليأس من الحياة نفسها، واليأس من حياة «جيدة» .. فيكون متنفسه الوحيد هو الحياة «الجديدة» أى إنجاب الأبناء، ويضيف اليها حمدان «الحياة الأخرى» أى الدين، ذلك إن الفلاح يبحث عن التعويض عن الحياة «الأولى» فى الحياة «الأخرى»، فكأن الدين مهربه، مما يفسر شدة تدين الفلاح المصرى القديم، ومن ناحية أخرى كانت الحياة الجديدة (الإنجاب) تعويضاً عن الحياة

الجيدة، وهذا فى ذاته كان من عوامل ارتفاع الخصوبة البيولوجية وضغط السكان المزمن فى مصر، والمهم إن هذا الإفراط البيولوجي أدي إلى شدة انخفاض المنفعة الحدية للإنسان ورخصه وهوانه على الحكام مما زاد من فرص الطغيان والاستبداد. وقد كان الحكام يرحبون دائماً بهذا الإفراط البيولوجى والسكانى لأنه يزيد من قبضتهم وتسلطهم .

ويستخلص جمال حمدان من كل هذه المؤشرات : أن الشعب المصرى طالما قاوم المناخ الطغيانى بروح التحدى، وبروح السخرية المريرة المشهورة، حتى إن بعض الباحثين يعتبر النكتة السياسية هى الشكل الأساسى للمعارضة الحقيقية فى مصر الاستبدادية تقليدياً، وعلى الجملة، فلقد كان «الفلاح» بكل صفاته الموجبة والسالبة هو المفتاح النهائى لعملية الانتخاب الاجتماعى الطاحنة الطويلة هذه، حتى أصبح الفلاح المصرى عند بعض الباحثين المحدثين نمطاً فريداً .. فهو إنسان يخشى السلطة، ويدين لها بالطاعة، وهو يعشق الاستقرار ويكره العنف، ثم هو طويل البال لا يفكر فى الثورة ولا يسعى إليها، ولكنه يتمرد حينما تضيق به السبل ولا يبقى فى قوس صبره منزع .

لا غرابة إذن إن الفلاح كان وما يزال يتوجس من الحكومة، ويرهبها، ويستريب فى كل أعمالها .. وعلى أية حال فإن العلاقة الأزلية بين المصريين وحكامهم هى من الموضوعات التى شغلت بال الباحثين والمؤرخين .. وتحتاج إلى حديث طويل ..

دراويش سان سيمون
فى شارع محمد على

حين شرع محمد على فى تأسيس مصر الحديثة، حرص على أن تكون بمنأى عن أطماع الدول الأوروبية حتى يحفظ على استقلالها الوطنى، ولذا كف يده عن الاقتراض من البنوك الاجنبيه رغم حاجته الى المال لتنفيذ مشروعه الكبير، كما أعرض عن مشروع حفر قناة السويس حتى لا تتحول الى بوسفور آخر يضع مصر تحت رحمة الدول البحرية كما حدث للدولة العثمانية، وأدرك بفطنته أن مصر هدف لأطماع الرأسمالية الأوربية المتحفزة للسيطرة والاستعمار، وكانت أصداء الحملة الفرنسية لا تزال تتردد فى أنحاء مصر، وبعثت انجلترا حملة فريزر لاحتلال مصر بعد عامين فقط من جلوسه على عرش مصر، ولكن هذه الاحتياطات الوقائية لم تمنع محمد على من أن يمد ذراعه الى اوربا الثقافية يستمد منها الخبرة، فأوفد البعوث الى العواصم الأوروبية، واستقدم الخبراء والفنيين من كل صنف ليساعدوه على بناء مشروعه الحضارى، وصار هؤلاء

يتسابقون على الرحيل إلى مصر بعد أن تحولت إلى ورشة عمل هائلة.

فى ذلك الوقت، كانت فرنسا تموج فى حالة من الفوضى العقلية والخُلقية والشعور بخيبة الأمل أمام فشل الثورة الفرنسية فى تحقيق شعارات العدالة والحرية التى نادى بها فلاسفة الثورة، ولكنها تحولت على أيدى الطغمة الارهابية الى مصدر للتعاسة والشقاء، وفى خضم هذا الحشد الفكرى برزت فلسفة «سان سيمون» الذى بدأ حياته باحثا فى علوم الاجتماع وانتهى الى كونه أحد فلاسفة هذه العلوم حتى اعتبره بعض الباحثين المنشئ الحقيقى لعلم الاجتماع الحديث. ويكفى لتقدير مكانته أن العالم المرموق – أوجست كانت – كان سكرتيرا له ومشاركا له فى أبحاثه العلمية .

نشأ «سان سيمون» منذ طفولته متمردا على تعاليم الكنيسة الكاثوليكية، ثائرا على الظلم الاجتماعى الذى تفشى بعد سقوط الثورة فى أحابيل الدكتاتورية، فعكف على دراسة العلوم البحته كالرياضة والهندسة والفلك والطبيعة والكيمياء، وتوقف مبهورا أمام إنجازات العلامة الانجليزى «نيوتن» فاتخذ منه نبيا لدين جديد هو دين العلم، أو دين نيوتن، ودعا الى نبذ العقائد والأخلاق الكاثوليكية لتحل محلها عبادة العلم، ودعا الى قيام مجتمع جديد تكون السلطة العليا فيه للعلماء والفنانين ورجال الصناعة، والصناعة عنده لا تعنى

الميكنة واستخدام الآلة، وانما تعنى العمل المنتج فى كافة صوره، فالعمل اليدوى صناعة، والعمل الادارى والتنفيذى صناعة، والعمل التجارى والرعى صناعة سواء بسواء، ومالك الأرض أو العقار وصاحب رأس المال يعد صانعا اذا قام بادارة أعماله، ودعا الى استخدام الموسيقى كوسيلة من وسائل التثقيف الخلقى والصناعى، وطلب من الشاعر «روجية دى ليل» مؤلف نشيد سيليز أن يؤلف (لحن الصُّنّاع) ليتغنى به العمال أثناء العمل، ورأى انه من الضرورى إعداد جيل من العلماء الذين سوف يتولون تقاليد الأمور فى المجتمع. وأخذ يشجع الشباب المثقف لارتياد بيته فتكونت منهم الجماعة الأولى لرواد الحركة الفكرية فى القرن التاسع عشر. وبعضهم حمل لواء السان سيمونية الى مصر .

وظل سان سيمون مبتعدا من الانغماس فى السياسة العامة، وكانت ثقته كبيرة فى مقدرة وكفاءة نابليون بونابرت، وكان يتوقع منه إنهاء الفوضى التى خلفتها الثورة، ولكنه انقلب على بونابرت بعد أن كشف الأخير عن وجهه الدكتاتورى وانحرف عن مبادئ الحرية. وصار من ألدّ خصومه، وتعرض سان سيمون الى مطاردة أجهزة الأمن حتى فقد مصادر الرزق وهبط إلى حافة الجوع، وغلب عليه اليأس، فأطلق على رأسه رصاصة قاصدا الانتحار، ولكن الرصاصة انحرفت وذهبت بعينه اليسرى، وعاد سان سيمون الى أبحاثه ودراساته الفلسفية طوال السنوات الخمس الأخيرة من

حياته، وانتهى إلى البحث عن وسيلة للنهوض بالإنسانية الى أسمى درجات الكمال عن طريق وحدة المعرفة الانسانية، وقيام حكومة موحدة لادارة شئون الانسانية تستند الى هيئة من العلماء والفنانين المنتخبين الذين يؤجرون عن طريق الاكتتاب العالمى ويطلق عليها اسم «مجلس نيوتن»، وفى زعمه «أن الله قد أوجد نيوتن بجانبه وأسند إليه إدارة شئون البرية» واستغرق فى تأملاته وشطحاته حتى خيل اليه أن الله يحدثه ويوحى إليه بفكرة الديانة الجديدة فيقول له : إن مجلس نيوتن سوف يمثلنى على الأرض، فيقسّم الانسانية الى أربعة أقسام يطلق عليها : انجليزية وفرنسية وإيطالية وألمانية، وسيكون لكل قسم من هذه الاقسام الأربعة مجلس يتكون على غرار المجلس الرئيسى، وسوف يرتبط كل فرد فى العالم مهما كان موطنه بأحد هذه الأقسام وبالمجلس الرئيسى بمجلس القسم الذى يتبعه. ويرى بعض الباحثين أن هذه الفكرة هى البذرة الأولى لانشاء منظمة دولية تمثلت بعد ذلك فى عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى وهيئة الأمم المتحدة بعد الحرب الثانية ومن فكرة الحكومة العالمية انطلق سان سيمون الى المجتمع العالمى المثالى الذى يقوم على التعاون والإخاء والاستقرار بدلا من السيطرة والتسلط، وأن ترتبط قارات العالم عن طريق القنوات المائية، ومنها قناة السويس، وإذا كان سان سيمون لم يشهد تحقيق هذا الحلم، إلا أن أتباعه جعلوا من مشروع قناة السويس الهدف الأسمى لنشاطهم، وشدوا الرحال الى مصر لتنفيذ الفكرة التى اعتنقوها عن

إيمان يثير الدهشة. وكان الأب «بارتلمى بروسبر أنفانتان» أكبر هؤلاء المريدين، وهو الذى قاد الحركة الفكرية السان سيمونية بعد وفاة مؤسسها عام ١٨٢٥، وتعرض لمحن قاسيه نتيجة إخلاصه وتحمسه فى تنفيذ مبادئ أستاذه أو «رسول الانسانيه» كما كان يسميه. وسيطرت على عقله فكرة الذهاب الى مصر باعتبارها أرض المستقبل مثلما كانت مهد الحضارة فى الزمان الغابر. وخلال الفترة التى قضاها «أنفانتان» فى سجن (سان بلاجى) فى باريس تولدت فى ذهنه فكرة الرحيل إلى مصر، وكان يستيقظ من نومه هاتفاً: الشرق .. تلك الكلمة الساحرة المليئة بالضياء والغموض .. الشرق الغامض غموض الصحراء .. الشرق معناه مصر .. مصر الساحرة أرض فرعون وموسى .. أرض النيل .. وما أدراك ما هى مصر !

وفى اليوم الذى غادر فيه «أنفانتان» السجن كتب مخاطبا مصر: «غادرت سجنى فى الغرب وسأضع نفسى فى خدمتك». والتف حوله خلق كثير من الذين آمنوا بأفكار سان سيمون الذين يتميزون بارتداء السراويل البيضاء .. والقمصان الحمر .. ويطوفون الشوارع لدعوة زملائهم للسفر الى مصر ليضعوا فنهم وخبرتهم تحت إمرة حاكمها محمد على، مدفوعين بحافز إنسانى هو وصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر ويجعلون من هذا الاتصال وسيلة للتقارب الثقافى والاخلاقى والاقتصادى، بين الشعوب، وتحويل مصر من بلد زراعى الى بلد يعتمد على الصناعة ومنتجاتها لتحقيق

فكرتهم عن التصنيع، واستغلال الانسان للطبيعة، بدلا من استغلاله لأخيه الانسان. كما كانوا يحملون فى عقولهم أفكارا اجتماعية تسعى الى تغيير نظرة الشرق المحافظ الى المرأة بإتاحة الفرصة أمام الفتاة للتعليم والتثقيف، وإقامة دعائم التربية الاجتماعية التى تعمل على توافر العداله والمساواة إلى أبعد حد.

معاونة محمد على

رحلت الدفعة الأولى من أتباع سان سيمون الى الاسكندرية فى شهر سبتمبر ١٨٣٣ وعلى رأسها الأب «أنفانتان» على ظهر سفينة ترفع على ساريتها علم مدرسة «سان سيمون» وتضم عددا من الخبراء والمتخصصين فى كافة العلوم، ولدى وصول السفينة إلى ميناء الاسكندرية أعلن «أنفانتان» نعم إننى جئت الى مصر لأقوم بتوصل البحرين بعضها ببعض .. وتدعيم اتجاه عزيز مصر - محمد على - الدكتاتورى فى إلغاء الملكية الوراثية فى الأرض الزراعية. ونأمل أن يتم هذا الاتجاه عن طريق الاستغلال المثمر لموارد البلاد عن طريق كشف المناجم وإنشاء مدرسة للهندسة وإقامة زراعات جديدة وتحسين وسائل الرى والصرف فى مصر. وعلى الفور أسند أنفانتان الى المهندس «فورنل» إعداد مشروع حفر قناة تصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر. ثم رحل الى القاهرة حيث حل ضيفاً على صديقه القديم الكولونيل «سيف» الذى صار سليمان باشا الفرنساوى. وبدأ فى البحث عن وسيلة لمقابلة محمد على باشا

عن طريق «فردنان دلسبس» نائب قنصل فرنسا العام فى مصر، وتمت المقابلة وفى أثناء عرض مشروع القناة، لم يحز القبول من محمد على الذى كان مشغولا فى تلك الأيام بفكرة إقامة القناطر الخيرية على النيل، ولأن مشروع القناة يتطلب الحصول على قروض من البنوك الأجنبية، وهو المبدأ الذى كان يأباه محمد على بشدة، ولكن .. تحت إلحاح أنفانتان وفوّرنل طلب محمد على عرض المشروع على المجلس الأعلى – وهو بمثابة الوزارة – ولكن المجلس رفض المشروع وفضّل المضى فى إقامة القناطر الخيرية. وظهر كأن أحلام أتباع سان سيمون قد تبددت، ولكنهم لم ييأسوا، واستمروا فى البقاء فى مصر لتنفيذ أفكارهم الإصلاحية فى مجال الزراعة والصناعة والحرف والمجال الاجتماعى.

هنا تبدأ حلقة مجهولة فى تاريخ المشروع الحضارى الذى تبناه محمد على، وأعنى به الدور الذى قام به أتباع سان سيمون خلال إقامتهم فى مصر ووجدوا فيها تربة لبث أفكارهم الإصلاحية. ولم تحظ هذه الصفحة بعناية المؤرخين الذين أرخوا لمحمد على والمؤثرات الأوروبية فى حركة النهضة التى قادها، ولم نجد فيما كتبه «الرافعى» عن عصر محمد على أية إشارة الى أتباع سان سيمون رغم أنه أشار الى أسماء بعضهم عرضا عند حديثه يذكر انتماءاتهم الفكرية الى أن عثرت على كتاب عالم الاجتماع المصرى الدكتور محمد طلعت عيسى الذى يحمل عنوان (أتباع سان سيمون

وفلسفته الاجتماعية وتطبيقها فى مصر). وهو فى الأصل رسالة الدكتوراه التى تقدم بها إلى جامعة القاهرة عام ١٩٥٧ واستخلص فيها السمات الجوهرية لفلسفة سان سيمون الاجتماعية، وأسباب الفشل فى تطبيق مذهبه فى فرنسا، والدوافع التى جعلت أتباعه ينطلقون نحو مصر لتنفيذ أحلامهم المثالية وفى مقدمتها حفر قناة السويس .

ولقد تضمنت أبحاث الدكتور طلعت عيسى معلومات غاية فى الأهمية استقاها من الوثائق السرية التى ظلت مطوية فى أرشيف وزارة الحربية الفرنسية زهاء قرن وربع قرن، وهى وثائق تلقى الضوء على حلقة مفقودة فى تاريخ المدرسة السان سيمونية، والدور الذى قاموا به لتطبيق فلسفتهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية. كما أنها تكشف النقاب عن أصل المشروع الذى تقدم «دلسبس» إلى محمد على أولا ثم إلى سعيد باشا ثانيا لحفر قناة السويس. وعلاقة هذا المشروع بالتقرير الذى أعده أتباع سان سيمون اثناء إقامتهم فى مصر. وبالمقارنه بين المعلومات التى ذكرها «الرافعى» والمعلومات التى توصل اليها طلعت عيسى يتبين أن «دلسبس» حصل على نص المشروع الأول، ولكنه نسبه إلى نفسه، وتنكر لأصحابه الأصليين فى عملية من عمليات النصب التى اشتهر بها «دلسبس»

.. فى سرده للمراحل التى مرت بها فكرة شق القناة، يقول الرافعى أن بونابرت فكر فى وصل البحرين، وعهد بدراسة المشروع الى مسيو «لوبير» كبير المهندسين فقضى عامين فى دراسة المشروع وفحصه وعاونه بعض مهندسى الحملة الفرنسية، وقدم تقريره الى بونابرت بعد مفارقته مصر فى ٣٠٠ صفحة واعتقد خطأ أن البحر الأحمر يعلو عن البحر الأبيض بنحو تسعة أمتار.
وبعد مرور نحو ثلاثين عاما على هذا التقرير جاء ديليسبس الى مصر لأول مرة عام ١٨٣١ فى منصب نائب القنصل الفرنسى، ووجد العطف من ناحية محمد على نظرا لما كان بينه وبين والد ديليسبس من مودة قديمة حين كان قنصلا فى مصر عام ١٨٠٣ وفجأة يقفز «الرافعى» على الاحداث فيقول أن تقدير «لوبير» وقع فى يد دلسبس فى الاسكندرية فأكب على دراسته دراسة عميقة، ولم يلبث أن اتجهت نفسه إلى تحقيق مشروع وصل البحرين بقناة بحرية، ثم انتقل بحكم منصبه الى بلاد أخرى ولكنه لم ينس المشروع، وفى سنة ١٨٤٦ تألفت لجنة فنية من بعض المهندسين من مختلف الأمم لدراسة المشروع وجاء أعضاؤها الى مصر فى أواخر عصر محمد على واستمروا الى عهد عباس الأول، وعاونتهم الحكومة فى إجراء تلك الأبحاث، وعهدت بتخطيط المواقع الى بعض كبار المهندسين مثل مسيو «لينان» باشا (وهو فرنسى) فضلا عن

ثلاثة من المصـريين، وانتـهت اللجنة إلى أن فـرق المسـتـوى بين البحرين ليس خطيرا، واقترحت شق ترعة بين البحرين تجتاز الدلتا، ولكن محمد على كان منذ البداية معرضا عن مشروع القناة، فلم يسـتـجب لدعـوة المهندسين والماليين الأوربيين، فكان يردهم بلطف، ويعدهم ويمنيهم ولكنه كان يضمر رفض المشروع حتى انتهى حكمه.

والباحث فى رواية «الرافعى» يكتشف العديد من الثغرات :

أولا : كيف وقع تقرير «لوبير» الذى سلمه إلى بونابرت فى باريس ؟ فى يد دلسبس فى الأسكندرية بعد ثلاثين عاما من رحيل الحملة الفرنسية ؟

ثانيـاً : من هم المهندسون الدوليون الذين تشكلت منهم لجنة فنية عام ١٨٤٦ - أى فى أواخر عهد محمد على - ومن الذى كلفهم بهذه الدراسة وما هو دور دلسبس فى هذه اللجنة ؟

ثالثـا : ما هى الصفة التى ساهم بها «لينان» باشا فى إعداد المشروع وهل كان دلسبس على صلة بهذه اللجنة رغم ابتعاده عن مصر ؟

كل هذه الثغرات تشكل علامات استفهام كبيرة حول مشروع حفر قناة السويس. والدور الذى قام به أتباع سان سيمون فى إعداد المشروع قبل أن (يلهفه) منهم دلسبس ويتقدم به إلى صديقه

الوالى سعيد باشا. والدراسة التى قام بها الدكتور طلعت عيسى تكشف هذه الحلقة المفقودة عن دور أتباع سان سيمون فى مصر.
لقد رفض محمد على المشروع الذى عرضوه عليه فكانت صدمة شديدة الوقع عليهم. وانهارت آمال «فورنل» فى تحقيق فكرة الانسانية العالمية التى كان ينشدها من وراء رحلته الى مصر. فصمم على الرحيل إلى بلاده. وظل «انفانتان» فى مصر يصارع من أجل مشروعه، وكتب الى زميليه «هوار» و «يرينو» يحثها على الاسراع بالحضور الى مصر، وأن لا يأخذا من عودة «فورنل» دليلا على فشل مهمتهم. وطلب منهما أن يصحبا معهم نفرا من المهندسين والعمال المهرة والاخصائيين فى الأعمال المائية، وكتب الى زملائه «هولستين» و «أوليفيه» و «أوربان» الذين استقراوا فى مدينه السويس ينبئهم بقرار رحيل «فورنل» ويطمئنهم على وحدة صفوفهم، وبذل «انفانتان» الكثير من الجهد والصبر فى سبيل تحقيق وحدة الصف وتشجيع الأتباع على مواصلة العمل من أجل إقامة مشروع القناطر الخيرية، وأخذ يضفى على المشروع كل مظاهر الجمال والتضحية، وعمل جاهدا على إقناع الأتباع بأنه السبيل الوحيد إلى تحقيق فلسفتهم الاجتماعية، بعد أن تبخر مشروع حفر القناة، ويقول : إنه لا توجد أية أمة يمكنها أن تنشئ اليوم عملا سليماً بمثل هذه العظمة، ولنعرف أن قيام هذه القناطر هو تثبيت لدعائم العلم، ونصر أكيد للاتجاه الصناعى، واذا كان هذا العمل يتصف بطابع الأنانية القومية، إلا أنه يجب أن نغتبط

لنجاحنا فيه، فبعد فيضان النيل سوف يكون تحت إمرتى جيشاً قـوامـه أربعين ألف رجل. ويلاحظ الدكـتـور طلعت عـيـسى أن «أنفانتان» كان يبالغ كثيرا فى تقديراته، فهو لم يكن المدير الفعلى لمشروع القناطر، ولكن «لينان» باشا الذى كان ضابطا سابقا فى البحرية الفرنسية هو الذى كان يتولى تنفيذ المشروع. والجدير بالذكر إن «لينان» هذا يتصدر قائمة أتباع سان سيمون الذين جاءوا الى مصر وعددهم خمسة وخمسون رجلا وفى أثناء ذلك عاد «بارو» الى مصر، ولحق برفاقه فى العمل فى مشروع القناطر، واتجه كل فرد من الأتباع الى العمل الذى يناسب استعداده، فانهمك «آلريك» فى نحت تمثال لمحمد على، وآخر لابنه ابراهيم الذى اختار «آلريك» فيما بعد ليكون مدرسا للرسم فى مدرسة الجيزة، والتحق «أوربان» و «جرانال» بمدرسة الفنون الجميلة التى أنشئت فى مصر لأول مرة، وصار «فيرينو» قائدا فى حرس محمد على باشا، «ولامبير» مديرا لمدرسة المدفعية بطرة، و «لينان» كبيرا لمهندسى مصلحة الطرق والكبارى، أما «أوربان» فقد اعتنق الاسلام وتسمى باسم إسماعيل وعمل مدرسا للهندسة فى مدرسة بولاق العسكرية، وتولى «برون» إدارة مدرسة الطب، كما لحق بالأتباع فريق من النساء، ومنهن «سوزان فولكان» التى سجلت ذكرياتها فى مصر تحت عنوان (يوميات سيدة سان سيمونية فى مصر) ويعتبر كتابها مرجعا حقيقيا لنشاط أتباع سان سيمون .

بهذا بعث الحياة من جديد فى الجماعة بعد التفكك والإخفاق. واهتموا بمشروعات حضارية منها إنشاء مدرسة للمهندسين بالقناطر، ومدرسة البيادة فى دمياط، ومدرسة للفرسان بالجيزة، وإقامة مزرعة نموذجية في شبرا، ومدرسة البنات بالجيزة رغم معارضة محمد على فى أول الامر، ولكن مع تعثر مشروع القناطر لأسباب فنية، دب اليأس من جديد فى أفراد المدرسة السان سيمونية، وزاد فى تعقيد الأمور انتشار وباء الطاعون فى الاسكندرية، وتصاعدت متاعب رئيس الفريق «أنفانتان» بسبب احتجاج أسرته على تركه لهم، فكتب يقول لصديق : «إنهم لم يفهمونا على الاطلاق. لقد أعمتهم آلامهم الذاتية عن آلام الانسانية عامة، انهم لم يفهموا ان الله قد أرسلنى لانقاذ البشرية كما فعل من قبل عيسى ومحمد وسائر الأنبياء» وفى وسط هذه الدوامة نزل نبأ جديد كان له وقع الصاعقة على أنفانتان ورفاقه، هو تأجيل تنفيذ مشروع القناطر الخيرية. فكان الصدمة الثانية بعد رفض مشروع قناة السويس.

وكتب لامبير: «لقد ماتت الأسرة وتساقط الوحل والتحقير فوق رأس الأب «أنفانتان» وتخلى عنه الكثير من الأتباع. عاد معظمهم إلى فرنسا، بينما ظل نفر منهم يواصلون رسالة المدرسة فى مصر، وفضلوا الحرمان المادى والمعنوى على العودة الى وطنهم خافضى الرؤوس، وصمموا على حمل الرسالة التى جاءوا من اجلها مهما كانت التضحيات .

وفى يوم ٢٤ فبراير ١٨٤٨ عاد «أنفانتان» الى باريس وقد تملّكه شعور عميق بالألم لعدم تمكن المدرسة السان سيمونيه من تحقيق أهدافها السياسية والدينية، ومع ذلك ظلت فكرة الانسانية العالمية تملك عليه شغاف قلبه، ولم يفقد إيمانه بضرورة شق قناة السويس، وتلقى من فشله الأول درسا فى ضرورة تعديل وسائله لتحقيق هدفه، وتبين له خطأ أن يعمل الأتباع منفردين، ولابد لهم من الاستعانة بقوى عالمية وممولين ودبلوماسيين. وفى ٢٧ نوفمبر ١٨٤٦ تكونت جمعية مهمتها دراسة مشروع قناة السويس وضمت الجمعية خبراء من الألمان والانجليز والنمساويين. وكان يمثل فرنسا فى هذه الجمعية «انفانتان» وجعل من بيته مقرا للجمعية على أن تنعقد فى يوم الاثنين الأول من كل شهر .

وفى الاجتماع الأول للجمعية خطب أنفانتان فقال : إننا نشعر بأهمية إعدادنا لهذا المشروع الذى يعتبر أكبر عمل صناعى قامت به الانسانية، ومن واجبنا أن ننفذه بعيدا عن أى صراع قومى، بالمعاونة القلبية لثلاثة شعوب كبيرة كانت السياسة تفرق دائما بين أهدافها. يجب أن نسجل أمام العالم حبنا للسلام ورغبتنا فى تحقيق همزة الوصل بين طرفى العالم القديم، الشرق والغرب.

وكتب «أنفانتان» الى زميلة «تالابو» فى مصر لكى يرسل إليه خطة عملية للمشروع يمكن على أساسها تحويل الجمعية الخاصة

الى مشروع سياسى يوضع موضع التنفيذ. ودخل المشروع مرحلته الحاسمة عندما التقى «أنفانتان» بدبلوماسى فرنسى شاب تعرف عليه فى مصر هو : «فردينان دلسبس» الذى بذل من معونته الرسمية والشخصية ما يسر لأتباع سان سيمون مهمتهم فى مصر، وخاصة الاتصال بمحمد على .

يقول الدكتور محمد طلعت عيسى : وجد أنفانتان فى دلسبس الوسيلة العملية لتحقيق أمنيته لما بينه وبين سعيد باشا من صداقة وطيدة، فقام «أنفانتان» بتسليم دلسبس فى صيف ١٨٤٥ كافة المستندات الضرورية اللازمة لاقناعه بأهمية المشروع. وفى إحدى مذكرات أنفانتان المحفوظة بمخطوطات مكتبة الترسانة بباريس نجد هذه العبارة بخط الأب «أنفانتان» :

«لقد تسلم السيد دى ليسبس من السادة «أزليه» و «أنفانتان» كافة المعلومات والمستندات التى يملكانها من هذه المسألة، فقد جاء الى ليون ليتفق معهم قبل رحيله، وأعطى خطابا للتعارف بالسيد «تالابو» الذى قام بزيارته أيضا فى مارسيليا قبل إبحاره»

وفى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٤٥ كتب «دلسبس» من مصر الى «تالابو» قائلا : كل ما يمكن عمله هنا يسير فى طريقه المطلوب. مهمتكم هى أن تهيئوا الرزى العام فى انجلترا. وفى نفس الوقت كتب إلى «ارليه» : يبدو لى سوف تصبح الرئيس الطبيعى للمجلس التنظيمى المنتظر لشركتنا .

وتمر تسع سنوات يموت خلالها محمد على ووريثه عباس الأول، ويتصدر أريكة مصر سعيد باشا، وينجح «دلسبس» بأساليبه الشيطانيه فى أن ينتزع من والى مصر فى ٥ نوفمبر ١٨٥٤ فرمان يخوّله شق قناة السويس. فكيف حدث هذا التحول المفاجئ، وكيف صار المشروع لقمة سائغة فى فم دلسبس الذى تنكر نهائيا لرفاق الأمس الذين أعدوا المشروع ؟

فى ذلك يقول الدكتور محمد طلعت عيسى : وإن كان التاريخ يطوى ركنا هاما من أركان هذه المرحله معتمدا على تأكيد «دلسبس» بعدم اتصاله بأتباع سان سيمون، وبأن المشروع إنما جاء من وحى المصادفة عند زيارته مع سعيد باشا لمنطقة صحراء السويس، وقبول سعيد فورا للمشروع، فان المستندات والرسائل المتبادلة بين «دلسبس» وأتباع سان سيمون، ومذكرات «أنفانتان» الشخصية تؤكد وجود هذا الارتباط. اذ نتبين من مذكرات الأب أنفانتان أن (جمعية دراسة مشروع السويس) رحبت ترحيبا كبيرا بنجاح دلسبس وعقدت الجمعية اجتماعا عاجلا لإعداد مشروع تحويلها الى (شركه عالمية) ووقع الاختيار على «دلسبس» ليكون مديرا عاما للشركة، وكتب إليه لأخذ موافقته، ولكن حدث التحول الفجائى في مسلك الدبلوماسى الشاب، وتنكر لأتباع سان سيمون، وبلغ به التحدى أنه رفض إشراك أى أحد من أتباع سان سيمون فى العقد التأسيسى للمشروع، وحاول الأتباع عبثا أن يلجأوا الى

الباب العالى فى القسطنطينية، لأن «دلسبس» كان يعتمد على سند أقوى منهم وهو بلاط الامبراطور نابليون الثالث.

عزاء وسلوان

وفى ختام حياته كتب الاب «أنفانتان» ينعى جهاده طوال عشر سنوات من أجل شق قناة السويس ويقول : فى عام ١٨٣٣ مات إثنا عشر من أبنائى بالطاعون فى بطن الحجر، ورفاتهم التى غطتها القناطر التى كانوا يقومون بانشائها، حملتها مياه النيل نحو هذا البحر الذى نريد أن نستخدمه كوسيلة لربط الانسانية العظيمة عبر القارات. لقد كنت آمل ان تكون قناة السويس عملا من أعمال مدرسة سان سيمون، وأن يتوج باسمنا، وأحسب ان كل أتباعنا الأحياء سوف يجدون فيه العزاء الوحيد للتضحيات التى بذلوها فى سبيل إيمانهم برسالتهم، كما يعز على أن يتحول دورنا الى مجرد متفرجين .

ويختتم الدكتور طلعت عيسى بحثه القيّم بهذه العبارات المؤثرة : مهما كانت النتائج السياسيه لشق قناة السويس، ومهما حاول دلسبس أن يستقل ببطولة هذا العمل، فأن إغفال أتباع سان سيمون فى المشاركة فى تنفيذ هذا المشروع، أفقده ركنا أساسيا من الأركان الاجتماعية للفلسفة السان سيمونية وهو «ان الأخلاق يجب أن تقوم على العمل» وأن الإنسان يجب أن لا يستغل أخاه الانسان. بل يجب أن تتوحد الجهود لاستغلال الطبيعة نفسها

لصالح الانسان، لقد جاء مشروع دلسبس صورة سوداء فى تاريخ الانسانية، وتاريخ فرنسا بصفة خاصة، فإن أعمال السخرة والتعذيب التى لازمت شق القناة بعرق ودماء آلاف المصريين، لا تتفق بحال مع فكرة الانسانية العالمية، ولا مع مبادئ سان سيمون، ولا يمكننا أن تعتبر أتباع سان سيمون مسئولين عن التطور المفاجئ الذى لحق بمشروعهم، أو عن التيارات السياسية الاستعمارية التى أحاطت به، وجعلت منه مسرحا للكسب الاستعمارى، واستغلال الانسان لأخيه الانسان دون أى اعتبار لفكرة الانسانية العالمية التى جاهد أتباع سان سيمون حوالى ربع قرن من الزمان فى سبيل تحقيقها ومن العدل أن نشير الى الدور الذى لعبه «أنفانتان»، والأفكار النبيلة التى أوحت إليه به، ووجهة نظره السامية، وفوق كل ذلك، تلك الروح التى أظهرها بعد أن أغفل تماما هو وأبناء المدرسة السان سيمونية من أى إشارة الى جهودهم فى المشروع .

أدب السلوك الملكى

الخط البيانى لتاريخ مصر الفرعونى لا يسير فى اتجاه مستقيم، ولكنه حلزونى يتراوح بين الصعود والهبوط، والقوة والضعف، والازدهار والانحدار، ويمكن ان تراه فى شكل دورات متتابعة، فدورة تبلغ فيها مصر ذروة المجد والعظمة والجلال، تعقبها دورة ضعف وانحلال وذبول، وقد استهلت مصر تاريخها المكتوب بحلقة من حلقات القوة والاقتدار والتقدم الحضارى، وهو العصر الذى تحققت فيه وحدة القطرين – الدلتا والصعيد – لأول مرة، ونشأت فيها أول حكومة مركزية تتمتع بسلطات مطلقة على رأسها الفرعون – الإله الذى قدسه المصريون وأقاموا له الأهرامات التى تليق بمقامه ليستأنف فيها حياة الأبدية بنفس الفخامة التى كان يعيشها فى العالم الدنيوى - ونجحت مصر فى تأمين حدودها ضد الطامعين فى خيراتها ونيلها العذب، ولكن مع نهاية الاسرة السادسة عام ٢١٨٠ قبل الميلاد، أخذ الضعف يتسلل الى نظام الحكم، ودخلت مصر دورة الاضمحلال التى يعدها المؤرخون أظلم العصور فى

تاريخ مصر القديم، وتتابع عليها ملوك ضعاف بلغ عددهم فى عهد الأسرة السابعة، سبعين ملكا خلال فترة لا تزيد على سبعين يوما، أى بمعدل يوم واحد لكل ملك (!!) وبصرف النظر عن هذه المبالغة إلا أنها تكشف عن عمق النكبة التى حلت بالبلاد .

فى ذلك العهد فقدت مصر وحدتها واستقل حكام الاقاليم بولاياتهم، وقد تركت هذه الفوضى آثارا قوية فى أفكار المصريين وعقائدهم تنطق بها الآثار الأدبية والدينية، ترسم في صورة حزينة ما ساد البلاد من فوضى، وتصف فى عبارات قوية ما أصاب المجتمع من نكبات حتى أنها لتعد أروع ما خلفته مصر من أدب رفيع رغم انحطاط المؤسسات السياسية، وظاهرة التناقض بين الرقى الأدبى والانحطاط السياسى من الظواهر المتكررة فى مسيرة التاريخ، فالتفسخ الذى أصاب الدولة العباسية وسقوط هيبة الخلافة لم يمنع من ظهور أدب قوى وفن راق فى الولايات التى استقلت عن دولة الخلافة، وربما نجد تفسيرا لهذه الظاهرة فى دراسات علم الاجتماع. فعندما تشد وطأة الألم النفسى على الناس لا يجدون سوى التعبير عن حالة اليأس والضياع عن طريق الإبداع الأدبى والفنى، وهذا ما حدث في مصر فى غضون النكبة الاجتماعية التى صاحبت سقوط الدولة القديمة، وتركت لنا هذه النكبة وثائق أدبية لا تزال موضع دهشة وإعجاب مفكرى الغرب، وهى تتميز بأنها لا تمت بصلة إلى الأساطير والأناشيد الدينية، وانما هى وليدة العصر الذى

ظهرت فيه، تنبض بأحداثه، وتنطق عن أحاسيسه وتصوراته، ولا تزال هذه الوثائق الأدبية الرائعة محفوظة في شكل برديات أو نقوش حجرية فى المتاحف الأوروبية والأمريكية. ومن أهمها :

* نصائح الحكيم (إيبور – ور).

* شكاوى الفلاح الفصيح .

* تعاليم إلى (مرى – كا – رع) .

* حديث الشخص الملول – أو اليائس – مع روحه وهو يعتزم الانتحار .

* أغنية عازف العود .

وكل هذه الآثار الأدبية صورة وصفية دقيقة لاضطراب المجتمع، وشيوع الفوضى فيه، وانهيار القيم التى كانت تعتمد عليها الحياة فى الدولة القديمة، ويجمع بينها جميعا الحزن والأسى على الهوة التى تردت فيها البلاد، ولكنها تختلف فيما يصف كل منها من علاج، فمنها ما يبلغ التشاؤم بصاحبه أن يبتغى الخلاص من مآسى الحياة بالانتحار، ومنها ما يتشكك صاحبه فى القيم الخلقية وفى الحياة الأخرى فيؤثر العاجلة على الآجلة، وكلا الرجلين لا تستقيم له الحياة الفاضلة الرشيدة، فأحدهما جازع يائس، والآخر جاحد ناقم .

حكيم إهناسيا :

لقد انحلت أواصر الوحدة الوطنية والسياسية، وعادت مصر ثانية سيرتها الأولى، وصارت مقاطعات محلية مستقلة، ومع ذلك تركت هذه الفترة أثرا بالغا فى عقول رجال الفكر، إذ صار فى مقدورهم لأول مرة عند نهاية الدولة القديمة أن يرجعوا بأبصارهم الى ذلك الماضى القديم، والتأمل فى ذلك المنهج الطويل من تطور النظام البشرى، وقد تبين لهم كيف أن هذا الموكب العظيم الممثل لأقدم حياة بشرية منظمة فى التاريخ، قد نقلوا تدريجيا آلهة الطبيعة القدامى إلى مملكة الشئون الاجتماعية، وسنرى كيف كان للتجارب الاجتماعية النامية تأثير على أفكار هؤلاء الحكماء بشأن الانسان والسلوك البشرى، وعن الإله وكيف كانت الإبداعات الأدبية صدى لحالة الفوضى التى مزقت أوصال البلاد شر ممزق، ففى خلال حالة الصراعات الاقليمية بين حكام المقاطعات المصرية، ظهر عميد أسرة من حكام المقاطعات كان يقطن (أهناسيا) التى كانت تقع جنوبى العاصمة القديمة (منف) واستولى على السلطة وأقام نفسه فرعونا على البلاد، غير أن هذه الاسرة الإهناسية لم تصمد طويلا، فقد انفصل عنها النصف الجنوبى من الصعيد، وكذلك أعلن شمال مصر استقلاله، وقد ترك هذا الانهيار أثرا قويا فى عقول المعاصرين، وأقلع رجال الفكر عن التفكير فى الأبهة الكاذبة المظهرية، وتحولوا إلى التأمل العميق فى القيم الباطنة، كما نلمس

ذلك بوضوح فى الوثيقة التى تحمل عنون (تعاليم إلى مرى - كا - رع) وهى تدل أكثر من غيرها على التغيرات التى طرأت على مفهوم الملكية، فلم يعد الملك إلها معبودا، وإنما صار إنسانا يعترف بخطئه، ويقر بمسئوليته أمام الآلهة، ويرى أن مهمته فى الحياة هى إسعاد شعبه .

وسواء كانت هذه التعاليم قد وضعت على لسان ملك هو (خيتى الثالث) كما يقول بعض المؤرخين، أم كانت وصية ملك لابنه، حسبما يدل عليه طابعها الشخصى، فليس من شك فى انها تحمل مفاهيم جديدة لواجبات الملكية، فالملك هنا ينصح ولى عهده بأن يكون لبقاً فى الحديث لأن قوة الرجل فى لسانه ثم يحذره من الغضب، ويوصيه بأن يخلد ذكراه بحب الناس له، وألا يعاقب أحدا بظلم، لأن قضاة محكمة الحساب لا يرحمون فى ذلك اليوم الذى يحاكمون فيه الظالمين، وما ينبغى أن يغتر ظالم باستطالة عمره، فانهم - أى القضاة - ينظرون فيما اقترف فى حياته مهما طالت وكأنها ساعة زمن، ويذكره بأن الإنسان يبقى بعد الموت وأن أعماله تتبعه، وأن من يصل إلى الأبدية بغير ذنب يغدو كأنه إله، ويخطو بحرية كآلهة الأبدية، ويوصيه بألا يحابى ابن شريف على حساب رجل عادى، ولكن عليه أن ينظر إلى الرجل من حيث أعماله وحدها، وأخيرا يذكره بأن البشر أنما هم قطيع الإله الذى أنشأ السماء والأرض كما يشتهون، وأنهم صور منه، نشأوا من أعضائه وأنه خلق النبات

والحيوان والطير والأسماك ليطعمهم، وخلق النور وفق ما يشتهون، وأقام لهم الحاكم الشرعى سندا يعتمد عليه ظهر الضعيف .

أدب السلوك الملكى :

ويرى العلامة «بريستد» ان هذه الوثيقة الهامة المحفوظة الآن بمتحف «لينتجراد» والتى تحمل اسم (تعاليم الى مرى - كا - رع) هى من تأليف أحد ملوك (أهناسيا) وكان حكيما ذا عقل مفكر راجح. ومما يؤسف عليه أن اسم ذلك الملك مجهول لنا الآن، ولكنه لما قارب حكمه النهاية كتب رسالة فى أدب السلوك الملكى إلى ابنه بعد أن صب فيها خلاصة تجربته الطويلة، ولذلك يطلب من ابنه أن يقتدى بآبائه وأجداده، وبذلك يصير «صاحب الصناعة على علم بها» .. ومن تجاربه أن القلم أشد بأسا من السيف، وهو نفس ما عبر عنه الشاعر العربى أبو الطيب المتنبى فى بيت الشعر المشهور : السيف أصدق أنباء من الكتب. ولذلك نجد الملك ينصح ابنه فيقول له : «كن ممن يحسنون صناعة الكلام لتكون قوى البأس لأن قوة الأنسان هى اللسان، والكلام أعظم بأسا من كل حرب» ثم يضيف الى ذلك قوله : «أن الرجل الفطن لا يجد من يفحمه، كما ان الذين يعرفون انه أوتى الحكمة لا يعارضونه، وبذلك لا تحدث مصيبة فى زمانه» .

ولقد برزت فطنة ذلك السياسى المسن بوجه خاص فى سياسة البلاد الداخلية، إذ نجده يعترف اعترافا صريحا بقوة الأسر

الشريفة العظيمة فيوصى بمعاملتها بتلك السياسة التى اتبعها كثير من ملوك أوروبا فيما بعد – وهى سياسة المهادنة ،والتعاون – كما أبدى فطنة عظيمة فى الوقت نفسه، لتقديره ضرورة البحث عن الكفايات المغمورة فى الأوساط الدنيا، وتكوين رجال جدد يمكن استخدامهم ضد رجال الإقطاع القدامى، ولذلك نراه يأمره : «إعل من شأن الجيل الجديد ليحبك أهل البلاد، أن مدينتك ملأى بالشباب المدرب الذين هم فى سن العشرين، ضاعف الأجيال الجديدة من أتباعك، على أن يكونوا مزودين بالأملاك وقد منحت لهم الحقول وجعلت فى حيازتهم قطعان الماشية، وإياك أن ترفع من شأن ابن العظيم على ابن الوضيع، بل اتخذ لنفسك الرجل من أجل كفايته، ومع ذلك فليس من الفطنة أن تهمل الأسر الشريفة العريقة، ولذلك يقول «عظم من شأن أشرافك لينفذوا قوانينك لأنهم إذا لم يكونوا أهل يسار فإنهم لا يقيمون العدل فى إدارتهم للأمور، إن الرجل الغنى فى بيته لا يتحيز فى حكمه، لأنه صاحب عقار وليس محتاجا، لأن الرجل الذى يقول «ليت لى» لن يكون محايدا بل ينحاز الى الشخص الذى يحمل فى يده العطية، فالعظيم من كانت أشرافه عظماء، والملك الخطير من كانت له حاشية، والرفيع من كان حوله أشراف كثيرون، وإذا تكلمت الصدق فى بيتك فإن الأشراف المتسلطين على الأرض سيهابونك، والملك ذو العقل المحايد يفلح حاله لأن داخل القصر هو الذى يبعث الاحترام فى الخارج !»

الحياة الصالحة :

ويرى ذلك الملك المسن ان الحيـاة الصـالحـة فـوق الارض هى العماد الأعظم الذى ترتكز عليه الحياة الآخرة، إذ يقول فى ذلك : «إن الروح تذهب إلى المكان الذى تعرفه ولا تحيد فى سيرها عن طريق أمسها» ولا شك أنه يقصد بذلك طريقها المعتاد للخلق القيم الكريم. على أن القبر كان فى نظره فى الوقت نفسه من الأشياء الهامة، حيث يقول : «زيّن مثواك (يعنى قبرك) الذى فى الغرب، وجّمل مكانك فى الجبانة بصفتك رجلا مستقيما مقيما للعدالة (يعنى ماعت) لأن ذلك هو الشئ الذى تركن إليه قلوب أهل الاستقامة » .

ولما كان أهم أمر فى حياة الانسان هو علاقته بربه، سواء أكان ذلك فى هذا العالم أم فى الحياة الآخرة، فإنه يقول فى ذلك أيضا : «يمر الجيل إثر الجيل الآخر بين الناس والله العليم بالأخلاق، قد أخفى نفسه» .. «وهو الذى لا يعبأ بما تراه الأعين، فاجعل الإله يُخدم بالصورة التى سوى فيها سواء أكانت من الأحجار الكريمة أم من النحاس، كالماء الذى يحل محله الماء، إذ لا يوجد مجرى ماء يرضى لنفسه ان يبقى مختفيا بل يكتسح السد الذى يخفيه».

وهذا التصريح الهام الذى جاء على لسان رجل من رجال الفكر فى مصر منذ أكثر من أربعة آلاف سنة مضت ليس إلا محاولة منه للتمييز بين الإله وبين صنم المعبد التقليدى الذى كان يظهر فى احتفالات المعبد وتهتف له الجماهير. ولكن كينونة الإله كما قال

كالماء الذى يكتسح السد أمامه، لا يمكن أن تبقى محبوسة فى الصورة المحسوسة، وهو الشئ الذى عبر عنه بأنه «لا يعبأ بما تراه العيون»، على حين أن الإله الخفى العليم بالأخلاق قد أخفى نفسه فلا يمكن إدراكه كجسم من الماء يمتزج فى جسم آخر مثله من الماء. على أنه من الصعب جدا أن يدرك الإنسان معنى أمثال هذه التشبيهات وبخاصة فى لغة فقيرة جدا فى التعابير المعنوية .

ولكن من الواضح أن لدينا فى تلك البردية سلسلة أفكار عن إله الشمس نجد فيها المفكر المصرى القديم يقترب من عقيدة التوحيد. إذ نجد أنه يعترف بوجود طائفة من الآلهة يقومون مقام القضاة فى عالم الآخرة، وبذلك يبتعد بعدا واضحا عن الاعتراف بوحدانية الإله، ولكنه من جهة أخرى كان يقترب جدا من الإعتراف بالتسلط الخلقى لإله واحد لدرجة أن كلمة إله صارت تدل فى بعض المواضع – مع شئ من التناقض – على مدلولها الحقيقى. ونلاحظ زيادة الإمعان فى صوغ هذه التأملات بصيغة التوحيد فى الصورة الآتية التى صور فيها الحكيم الأهناسى الخالق الحاكم الرؤوف، فى خاتمة تأملاته، إذ يقول : «إن الله قد عنى عناية حسنة برعيته، فقد خلق السماوات والأرض وفق رغبتهم وأطفأ الظمأ بالماء وخلق لهم الهواء حتى تحيا به أنوفهم، وهم صور منه خرجت من أعضائه. وهو يرتفع الى السماء حسب رغبتهم، وخلق النبات والماشية والطير والسمك غذاء لهم، وقد ذبح أعداءه وعاقب أطفاله بسبب ما دبروه

حينما عصوا أمره. وصنع النور حسب رغبتهم كى يسبح فى السماء ليراهم، كذلك أحاطهم بسياج من حمايته، وهو يسمعهم عندما يبكون، وجعل لهم حكاما وهم فى الأرحام ليحموا ظهر الضعفاء منهم».

وقد عقّب معرب كتاب (فجر الضمير) الدكتور سليم حسن فقال ان مترجم هذه البردية الاستاذ (جاردنر) فى ترجمته الجريئة لهذه البردية هو أول من فطن إلى حقيقة أن المفكر المصرى القديم اقترب من عقيدة (التوحيد) وأضاف سليم حسن قوله : وإنى أميل إلى الظن بأن المعنى التام لهذه الفقرة المدهشة التى ذكرناها هنا لم يتمكن أحد منا من فهمها فهما تاما. وانى أظن أن المؤلف – بريستد – يقصد من عبارته «كالماء الذى يحل محله الماء .. الخ»، أن الإله الذى شبه بالماء إذا حل فى أى جسم كان سواء أكان من النحاس أو أية مادة أخرى، فإنه لابد أن يجد لنفسه منفذا ليخرج منه ويظهر قوة، فإذن يصير تصوير الإله فى شكل مادى ليس بالأمر المهم .

فضيلة الرجل:

ولم تذهب وصايا هذا الملك الحكيم المجهول الاسم، سدى، ولم تفقد تأثيرها بعد انقراض أسرته بزمن طويل، وقد اكتشف الأثريون صداها فى ترجمة حياة أحد الأشراف كتبها لنفسه على شاهد قبره فى عهد الأسرة الحادية عشرة، إذ يقول : لقد سمعت أفواه

الناس تنطق بتلك الحكمة التى توجد فى أفواه العظماء : «إن فضيلة الرجل هى أثره الباقى، أما الرجل سيئ السمعة فيصير نسيا منسيا» .. وبعد مرور ألف سنة على عصر الملك الإهناسى الحكيم وجدنا أحد أشراف أسيوط يفخر كل الفخر بأنه «كان انسانا يفصل بين المتخاصمين دون محاباة، لأنى كنت ثريا وما أكرهه هو الكذب، وكنت متزن العقل من غير ميل أو هوى» .

مرثية ضارب العود :

أما الأثر الأدبى الكبير الذى خلفه لنا ذلك العصر، فقد تمثل فى «أنشودة ضارب العود» المنسوبة إلى أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة وتبين لنا كيف أن ذلك العصر قد ابتعد كل البعد عن عهد التسليم بالعقائد التقليدية دون معارضة فيها كما ورثت عن الآباء، فإن عقيدة التشكك - فى رأى العلامة «هنرى بريستد» تعنى تجربة طويلة للعقائد الموروثة وبحثا مستمرا فيما كان مسلّما به دون تفكير، ثم الشعور بالمقدرة الشخصية على الاعتقاد فى الشئ أو إنكاره، وهى تعد خطوة مميزة إلى الأمام نحو نمو الوعى النفسى والوازع الشخصى. ويوضح بريستد فكرته فيقول : إن عقيدة التشكك هذه لا تنمو إلا بين أفراد الشعب الذى له مدنية ناضجة، ولا تنبت قط فى المجتمعات البدائية الفطرية، ولذلك فإن ذلك العصر البالغ نحو ٥٠٠ سنة والذى يمثل قمته أولئك المتشككون الذين جاءوا عقب سقوط الاتحاد الوطنى الثانى، يعد عصرا هاما فى

تاريخ التقدم العقلى عند البشر. وقد عبر هؤلاء الحكماء عن حالتهم العقلية فى مرثية كانت تغنى غالبا فى نوع من الأعياد كان يحتفل به فى الجبانة أهالى الموتى وأقاربهم عند أجدادهم الراحلين .

وتوجد روايتان لهذه الأنشودة غير كاملتين : إحداهما مدونة على بردية، والثانية كانت منقوشة على جدران أحد القبور فى (طيبة) غير أن النسخة المدونة على البردية كانت منقولة عن نقوش قبر وعنوانها : «الأغنية التى فى مثوى «مزار القبر» الملك «إنتف» المرحوم، وهى المواجهة للضارب على العود».

وانه لمن المدهش حقا أن نجد ملكا من ملوك الأسرة الحادية عشرة (أى سنة ٢١٠٠ ق. م) يأمر بنقش هذه الأنشودة فوق جدار مزار قبره، غير أنه يمكننا ان نستنتج من قراءة سطورها أن المغنى عندما كان ينشد أغنيته كان يقف على مكان مرتفع يشرف منه على جبانة أهرام الدولة القديمة وينشد

إن المقـــدر الجـــمـــيل قـــد وقع

وتذهب الأجـــيـــال من الناس

وتبـــقى أخـــرى،

منذ عـــهـــد الذين كـــانوا من قـــبلنا

والآلهـة الذين وجـدوا فى غـابر الزمـان،

والذين يرقـــدون فى أهرامـــهم ،

وكـذلك الأشـراف **والمبـ**جلون قـد رحلوا

وبقـنوا فـى أهـرامـهـم .

وأولئك الذين **بنوا** مـزارات لقـبـورهـم ،

فـإن أمـاكنهم أصـبـحت كـأن لم تكن .

تأمـل مـاذا **جـرى** فـيـهـا .

لقد سمعت أحاديث «إمحتب» و «حرردادف»

وهى كلمات **لها شهرة** عظيمة مثل أقوالهم:

تـأمـل مـسـاكنهـم هنـالك ،

فـإن جـدرانهـا قـد هـدمت .

وأمـاكنهـا قـد **أصـ**بـحت لا وجـود لهـا ،

كـأنهـا لم تكن قـد وجـدت قط .

ولـم يـأت أحـد مـن هـنـالـك ،

ليـحـدثنا كـيف حـالهـم ،

وليـخـبـرنا عن حظوظهـم ،

لـتـطـمــئـن قـلـوبـنـا ،

إلـى أن نـرحـل **نـحـن** أيـضـا ،

إلـى المكـان الـذى رحـلـوا إلـيـه .

شجع فؤادك على أن ينسى ذلك ،

ولتسر باتباع رغبتك ،

وأنت على قيد الحياة .

وضع العطور على رأسك .

وارتد ملابس من الكتان الرقيق ،

وضمخها بالعطور العجيبة ،

وهى أشياء الإله الأصلية .

وزد كثيرا فى مسراتك ،

ولا تجعلن قلبك يبتئس .

واتبع ما تشتهى وما يطيب لك .

وهيئ شئونك على الأرض ،

حسبما يمليه عليك قلبك ،

إلى أن يأتى يوم مغيبك ،

حينما لا يسمع صاحب القلب الساكن نعيهم ،

ولا الذى فى القبر يصغى للعويل .

اغتنم التمتع باليوم السعيد ،

ولا تجـــــهـــــدن نفـــسك فـــيـــــه .

إصغ ! لم يأخـذ إنســان مـتــاعــه مــعــه

ولم يعد إنسان ثانية ممن رحلوا إلى هناك .

هكذا كان شـعـور بعض المفكرين المصـريين عن ذلك العـصـر العتيد حينما كانوا يشرفون بأعينهم على مقابر أجدادهم ويدركون عدم فائدة جبانات أهرام الدولة القديمة الشاسعة الأرجاء .

مراجع البحث :

* فجر الضمير : تأليف جيمس هنرى بريستد .

* حضـارة مـصـر والشـرق القديم : تأليف د. إبراهيم رزقـانة وآخرون .

* مصر الفرعونية : تأليف أحمد فخرى .



أم الجامعات

احتفلت جامعة القاهرة بمرور تسعين عاما على إنشائها، وهى مناسبة تاريخية نتذكر فيها الظروف الصعبة التى شهدت ولادة أول جامعة مصرية حديثة بجهود المصريين ومن حصيلة القروش التى تبرعوا بها حتى اشتد عودها، وصارت أم الجامعات المصرية والعربية، وتخرج فيها جيل الرواد الذين حملوا مشعل الثقافة والتنوير، ومنها تولدت كل الجامعات والمعاهد العليا المنتشرة فى أنحاء العالم العربى ..

يجب أن نلفت النظر إلى أن مصر عرفت التعليم العالى قبل إنشاء الجامعة بثمانين عاما على الأقل، عرفته عن طريق المدارس العليا التى أنشأها «محمد على» لتكون ركيزة النهضة الحضارية فى مصر الحديثة، كما عرفتها فى شكل البعثات التى أوفدها محمد على وخلفاؤه إلى العواصم الأوربية، فكان هؤلاء المبعوثون، بعد عودتهم، الطليعة العلمية فى مسيرة الثقافة المصرية ..

ولكن يلاحظ على طبيعة هذين الرافدين المدارس العليا والبعثات – أنها كانت متخصصة فى العلوم البحتة كالطب والهندسة والصناعة والزراعة، ولا تشمل العلوم الإنسانية : الآداب والقانون والفلسفة والتاريخ والاقتصاد والفنون الجميلة، لأن محمد على كان يدرك خطر هذه المعارف على نظامه السياسى القائم على الاستبداد والحكم المطلق، ويحكى أنه ضبط مبعوثا يدرس النظم السياسية، فانهال عليه تقريعا وتأنيبا، وحذره من الاتصال بهذه العلوم «الضارة» ونصحه بالالتزام بدراسة التخصص الذى بعث من أجله، ولم يفلت من هذا الحصار سوى الشيخ رفاعة الطهطاوى الذى عكف على دراسة التطورات السياسية والاجتماعية التى شهدتها فرنسا خلال إقامته فى باريس، وعاد إلى بلاده حاملا فى يمينه كتابه الشهير «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز» فكان أول لبنة فى صرح الثقافة المصرية والعربية الحديثة. ويمكن تفسير سبب هذا «الانفلات» بأن الطهطاوى سافر إلى فرنسا «إماما» للبعثة، وليس مبعوثا ملتزما بدراسة تخصص معين ..

وقد ظلت الحياة العقلية المصرية أسيرة هذه الحدود التى رسمها محمد على وخلفاؤه، حتى ظهرت فى نهاية القرن الدعوة إلى قيام «جامعة» تحتضن الشبيبة المصرية وتربيهم على الفكر الحر والبحث المستقل على غرار الجامعات الأوربية، وظهرت الدعوة لأول مرة فى شكل مقال كتبه «جورجى زيدان» فى مجلته الشهيرة (الهلال) فى

أول فبراير ١٩٠٠ تحت عنوان «المدرسة الكلية المصرية أو الجامعة العربية» واقترح فيه إنشاء كلية لتثقيف الشبان المصريين بدلا من إرسالهم إلى أوروبا. وبيّن الحاجة إليها في تعليم الشعب معنى الحرية والاستقلال وحب الوطن، كما طالب بتشكيل لجنة لجمع الأموال لها عن طريق الاكتتاب، وناشد الصحف أن تتضافر جهودها لاستنهاض الهمم للوصول إلى هذه الغاية، ثم كرر جورجي زيدان اقتراحه في مقالات لاحقة مبينا أن استقلال الفكر لا يكون إلا بالتعليم والتثقيف، وأن تكون اللغة العربية هي لغة التدريس في هذه الكلية .

ولكن الغريب أن اقتراح جورجي زيدان لم يجد آذانا صاغية..

في كتابه الوثائقي عن (الجامعة المصرية والمجتمع) يعزو الدكتور عبد المنعم الجميعي هذا الإهمال إلى أن الدعوة لمثل هذا المشروع «المصري» الهام كان يجب أن تتبناها شخصيات مصرية. والمعروف عن صاحب (الهلال) أنه هاجر من وطنه (لبنان) إلى مصر ضمن مجموعة الكتاب والمفكرين الشوام الذين استوطنوا مصر، وأنشأوا بها الصحف والمجلات، ومرت أربع سنوات حتى التقط الفكرة مصطفى كامل، فدعا إليها على صفحات جريدته (اللواء) وقال إنه قد آن الأوان أن يفكر عظماء الأمة في إنشاء كلية للأمة بأموال الأمة، وناشد المحبين لارتقاء البلاد موافاته بآرائهم وأفكارهم حول طريقة إخراج مشروع الجامعة إلى حيز الوجود، وطالب الأحزاب

أن تنسى انقساماتها وخصوماتها لتحقيق الهدف الجليل، وتحمس الإمام محمد عبده للمشروع وأعرب بعض كبار الأثرياء عن استعدادهم للتبرع له بالمال، وذهب أحمد باشا المنشاوى إلى الإمام محمد عبده وأعرب عن رغبته فى بناء الجامعة داخل أطيانه الواسعة بجهة «باسوس» قرب القناطر الخيرية على نفقته الخاصة. ويشترى لأساتذتها سفينة تنقلهم عن طريق النيل من القاهرة إلى مقر الجامعة، واقترح الشيخ محمد عبده على مجلس الوزراء أن تبيع الحكومة عشرة آلاف فدان من ممتلكاتها بثمن رمزى إلى المنشاوى باشا ويسجل وقفها على بناء الجامعة إلا أن وفاة المنشاوى باشا ثم وفاة الشيخ محمد عبده أوقفت ذلك وخمدت الفكرة، وحلت محلها فكرة إنشاء «الكتاتيب» بدلا من الجامعة. ويبدو أنها كانت بإيعاز من «اللورد كرومر» الذى توسم الخطر فى قيام صرح علمى يخرج بالمصريين من غياهب الجهل والتخلف إلى نور العلم والمدنية، ويؤدى إلى نشوء طبقة مصرية مثقفة تنادى، ليس فقط بتحرير الأرض، ولكن أيضا بتحرير الشخصية المصرية من الخزعبلات والخرافات ..

جامعة لكل سكان مصر

وعادت فكرة الجامعة مرة أخرى إلى الظهور بصورة أقوى على يد سعد زغلول الذى تولى الدعوة إلى عقد اجتماع فى بيته يوم ١٢ أكتوبر ١٩٠٦ حضره لفيف من قادة الفكر والرأى، وتشكلت من

هذا الفريق لجنة مؤقتة لمباشرة مشروع الجامعة حتى يتم انتخاب لجنة دائمة وترك منصب الرئاسة ليشغله أحد أمراء الأسرة الخديوية، واتفق على أن تكون هذه الجامعة عمومية لجميع سكان مصر بلا تمييز فى الديانات أو الأجناس، وألا يكون لها صبغة سياسية أو علاقة برجال السياسة. وفى هذا الاجتماع بلغ مجموع المبالغ التى اكتتب بها الحاضرون ٤٤٨٥ جنيها، وقرر المجتمعون أن يتقدموا إلى الأمة المصرية طالبين العون والتأييد لتنفيذ المشروع..

وفى الاجتماع التالى تنحى سعد زغلول عن رئاسة اللجنة لتعيينه وزيرا للمعارف، فحل محله قاسم أمين فبذل جهودا جبارة حتى لا يخفق المشروع بعد أن حدث فتور فى الاكتتابات، وأعلن أن الجامعة ستفتح أبوابها لجميع سكان القطر وستمارس رسالتها العلمية المحضة بعيدا عن السياسة، ولكن كرومر ومن ورائه الحكومة أعلنوا عدم اقتناعهم بخلو المشروع من السياسة وأنه مشروع سابق لأوانه، وأن الحكومة لن تمد له يد المساعدة إلا إذا برهن المصريون على أنهم مجدون فى هذا العمل حقيقة، ورد قاسم أمين على هذا التحدى بأن الأمة ستعتمد على نفسها، ولن تعتمد على المساعدات «الخارجية» وأنه اختبار لإرادتنا، فإذا صادف عزيمة قوية، فلا شئ يحول بيننا، وبينه. وتبارت الصحف فى حث المصريين على التبرع لمشروع الجامعة، واقترح أحد قراء «اللواء» أن تطبع الجامعة على

نفقتها عدة دفاتر يحتوى كل منها على ألف ورقة قيمة كل منها عشرة مليمات، وقامت مديرية الغربية بتحصيل سبعة قروش عن كل فدان يقع فى زمامها يخصص لمشروع الجامعة، ومع ذلك - كما يقول الجميعى - فإن الكثيرين من الأغنياء لم يبسطوا أيديهم لتأييد المشروع، وهو يفسر هذا الإحجام بأن أهل الثراء كانوا يستطيعون إرسال أبنائهم للتعليم فى أكبر الجامعات الأوروبية على نفقتهم، ولن يعود عليهم مشروع الجامعة بفائدة تذكر، بل ربما يكون له أثر عكسى حين يسوى بين الأغنياء والفقراء فى التعليم العالى، يضاف إلى ذلك أن الأثرياء كانوا يتبرعون تملقا للحكومة فلما وجدوا عندها نفورا للمشروع، أحجموا عن تأييده، وتبرعوا لإنشاء الكتاتيب تزلفا الى كرومر، وقد انتقد سعد زغلول ذلك فقال : انه يرجع الى ضعف الأمة فى نفسها وميلها دائما الى الجهة التى يميل الحاكم اليها بقطع النظر عما فيها من الحسن أو القبح».

تحت رعاية الخديو

وبعد جهود مضنية وافق الخديو عباس الثانى على وضع المشروع تحت رعايته واختار الأمير أحمد فؤاد (ولى عهده) رئيسا للجنة التأسيسية. وتناقشت اللجنة حول العلوم التى ستقوم الجامعة بتدريسها، واستقر الرأى على أن تبدأ بالعلوم الأدبية، وبرر الأمير أحمد فؤاد ذلك بقوله: إننا جعلنا التاريخ والآداب فاتحة أعمال الجامعة لفائدتهما ولذتهما، فالتاريخ سيرقى عند الذين يتعلمونه فى

الجامعة ملكة التفكير والمقارنة والحكم على الرجال والأشياء، أما الآداب فستعلم الذين يتعلمونها فى الجامعة أحسن ما جاءت به الأفكار الانسانية .

وبرئاسة الأمير أحمد فؤاد للجنة قويت حركة الاكتتاب والأوقاف للجامعة فبلغت ٢٦٧٢٨ جنيها، ووقف حسن بك زايد خمسين فدانا من أطيانه بالمنوفية للجامعة، وبلغت كمية الأطيان الموقوفة على الجامعة ٥٤٩ فدانا وبذلك انتعش المشروع حتى وعد الخديو بمساعدته، واكتتبت وزارة الأوقاف بأمر الخديو بخمسة آلاف جنيه تدفعها سنويا كما اكتتبت وزارة المعارف بمبلغ ٢٠٠٠ جنيه، كما تبرع غير المصريين، فالسوريون دفعوا ٣٤٥ جنيها، والأوربيون ٢٣٣ جنيها، فى حين بلغت تبرعات المصريين ٩٨ ٪ وأعلن الأمير أحمد فؤاد أن اللجنة أصبحت قادرة على أن تباشر عملها من أول أكتوبر ١٩٠٨ بما توفر لديها من إيرادات سنوية ثابتة، وتقرر البدء باتخاذ مكان مناسب لالقاء الدروس والمحاضرات فى آداب اللغة العربية، وفى آداب اللغة الانجليزية، وفى آداب اللغة الفرنسية، وفى التاريخ العام ولاسيما تاريخ مصر، وتاريخ المدنية الاسلامية وتاريخ النهضة الايطالية، كما قررت اللجنة إيفاد عشرة من طلبة المدارس العليا كل عام إلى أوربا لتلقى العلوم والآداب بغرض إعداد فريق من الأساتذة للقيام بعد عودتهم إلى مصر بمهام التدريس فيها باللغة العربية ..

وفى يوم ٢١ ديسمبر ١٩٠٨ افتتحت الجامعة المصرية رسميا فى حفل أقيم بقاعة مجلس شورى القوانين حضره الخديو عباس حلمى بدعوة من رئيس الجامعة كما حضره عدد كبير من رجال الدولة والوجهاء والأعيان ورجال السلك السياسى وشيخ الأزهر والمفتى ورجال الدين والمؤسف انهم نسوا دعوة قاسم أمين، وألقى الخديو كلمة أعرب فيها عن اغتباطه بخروج المشروع إلى حيز الوجود، كما خطب كل من رئيس الجامعة وعبد الخالق ثروت باشا وأحمد زكى باشا . وفى مساء نفس اليوم بدأت الدراسة فى الجامعة على نطاق ضيق، على هيئة محاضرات تلقى بعد الظهر فى قاعات متفرقة كان يعلن عنها فى الصحف اليومية، كقاعة مجلس الشورى، ونادى المدارس العليا، ودار «الجريدة»، ثم انتظمت محاضرها وبرامجها بعد ذلك، واتخذت لها مكانا فى قصر الخواجة «جناكليس» الذى تشغله الجامعة الأمريكية الآن، بأول شارع قصر العينى، بإيجار سنوى ٤٠٠ جنيه، ثم انتقلت الى سراى محمد صدقى بميدان الأزهار بشارع الفلكى فى عام ١٩١٥ وذلك لأن قيام الحرب العظمى جعل الجامعة تضغط مصروفاتها فرأت أن تستأجر مبنى أقل فى الإيجار لمدة سنتين الى أن يتم بناء سراى الجامعة الجديدة بمنطقة بولاق الدكرور .

وبدأت الدراسة بكلية الآداب بمعدل كل يوم درسين يتخللهما اختلاط بين الطلبة والأساتذة، وانقسم الطلبة الى قسمين :

منتسبون : وهم المتخرجون فى المدارس العالية والخصوصية والأزهر، والذين يقدمون طلبا للاستمرار فى حضور درس واحد فأكثر للحصول على شهادة أو إجازة أو لقب مما تقرره الجامعة فى المستقبل .

مستمعون : وهم كل من يطلب قبوله بهذه الصفة، ويدفع الرسم المقرر عنها ولايكون ملتزما بأى قيد أو شرط .

وكان الطالب المنتسب يدفع مصروفات سنوية قدرها (١٢٠ قرشا) لمن يحضر ثلاثة دروس فأكثر، وأربعين قرشا لمن يريد منهم حضور درس واحد، وضوعفت هذه القيمة للطلبة (المستمعين). كما عملت الجامعة بطاقات لحضور محاضرة تعطى للمستمعين ورسمها خمسة قروش، وكان متوسط عدد الذين يحضرون هذه المحاضرات ١٢٠ فردا، ونظرا لإقبال الطلاب على دروس الحضارة الإسلامية والحضارة القديمة تقرر تقسيمهم الى قسمين على أن يعطى الأستاذ المحاضرة مرتين.

ويرى الدكتور الجميعى أن الجامعة فى أول أمرها لم تعرف قيود اللوائح، وأنما اتسمت نظمها بالمرونة فسمحت بحضور المحاضرات لكل مثقف يرغب فى ذلك .

وكان للمرأة نصيب فى التعليم الجامعى فقررت الجامعة الوليدة إنشاء فرع نسائى تلقى فيه محاضرات فى الفلسفة وعلم نفس المرأة وأخلاقها وعلم التاريخ والتربية، وكان يحاضر فى هذا القسم نبوية موسى ناظرة المعلمات بالمنصورة، ولبيبة هاشم صاحبة مجلة «فتاة الشرق» ورحمة صروف فى شئون التدبير المنزلى، وملك حفنى ناصف فى حقوق المرأة وواجباتها، والمقارنة بين المرأتين المصرية والغربية، وحاضرت فى سوء العادات ومضار الخرافات والزار والعفاريت، وواظب على حضور المحاضرات كثيرات من فتيات البيوتات مثل هدى شعراوى وصفية زغلول وفاطمة نعمت راشد وفاطمة عمر، ونظرا لمنع الرجال المحافظين زوجاتهم من حضور المحاضرات، فقد ناشدت بعض النساء على صفحات الجرائد الرجال ألا يمنعن زوجاتهم واخواتهم وبناتهم من حضور تلك الدروس المفيدة .

ونتيجة لهذه الخطوات الجريئة، ونتيجة لما قدمه الفرع النسائى بالجامعة من محاضرات مفيدة للسيدات، فقد تشجع البعض ونادى بإنشاء جامعة مستقلة للنساء الشرقيات تهذب فيها أخلاقهن ويتكون فيها أمهات المستقبل يتعلمن فيها أصول التربية وكيفية معاشرة الأزواج، وعلم الأخلاق، والاقتصاد المنزلى وقانون حفظ الصحة وتدبير صحة الحامل والنفساء والتطريز .

ومن ناحية أخرى أثار إنشاء الفرع النسائى بالجامعة ثائرة بعض الرجال المحافظين، وبالرغم من أن معظم المحاضرات كانت تلقيها سيدات، فقد تجمع الرجال أمام الجامعة للتعرض للنساء ومنعهن من الحضور لأن ذلك سيؤدى - من وجهة نظرهم الى خروجهن على الآداب ويرفع عنهن صفة العفاف التى تتحلى بها كل قابعة فى المنزل، وعندما أرسل عبد العزيز فهمى (باشا) سكرتير الجامعة خطابات الى نساء الطبقة الواعية يدعوهن الى الحضور - اعتبر بعض الغيورين على الأخلاق العامة كتابة أسماء نسائية على أظرف الخطابات، ويراها رجل البريد، بمثابة العار، ومن الفضائح الكبرى التى لا يمحوها إلا الدم، فأرسلوا خطابات تهديد بالقتل الى عبد العزيز فهمى إذا لم يكف عن هذا الفعل الشائن (!!)

لم تولد «أم الجامعات» وفى فمها ملعقة من ذهب، وإنما ولدت فى أجواء خانقة، ورياح معاكسة، ونظر إليها المحافظون بارتياب، لأنها ستعلم الشباب أفكارا جديدة على المجتمع، والاحتلال الانجليزى رأى فيها نافذة تهب منها تيارات التحرر الوطنى، ولذلك كان يفضل إنفاق الأموال على إنشاء الكتاتيب لأنها أجدى وأنفع من الجامعة (!!) والأزمة المالية خنقت الجامعة حتى أوشكت على الاحتضار، وعجزت عن تسديد إيجار مبناها، واضطرت الى خفض القروش التى كانت تدفعها للأساتذة، وأرغمت على استدعاء الطلاب الأربعة الذين بعثتهم الى فرنسا توفيرا للنفقات، ورغم هذه

الضربات القاتلة فإن الجامعة استطاعت أن تشق طريقها حتى صارت حقيقة واقعة تنهض برسالة العلم والتثقيف بفضل إصرار النخبة المصرية المثقفة على بقاء الجامعة .. إنها قصة كفاح لا تقل جلالا عن الكفاح السياسى من أجل الاستقلال، والكفاح الاقتصادى الذى أثمر قيام بنك مصر .. فما أروع نماذج الكفاح فى حياتنا المعاصرة.

أحدث السماح للنساء المصريات بحضور المحاضرات التى تلقى فى الجامعة : هزة فى الرأى العام، ولم يفرق المعترضون على تعليم المرأة بين ذهابها الى الجامعة، وبين ترددها على أماكن اللهو، رغم أن القسم النسائى بالجامعة كان منفصلا عن الأقسام الرجالى .. وقالوا إن البلاد فى حاجة الى امرأة تحمل ولدها على كتفها، لا أن تصدر الأوامر بقلمها وتدبر الشئون العامة فى الدواوين، وكان أمير الشعراء أحمد شوقي بك من بين هؤلاء المعترضين على تعليم المرأة بحجة أنها ضعيفة مثل عصفور الكناريا، وأن حجبها عن الخروج الى الحياة العامة إنما لصيانتها، والخوف عليها من عاديات الخروج، ولا نعرف إذا كان أمير الشعراء قد عدل عن رأيه فى مسألة تعليم المرأة، ولكن الذى نعرفه أنه – بعد عشرين عاما من معارضته – ألقى قصيدة عصماء فى عام ١٩٣١ فى حفلة افتتاح المنشآت الجديدة للجامعة استهلها بقوله :

تاج البــــلاد تحـــيـــة وســـــلامُ

رَدّتك مـــصــرُ، وصــــحت الأحـــلام

العلم والملك الرفـــيع، كـــلاهمـــا

لك - يا فـــؤاد - جـــلالة ومـــقـــام

فكأنك «المأمــــون» فى سلطانه :

فـى ظلك الأعـــــلام، والأقـــــلام

«الجـيـزة» الفـيـحـاء هزت منكبـا

ســــبغ المنوال عليـــه والأنعـــام

قـــد زدتهـــا هرمـــا يُحَجُّ فناؤه

ويُشـــدُّ للدنيـــا إليـــه حـــزام

فهو يشبه الملك أحمد فؤاد، الذى رعى الجامعة منذ ولادتها، بالخليفة العباسى المثقف «المأمون» الذى أقام دار الحكمة فى بغداد، وجعل منها صرحا للعلوم والفلسفة والأدب. كما يشبه الجامعة التى أقيمت فى «الجيزة» بالهرم الرابع الذى يأتيه الناس من كل فجاج الأرض . وما أروع أن نتابع مسيرة أم الجامعات كما رصدها الدكتور عبد المنعم الجميعى فى كتابه الوثائقى عن هذا الصرح الجليل .

لقد ظلت الجامعة فى سنواتها الثلاث الأولى، وهى أشبه بالجامعة المفتوحة، يرتادها كل من يطلب العلم بصرف النظر عن مؤهله الدراسى، وبدءا من العام الدراسى ١٩١١ وضعت لائحة للجامعة، وهى «كلية الآداب والفلسفة» وتكون الدراسة بها أربع سنوت ويشترط للالتحاق بها أن يكون الطالب حاصلا على الشهادة الثانوية أو ما يعادلها، وأن يؤدى فى نهاية كل سنة امتحانا يؤهله للإنتقال الى الفرقة الأعلى، ومن المتناقضات الغريبة أن خريج الجامعة كان يستطيع أن يتقدم للحصول على درجة «الدكتوراة» دون الحصول على شهادة جامعية . ولم تتقرر هذه الشهادة إلا بعد سنة ١٩١٢ عندما عرض مجلس قسم الآداب على مجلس إدارة الجامعة اقتراحا بإنشاء شهادة «يقال لها شهادة الليسانس فى الآداب» يستطيع الطلاب الحصول عليها بعد النجاح فى الامتحانات التى تقرر لهم، ولذلك تنشيطا لهمم الطلبة، ورفعا لشأن الجامعة. وأن يسعى مجلس الادارة لدى الحكومة من أجل الحصول على امتيازات لحاملى هذه الشهادة حتى تستطيع الجامعة أن تضمن لنفسها الحياة، وأعربت الجامعة عن استعدادها لأن تقبل اشتراك وزارة المعارف فى إدارتها والاشراف على التعليم فيها، على ألا يؤثر ذلك على استقلالها الخاص، وإتفاقا مع الغرض من إنشاء الجامعة وهو : ترقية مدارك وأخلاق المصريين .

وجاءت الأزمة المالية لتضع مصير الجامعة الوليدة فى مهب الريح، فالتبرعات لإنشاء الجامعة أخذت تتضاءل، وكان لقيام الحرب العالمية الأولى أثر كبير فى ضعف الايرادات، واضطرت الحكومة الى خفض الاعانة التى كانت تقدمها للجامعة بعد سبعة آلاف جنيه الى ٣٨٠٠ جنيه، وإعانة وزارة الأوقات التى كانت تبلغ ٥٠٠٠ جنيه أخذت فى التناقص حتى بلغت سبعمائة جنيه، كما فقدت الجامعة معظم الإعانات التى كنت تقدم لها، وانصرف الكثيرون عن الاكتتاب لها، ولم يبق للجامعة فى أداء رسالتها وحاولت الجامعة فى كل أنحاء البلاد عضو مشترك واحد، ، ولا تبرع واحد، اللهم إلا أعضاء مجلس الجامعة، مما أدى الى تعثر الجامعة أن تخفض من نفقاتها، ولجأت الى الخواجة «چاناكليس» صاحب السراى المؤجرة للجامعة لكى يتنازل عن جزء من الإيجار، ولكنه رفض، واضطرت الجامعة إلى استئجار سراى محمد صدقى بشارع الفلكى. ولم يعد أمام الجامعة سوى اختيار واحد من أمرين : إما إيقاف العملية التعليمية بها، أو سحب طلاب الدراسات العليا الأربعة الذين بعثتهم الجامعة الى أوربا وهم : الشيخ طه حسين، ويوسف نور الدين، وعبد الرحمن فكرى والشيخ أحمد ضيف أو استمرار التعليم بالجامعة لأنه الرمز الذى يؤكد وجودها، وانتقدت بعض الصحف قرار استدعاء طلبة البعثة، واقترحت بديلا عن ذلك إلغاء بعض فروع

التدريس بالجامعة توفيرا لمرتبات الأساتذة، ولكن مجلس الجامعة رفض هذا الاقتراح لأنه رأى فيه إنهاء لكيان الجامعة ذاته .

وأثارت الأزمة المالية للجامعة الوليدة غيرة الحريصين على بقائها واستمرارها فى أداء دورها الجليل، وبدأت عجلة الاكتتابات تتحرك من جديد لضخ أموال جديدة فى شرايين الجامعة. وإنشاء مقرات دائمة لها بدلا من الايجار. واستطاع الدكتور محمد علوى الطبيب الخاص للأميرة فاطمة بنت الخديو إسماعيل أن يقنعها بأهمية النهوض بالجامعة المصرية حتى تؤتى ثمارها المرجوة، فخصصت ستمائة وواحد وستين فدانا من أجود أراضيها فى الدقهلية وقفا للجامعة، ووهبت أرضا مساحتها ستة أفدنة قرب قصرها فى بولاق الدكرور لبناء دار جديدة للجامعة، كما تبرعت بجواهر وحلى قيمتها ثمانية عشر ألف جنيه للانفاق على عملية البناء، فبلغت قيمة ما تبرعت به نحو مائة ألف جنيه، كما تبرع الأمير يوسف كمال بمبلغ من المال، وأوقف (١٢٥) فدانا من أطيانه بالقليوبية للجامعة، وقد احتفل بوضع حجر الأساس للجامعة فى الأرض التى تبرعت بها الأميرة فاطمة اسماعيل فى الدقى يوم ٣٠ مارس ١٩١٤، ووضع الخديو عباس حلمى الثانى حجر الأساس الذى كتب عليه (الجامعة المصرية – الأميرة فاطمة بنت إسماعيل – سنة ١٣٣٢ هـ) وأودع الحجر بطن الأرض ومعه أصناف العملة المصرية ومجموعة من الصحف التى صدرت فى يوم الاحتفال ونسخة من محضر وضع

حجر الأساس الذى وقع عليه الخديو والأميرة فاطمة والأمير أحمد فؤاد وأعضاء مجلس الجامعة .

ولما شرع مجلس الادارة فى بناء الجامعة، اتفق مع طائفة من المقاولين على إقامة المبنى نظير ٢٨ ألف جنيه، ولكن بنشوب الحرب العالمية توقف البناء بسبب غلاء مواد البناء فتراجع المقاولون عن العمل، فاستولت الحكومة على المكان، وجعلت منه مقرا لوزارة الزراعة الحالى، مقابل جزء من الأرض التى قدمتها الى الجامعة بحديقة الأورمان بالجيزة، وهى الأرض التى تقع عليها حاليا كليات جامعة القاهرة والتى تم افتتاحها فى عام ١٩٣١ فى عهد الملك أحمد فؤاد .

الجامعة تحتضر

وظل شبح الأزمة المالية يخيم على الجامعة حتى اضطرب أمرها، واستفحلت مشاكلها، ودب الخلاف بين أعضاء مجلس أدارتها حتى هجرها كثير من أعضائها الذين كانوا محل ثقة الجمهور، كما أنها أهملت دعوة الأساتذة الأجانب لإلقاء محاضرات بها، فانقطع بانقطاعهم ذلك التيار العلمى المتدفق من أوربا، وأصبحت كالجامعة المحتضرة، ولم تستقر الأمور بها، وتتغلب فكرة بقائها إلا بعد نجاح الاتصالات مع وزارة الأوقاف لإعادة ما قطعته من الإعانة للجامعة، وما أن وصل مبلغ الإعانة الى خزينة الجامعة (٢٠٠٠ جنيه) حتى قررت إعادة الطلبة الأربعة الذين عادوا من

أوروبا الى جامعاتهم لإتمام دروسهم، كما قررت الإنفاق على بعض من ألغيت مرتباتهم، خصوصا بعد أن أنعم السلطان حسين كامل على الجامعة بمبلغ خمسمائة جنيه لمساعدتها على القيام بنفقات طلابها فى أوربا الذين قد يضطرون للبقاء مدة أطول من المقدرة لهم، فأصبح عدد الطلاب المبعوثين تسعة : منهم ستة فى فرنسا هم : الشيخ طه حسين ويدرس التاريخ، والشيخ أحمد ضيف ويدرس الأدب الفرنسى، وجلال أفندى شعيب ويدرس التاريخ، وحسن أفندى الديوانى ويدرس علم الحياة وعلم وظائف الأعضاء، ومحمد أفندى سلطان ويدرس العلوم الاقتصادية والسياسية والدكتور محمد والى ويدرس علم الصحة والحشرات الوبائية، أما طلاب بعثة انجلترا فهما : عبد الرحمن أفندى فكرى ويدرس علم تقويم البلدان، ويوسف أفندى نور الدين ويدرس علم الطبيعة، أما الطالب الوحيد الذى أوفد الى سويسرا فهو على أفندى توفيق شوشة ويدرس الكيمياء العضوية وقد صار فيما بعد وزيرا للصحة .

ورغم الانفراج النسبى فى الأزمة المالية، إلا أن الجامعة عجزت عن تلبية احتياجاتها التعليمية، مما دفعها الى الاقتصاد فى مصروفاتها وقرر أساتذتها التنازل عن ربع مرتباتهم، كما تبرع بعضهم بالقاء الدروس مجانا. ورغم هذه الأزمة الخانقة فقد اتخذ مجلس الجامعة عدة وسائل لتحقيق رغبات الطامحين الى العلم، فتقررت المجانية المطلقة فى كل دروس الجامعة للمستمعين، وفتحت

أبواب الجامعة لكل راغب من الجمهور بدون أى رسم أو شرط «إلا ما يقتضيه آداب الاستماع للمحاضرات من حسن المظهر والتأدب» وتخفيض الرسوم المفروضة على الطلبة النظاميين بنسبة ٥٠ ٪، وإفادة الجمهور بالقاء محاضرات ليلية فى موضوعات ذات فائدة عامة يلقيها أساتذة الجامعة وغيرهم من كبار رجال الأدب والعلم من ذوى الكفاءات فى مصر .

مكتبة الجامعة

لا يكتمل الحديث عن نشأة الجامعة المصرية، دون الحديث عن مكتبة الجامعة، فهى المعين الذى ينهل منه الباحثون وطلاب المعرفة، ولم يكن من الممكن – فى ظل تلك الأزمة المالية الخانقة – أن ترصد إدارة الجامعة أموالا كبيرة فى شراء الكتب، عندئذ تبارى الأثرياء والأمراء والعلماء فى إهداء الجامعة أنفس ما يملكون من كتب. فأهدتها وزارة المعارف ستمائة كتاب، كما أهدتها وزارة الأشغال ٨٩ مجلدا من مطبوعاتها العلمية، كما أهدى لها محمد وسيم بك القاضى بالمحكمة الابتدائية المختلطة مائة مجلد، وأهداها ورثة شفيق بك منصور مؤلفات متعددة بالعربية والفرنسية فى القوانين والآداب والتربية والفلسفة والتاريخ، وكذلك فعل ورثة يحيى باشا منصور وأهدوا للجامعة ٢٥٠ مجلدا من المؤلفات الأصلية بالعربية والتركية، وأهداها الأمير ابراهيم حلمى ١١ ألف مجلد فى تاريخ مصر والشرق وقدم الأمير كمال الدين حسين أربعة آلاف مجلد فى

الأدب والرحلات والجغرافيا، وتوالت الاهداءات من رجال العلم والأدب : حمزة فهمى بك (٣٠٠ مجلد) محمد لطفى جمعة (١٣٩ مجلدا) كما بادرت الجامعات الأوربية بإهداء الجامعة طائفة من الكتب والمراجع، فأرسلت حكومة النمسا أربعة صناديق تحتوى على كتب علمية، حتى بلغ عدد الكتب المهداة نحو خمسة عشر الف مجلد مكتوبة بلغات متعددة صارت نواة لمكتبة الجامعة التى فتحت أبوابها للطلاب وغيرهم فى شهر فبراير ١٩٠٩ فى نظير رسم سنوى قدره (عشرون قرشا) واستغل الملك فؤاد صلته الحميمة بالحكومة الايطالية التى وقفت من مشروع الجامعة موقفا وديا للغاية، وقدمت خدمات جليلة للطلبة المصريين الذين سافروا إلى إيطاليا للدراسة، وقدمت حكومتها الى الجامعة عددا وافرا من الآلات والأدوات للتجارب الطبيعية فكان ذلك النواة الأولى لقسم الطبيعة بالجامعة وأهدتها مجموعة من الأحجار الجيولوجية وقامت المعاهد العلمية الايطالية بإمداد الجامة المصرية بمؤلفات أعضائها وبعثت لها بنشراتها ومجلاتها العلمية، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل سافر الأمير أحمد فؤاد – رئيس الجامعة – الى أوربا وطلب من كبار رجالها مساندة الجامعة المصرية، كما كان يقوم بشراء المعدات الحديثة اللازمة لها، كما قابل رئيس وزراء فرنسا (كليمنصو) وطلب منه أن يهدى للجامعة كل ما تصدره الحكومة الفرنسية من النشرات الدورية فاستجاب لطلبه، وبذلك انهالت على مكتبة الجامعة مجموعة من المؤلفات الثمينة كهدايا من حكومات فرنسا والنمسا

وروسيا وإيطاليا ورومانيا وبلجيكا وبعد أن خصصت مبلغ (مائة جنيه) سنويا لشراء الكتب الجديدة، رأى مجلس الجامعة فتح قاعة المطالعة أمام الجمهور المصرى حتى تصبح الثقافة ملكا لكل أبناء مصر .

أولادنا
فى باريس

كان رفاعة رافع الطهطاوى أشهر وأشهى ثمرات البعثات العلمية الكبرى، التى أرسلها محمد على إلى فرنسا، رغم أن المهمة الأساسية لهذا الشاب الأزهرى ان يؤم المبعوثين فى الصلاة ويحثهم على التمسك بالفضائل حتى لا يقعوا فى حبائل الغواية، ولكن عبقرية رفاعة، وحبه للبحث والاطلاع، واستعداده الفطرى للمقارنة، جعله ينغمس فى دراسة الأحوال السياسية والفكرية والاجتماعية المحيطة به، فعاد إلينا وهو يحمل فى عقله أفكارا جديدة كانت الأساس الذى قامت عليه النهضة المصرية - والعربية عامة - فى مجال الفكر والسياسة وأنظمة الحكم الدستورية، ومن هنا طغت شهرة رفاعة الطهطاوى على شهرة مئات المبعوثين الذين تخصصوا فى علوم الطب والهندسة والرياضيات وفنون الحرب، واذا كان الفكر الحديث لا يزال هائما فى فلك الطهطاوى، ومتصلا بتراثه الذى صبه فى «تخليص الابريز فى تلخيص باريز» و «مناهج

الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية» وغيرهما من كتب التنوير، فإن أحدا لا يذكر شيئا عن المؤلفات التى وضعها علماء البعثات بعد عودتهم فى مجال تخصصهم ..

من منا يذكر كتب «ثمرة الاكتساب فى علم الحساب» و «جامع الثمرات فى حساب المثلثات» للعلامة مصطفى باشا بهجت، أو «القانون الرياضى فى فن تخطيط الأراضى» لابراهيم بك رمضان، أو «الأقوال المرضية لأحمد باشا فايد، أو «غاية الفلاح فى أعمال الجراح» و «نشر الكلام فى جراحة الأقسام» للدكتور محمد على البقلى باشا، و «نزهة الإقبال فى مداواة الأطفال» للدكتور أحمد حسن الرشيدى بك ..

هذه عينة من الكتب التى ألفها علماء البعثات ووضعوا فيها خلاصة بحوثهم، وصارت هذه المؤلفات تشكل مناهج التدريس فى المدارس العالية التى أقامها محمد على، وتخرج فيها الرعيل الأول للطبقة المثقفة التى حملت عبء النهضة العلمية فى القرن التاسع عشر، وإذا أردت ان تعرف حجم النقلة الهائلة فى الحياة الثقافية المصرية، فما عليك إلا أن تقارن بينها وبين ما كانت تفرزه القريحة المصرية الخاوية – قبل محمد على – من قشور سطحية، وتعليقات ضحلة على تراث الأسلاف، ناهيك عن الخرافات والخزعبلات التى كانت سائدة فى مصر والشرق .

• هؤلاء الرواد :

من المفيد، ونحن نقلب فى التراث العلمى لمشروع الدولة العصرية التى أقامها محمد على، أن نزيح الغبار عن هؤلاء الرواد، ونبحث فى أصولهم الإجتماعية، والبيئة التى خرجوا منها، والظروف التى عاشوا فيها أثناء اقامتهم فى فرنسا، حتى يتواصل حاضرنا بماضينا، وتتضح لنا معالم اللبنات الأولى فى الهرم الثقافى المصرى .

إن المعلومات القيمة التى جمعها عمر باشا طوسون فى كتابه الوثائقى عن «البعثات العلمية فى عهد محمد على» تعطينا صورة وافية عن حجم هذه البعثات والعلوم التى درسوها والرتبات التى كانت تمنح لهم .

ولكن لم يتطرق عمر باشا طوسون إلى القواعد التى تم على أساسها اختيار هؤلاء المبعوثين، أو الجهات التى رشحتهم، أو الأصول الاجتماعية لهم، وان كانت البيانات التحليلية تدل على أنها كانت تضم مسلمين ومسيحيين، ومصريين وغير مصريين ينتسبون إلى أصول تركية وشركسية وأرمن وقوقاز وسودان وأحباش من أبناء كبار الموظفين أو الرقيق الذين كانوا يعملون فى خدمة ولى النعم، كما كانت تضم تلاميذ ينتمون إلى عامة المصريين الذين توفرت لهم فرص التعليم .

لقد اعتمد عمر طوسون فى تأريخه على التقارير التى وضعها عنهم مسيو «جومار» المشرف على البعثات ولكنه اكتشف بعض الأخطاء فى بيانات الطلاب، فصححها بالرجوع إلى دفاتر دار المحفوظات المصرية بالقلعة. ومع ذلك فقد عانى المؤلف معاناة جمة فى تمحيص هذه الدفاتر لأنها كانت «تقتصر على الناحية المالية فقط وما كان يصرف لهم من مرتبات فضلا عن سقم أسلوبها، وتعدد الكاتبين لها بأقلام مختلفة يزيد بعضها على بعض فى الرداءة وعدم تحرى التدقيق فى كتابتها بوجه عام، مما يجعلنا نلقى أشد العناء فى استخلاصها. فقد كان القصد منها لم يكن اكثر من قيد ما أنفق على التلاميذ فهى دفاتر حساب لا أكثر ولا أقل، أو دفاتر أصول وخصوم، وذكر اسماء التلاميذ فيها إنما جاء عرضا ضرورة أن لكل منهم حسابا، فلم يكن من الأمور المهمة فى نظر كاتبيها ذكر أسمائهم واضحة جلية مقرونة بما يميز بعضها عن بعض، ولا ذكر العلم الذى كان يتعلمه كل واحد منهم، وقد يكون هناك عدة أشخاص يحملون اسما واحدا .. وأدهى من ذلك ان يذكر الاسم بأكثر من صيغة .. مثل اسم الشيخ رفاعة رافع، فلم يكتب فى هذه الدفاتر إلا هكذا «الشيخ رفاعى» .. الخ» .

وقد اجتهد عمر طوسون فى تحقيق أسماء الطلاب والعلوم أو الصنائع التى تخصصوا فيها والمراكز التى شغلوها مستعينا بما ذكره على باشا مبارك فى الخطط التوفيقية .. وبذلك توفرت لنا حصيلة جيدة من المعلومات .

• البعثة الأولى:

كانت البعثة الأولى التى ذهبت إلى فرنسا فى صيف ١٨٢٦ تضم ٤٠ طالباً بخلاف الشيخ رفاعة «إمام البعثة»، وأحمد أفندى مختار المسئول الادارى عنها، ثم التحق بهم فيما بعد اثنان، وقد نجحوا جميعا فى الامتحانات النهائية، فيما عدا خمسة لأسباب تعود إلى نقص كفاءتهم او مرضهم . وبذلك يكون العدد النهائى لخريجى هذه البعثة ٣٩ شخصا. يقول عنهم كلوت بك إن منهم (١١) تخصصوا فى علوم الادارة الحربية والمدنية والسياسية و (٨) فى علم الادارة البحرية والمدفعية والهندسة العسكرية و (٢) فى الطب والجراحة و (٥) فى الفلاحة والتاريخ الطبيعى والمعادن و (٤) فى العلوم الكيميائية و (٤) فى علم الهيدرولكيا «قوى المياه» وفن صب المعادن وصناعة الأسلحة و (٣) فى الحفر والطباعة. وواحدا فى فن العمارة، وواحدا فى فن الترجمة هو الطهطاوى. وإليك بيانات شخصية عن بعض هؤلاء المبعوثين والأعمال التى قاموا بها بعد عودتهم إلى مصر :

• أرتين أفندى سكياس الأرمنى:

تخصص فى علم الادارة الملكية. كان مرتبه الشهرى ثلاثمائة قرش، عين بعد عودته مديرا لمدرسة الادارة والترجمة بالقلعة، ثم عضوا فى المجلس الاعلى للحكومة فعضوا فى مجلس ديوان

المدارس، وفى سنة ١٨٣٩ عين سكرتيرا لولى النعم، ثم تقلد نظارة الخارجية والتجارة خلفا لباغوص بك الأرمنى (خال نوبار باشا) وفى سنة ١٨٥٠ اعتزل الوظائف إلى أن توفى سنة ١٨٥٩. وهو والد يعقوب أرتين باشا صاحب المؤلفات المعروفة عن الملكية الزراعية والذى صار وكيلا لنظارة المعارف حتى عهد عباس الثانى

*** محمد خسرو تيمور أفندى الكرجى :**

(من چورچيا) : أرسل لتعلم الإدارة الملكية. وكان راتبه الشهرى خمسمائة قرش، مرض بأوربا وتكلف علاجه فى النمسا ٢٢٩٠ قرشا و ٣٦ فضة. وعاد من فرنسا سنة ١٨٣١ ويظهر أنه توفى على إثر رجوعه .

● دويدار مصطفى مختار أفندى :

أرسل لتعلم الادارة الحربية وكان راتبه الشهرى ٢٩١ قرشا وبعد رجوعه عين عضوا فى المجلس الاعلى للحكومة ومديرا لديوان الحربية، ثم مديرا لديوان المدارس فكان أول ناظر للمعارف فى مصر، وفى عهده أنشئت عدة مدارس .

● رشيد أفندى أباظة :

أرسل لتعلم الادارة الحربية وكان راتبه الشهرى خمسمائة قرش ومما تعلمه صناعة الرصاص .

• أحمد يكن مصطفى أفندى القوللى :

ينتسب إلى (قوله) مسقط رأس محمد على ومن الأسرة اليكنية. وارسل لتعلم الادارة الحربية وكان راتبه الشهرى خمسمائة قرش. وتعلم صناعة الرصاص. ورجع ومعه كتب كثيرة فى الفنون الحربية.

• حسن الإسكندرانى أفندى :

أرسل للتعليم فى ترسانة (برست) ثم سافر إلى انجلترا للسياحة وتطبيق العلم على العمل مع زميليه محمود أفندى نامى ومحمد أفندى شنان وتكلفوا فيها مدة سنة، ١٧٤٧ قرشا و ٢٠ فضة، وكان راتبه الشهرى ٤١٦ قرشا وبعد رجوعه حاز لقب باشا وصار ناظر البحرية فقائدا للاسطول ولقى حتفه على ظهر السفينة (مفتاح جهاد) التى غرقت فى حرب القرم سنة ١٨٥٥ .

• محمد بيومى أفندى :

درس العلوم الرياضية وكان مرتبه مائة قرش، وبعد رجوعه صار كبير الاساتذة بمدرسة المهندسخانة ومن نوابغ علماء الرياضيات، ولد بمصر وأصله من دهشور بمديرية الجيزة، وصار استاذا ومرجعا لعلماء الهندسة المصريين ثم انتقل إلى قلم الترجمة بنظارة المعارف، واشترك مع رفاعة الطهطاوى فى العمل، وله جمله مؤلفات فى الهندسة والرياضيات. ونقم عليه عباس الأول فنفاه مدرسا للحساب بالمدرسة الابتدائية بالخرطوم وتوفى بها، قال عنه على

باشا مبارك : كان من أعظم رجال تلك الرسالة، حسن الاخلاق مهيبا جليلا ذا رأى حسن .

• محمد أفندى مظهر :

بعث إلى فرنسا لتلقى الهندسة بها، ثم سافر إلى انجلترا للسياحة وتطبيق العلم على العمل، وكان مرتبه الشهرى أربعمائة قرش، نبغ فى العلوم الهندسية والرياضية، وقد امتدحه المسيو «جومار» فى رسالته عن أعضاء البعثات وقال عنه : «إن نبوغ مظهر أفندى فى الرياضيات لما يسترعى النظر» ولما عاد إلى مصر عين ناظرا لمدرسة المدفعية (الطوبجية) بطرة، وهو الذى بنى منار الاسكندرية الكبير القائم فى رأس التين، واشترك مع مسيو «موجيل» بك فى بناء القناطر الخيرية، وأختص بالاشراف على انشاء قناطر فرع رشيد، ونال فى عهد اسماعيل رتبة الباشوية. ولما ظهر خلل فى بعض عيون هذه القناطر أرسل إلى فرنسا للنظر فى اصلاحها، ويطلق اسمه علي الشارع المعروف بالزمالك .

• أحمد طائل أفندى :

من قرية بلتان بالقليوبية أرسل إلى فرنسا لتعلم الهندسة وكان راتبه الشهرى خمسين قرشا. وعند عودته عين مدرسا فى مدرسة المهندسخانة للعلوم الميكانيكية والجبر، ثم مهندسا للركاب العالى، ثم نفى إلى الخرطوم فى عهد عباس الأول مدرسا بالمدرسة

الابتدائية بصحبة رفاعة الطهطاوى ومحمد بيومى، وعاد من منفاه فى عهد سعيد مصابا بالحمى، وتوفى بعد ليلتين من وصوله، قال عنه على مبارك : كان قصير القامة صغير الجسم، كثير الفهم، لا يبالى باكثر الأمور، وله جرأة وإقدام على الأمراء، وكان محبا للتلاميذ يرغب فى تعليمهم وأخذ عنه جميعهم .

• أحمد فايد باشا :

من كياد بمديرية القليوبية، تخصص فى دراسة الهندسة والكيمياء والرياضيات وكان راتبه الشهرى خمسين قرشا، ولما عاد إلى مصر عين معيدا لدروس بهجت أفندى بمدرسة الطوبجية ثم مدرسا بالهندسخانة وصار من كبار أساتذتها ثم وكيلا لها، وتخرج على يده كثير من المهندسين الكبار، وله مولفات فى الهندسة والرى منها (تحرك السوائل) و (الدرة السنية فى الحسابات الهندسية) كم عمل فى السكك الحديدية حتى صار باشمهندس عموم السكك الحديدية المصرية وإليه يرجع الفضل فى مد خطوطها فى أكثر انحاء القطر، وباسمه سميت محطة (فايد) بخط السويس. ونال رتبة الباشوية قبل وفاته سنة ١٨٨٢ .

• أحمد بك دقلة :

من بسيون غربية نشأ فى مدارس مصر وأرسل ضمن طلبة البعثة الثانية سنة ١٨٢٨ وتخصص فى العلوم الرياضية وعاد سنة

١٨٣٥ وعين معيدا للاستاذ محمد بيومى فى مدرسة المهندسخانة ببولاق. ثم مدرسا لعلوم الجبر وهندسة الرى والقناطر والجسور ثم وكيلا للمدرسة وانتقل إلى قلم الهندسة. قال عنه على مبارك باشا فى الخطط التوفيقية : أكثر المهندسين الموجودين تلقوا عنه، وكان حسن الالقاء يجتهد فى التعليم، ويحث على الفهم وكان من أعظم المهندسين. وله من المؤلفات كتاب (رضاب الغانيات فى حساب المثلثات) مات سنة ١٨٥٦ .

• بعثة الصنائع :

وفى أول يناير ١٨٣٠ وصلت بعثة مصرية كبيرة إلى أوروبا مؤلفة من ٥٨ تلميذا لتلقى الفنون الآلية (الصنائع) من بينهم ٣٤ تلميذا ارسلوا إلى فرنسا، وأربعة إلى النمسا، وعشرون إلى انجلترا، ولم يعثر عمر طوسون على أسمائهم فى دفاتر دار المحفوظات، ولكنه عثر على بعضهم فى مصادر اخرى، ولم تحدد لهم مرتبات شهرية فى الدفاتر، بل كان كل واحد منهم يأخذ فى كل أسبوع مبلغا يسيرا من الفرنكات بمثابة «مصروف يد». ويزداد هذا المصروف لبعضهم إذا تفوق فى صنعته. ويذكر عمر طوسون ان هؤلاء التلاميذ كانوا يتعلمون بجانب صنائعهم أمورا مهمة منها ما يرتبط بالصنائع كالرياضيات والرسم، ومنها ما يرتبط باللغة الفرنسية، حتى كان كثير منهم يتلقى علم البيان فى اللغة الفرنسية على أساتذة متخصصين. وإليك بعض البيانات عن هؤلاء كما وردت فى دفاتر دار المحفوظات :

• عبدالرحمن :

ولم يذكر بقية الاسم أرسل لتعلم صنعة آلات الجراحة فى مصنع المسيو «سيرايزى» وكانت أجرة تعليمه فى سنة، ١٦١١ فرنكا و ١٥ صلديا (٤٨٣٥ وربع قرش) على اعتبار ان الفرنك يساوى ثلاثة قروش .

أما التلميذ فكان يحصل على فرنكين صحيحين كل اسبوع ثم صار أربعة فرنكات (١٦ قرشا) وعند عودته إلى مصر تسلم ٢٠٠ فرنك مكافأة له على نجاحه الباهر .

• محمد حاكم :

ارسل إلى فرنسا لتعلم صناعة الساعات فى مصنع الساعات بمدينة ليون، وكان يأخذ في الاسبوع ثلاثة فرنكات (١٢ قرش) ثم صرف له مبلغ ١٨٦٤ فرنكات ثمن كتب وآلات. وكان يتلقى ايضا علم البيان فى اللغة الفرنسية على استاذ فرنسى وتسلم عند عودته «بقشيش» قدرة «٢٠٠ فرنك» .

• إبراهيم العتال :

ارسل لتعلم الصياغة والجواهر. وقد أنعم عليه فى اثناء تعليمه بمبلغ عشرين فرنكا لتفوقه فى تعلم صناعة الصياغة. وتسلم ٢٠٠ فرنك بقشيش قبل عودته .

• حسين محمد :

أرسل لتعلم صناعة الشمع وكان يأخذ كل اسبوع فرنكا واحدا، وعند عودته إلى مصر اعطى له مبلغ خمسين قرشا مكافأة .

• مصطفى الزرابى :

ارسل لتعلم صناعة المنسوجات الحريرية فى فابريقة بمدينة ليون ومنها سافر إلى لندن وكانت تكاليف تعليمه ٩٧٣ فرنكا وكان يأخذ فى الاسبوع فرنكين .

• محمد إسماعيل :

أرسل إلى فرنسا لتعلم النقش والدهان بالمبانى، وتعلم فى فابريقة مسيو غارنى النقاش وتعلم علم البيان الفرنسي على يد أستاذ متخصص، وكان مرتبه فرنكين ارتفعت إلى ثلاثة فى الاسبوع .

• سليمان البهناوى :

من قرية بهناى بالمنوفية، أرسل لتعلم صناعة السروجية فى فابريقة مسيو هنرى، وسافر إلى لندن وعاد إلى فرنسا وأُنعم عليه بمبلغ ٢٠ فرنكا ومبلغ ٥٩٩ فرنكا ثمن قطع حديد وجلد وآلات .

• **محمد يوسف:**

ارسل إلى فرنسا لتعلم صناعة الاحذية أو الجزم والمراكيب كما فى الدفاتر. وقد مرض هناك وصرفت عليه مصروفات علاج كثيرة ثم شفى وعاد إلى صنعتـه ثم عاوده المرض وتوفى. وصـرف على خرجتـه مبلغ ٣٨٠ فرنكا و ١٠ صـلادى (٥. ١١٤١ من القروش) وصرف على قبره ٣٠٨ فرنكات : ١٨ ثمن سرير + ١٩٠ ثمن حجر رخام + ١٠٠ اجرة كتابة اسمه بالعربى والفرنساوى على الرخام .

• **عبد الرب:**

كان يتعلم صناعة الاجواخ بفابريقة مسيو أملدلون وكان يأخذ فى الاسبوع ثلاثة فرنكات وكانت أجرة تعليمه فى سنة، مبلغ ٣٦١٩ فرنكا .

* **خليل البـقلى** : كان يتعلم بفابريقة (قلمار) ومعناه مصنع الرسم بالقلم أو بصم الشيت. وكان راتبه الشـهرى ٣٢ فرنكا وقد توجه به مسيو جومار وقال عليه فى تعلم صناعة النقش بتكاليف بلغت ١٠٨٩ فرنكا فى ثمانية أشهر .

* **هنرى روسى** : ابن الخواجة روسى ناظر فابريقة دباغة الجلود برشيد فى عهد محمد على. وهو التلميذ الوحيد في بعثة الصنائع من حيث جنسيته الاوروبية ومن حيث أنه كان يأخذ مرتبا شـهريا طوال مدة بعثته. وكانت والدته بفرنسا وكان يزورها كثيرا كما ورد

فى دفـاتر المحـفـوظات، وجـاء عنه أنه كـان يتـعلم الرياضـيـات والكيمياء. وكانت اجرة تعليمه فى سنة، ٢٦١٥ فرنكا و ١٥ صلديا وقد اشتريت له ساعة ذهبية بمبلغ ٣٢٤ فرنكا عقب قيامه بامتحان فـاز فيـه. وكـان مرتبـه الشـهرى ١٠٠ قرش وعـاد إلى مـصر عـام ١٨٣٦

الساعات الأخيرة
فى حياة الخديو إسماعيل

فى صباح يوم ٣٠ يونيه ١٨٧٩ نهض الخديو المخلوع إسماعيل من نومه بعد آخر ليلة قضاها فى قصر عابدين، القصر الذى بناه وجعل منه تحفة معمارية ومقراً للحكم بعد أن ظلت القلعة المقر الرسمى لحكام مصر منذ صلاح الدين الأيوبى، هبط اسماعيل الى الطابق الأرضى فوجد فى انتظاره جمع غفير من الأمراء والوزراء والكبراء والتجار والأعيان، جاءوا لتوديع أميرهم الوداع الأخير بعد أن عاشوا فى كنفه سبعة عشر عاما كانت أشبه بزلزال هز مصر من أعماقها ونقلها الى مشارف المدنية الحديثة، ثم هبط بها إلى هاوية الدمار والوقوع فى براثن النفوذ الأجنبى، وها هو اسماعيل يطوى صفحته الأخيرة بخيرها وشرها، ويستعد لمغادرة البلد الذى أراد أن يجعله قطعة من أوربا، فإذا بأوربا تتآمر عليه، وتجمع كلمتها على إقصائه ونفيه من مصر، بعد أن استشعرت الخطر من تصاعد النزعة الوطنية والتفافها حول اسماعيل .

عندما حانت الساعة الحاديه عشر، جاء الخديو الجديد - محمد توفيق - ليصحب أباه الى مثواه الأخير، وليس فى هذا الوصف مبالغة أو خطأ، فقد كتبت نهاية اسماعيل الحقيقية يوم غادر مصر، ولسوف تصبح السنوات التى سيعيشها اسماعيل فى المنافى، مجرد محطة انتظار لليوم الذى يغادر فيه الدنيا بأسرها، وصافح اسماعيل ضيوفه فردا فردا .. ثم غادر القصر متوكئا على ذراع ابنه توفيق، واستقل الاثنان العربة الخديوية ومن خلفها عربات الأمراء والكبراء وقطع الموكب شوارع القاهرة وقد خيم عليها صمت حزين بعد أن كانت تضج بالصخب فى أيام العاهل المخلوع، ولم يكن هناك من مراسم الوداع الرسمى سوى صفين من الجنود اصطفوا على الجانبين، أما الناس فكانوا بين حزين على نهاية الخديو الذى فرط فى الأمانة، ولم يحافظ على السفينة من العواصف والأنواء، وبين شامت فى الرجل الذى جر البلاء على البلاد وجعلها رهينة للمرابين والأفاقين وشذاذ الآفاق .

وحين بلغ الركب محطة العاصمة، ترجل اسماعيل الى الرصيف حيث يقف القطار الذى سيحمله الى الاسكندرية، بينما وقفت عربات مسدولة الستائر تنطلق منها صيحات البكاء والنحيب من بعض النسوة لعلهن بقايا الحريم اللاتى قرر اسماعيل تركهن فى مصر، بعد أن أنتقى منهن من تصلح لمرافقته فى حياته الجديدة، ولكن المفاجأة كانت فى انطلاق الزغاريد من بعض جوانب المحطة،

قيل انهن من حريم اسماعيل باشا صديق «المفتش» جئن يبدين الشماته والتهكم على الرَجل الذى قتل سيدهن غيلة، ووجد اسماعيل على رصيف القطار عددا من كبار المودعين. فقال لهم : إنى، وأنا تارك مصر أعهد بالخديو، ابنى، إلى ولائكم وإخلاصكم. وعندئذ تقدم توفيق فقبل يد أبيه، عندما قال له اسماعيل وهو يجهش بالبكاء : كنت أود يا أعز البنين، لو استطعت منع بعض المصاعب التى أخشى أن تسبب لك ارتباكا، على أنى واثق من حزمك وعزمك، وأوصيك بأخوانك، وسائر الآل براً .. فاتبع رأى ذوى شوراك، وكن يا بنى أسعد حالا من أبيك .

الطائر الشريد يبحث عن عش

وحانت لحظة الرحيل، فصعد إسماعيل الى عربته الخاصة، وترك القطار ليشق الطريق وسط المزارع المترامية فى دلتا النيل، وأخذ إسماعيل يتطلع الى الارض الخضراء تتخللها المساقى والطرق والقرى والمدن، ويملأ عينيه من مناظرها عساها تخفف عنه لوعة الفراق حين يقضى ما تبقى له من عمر فى بلاد الفرنجة، لقد كان يود أن يمضى أيامه الأخيرة فى بلاد العثمانيين أو فى أى بلد شرقى، وبعث الى السلطان عبد الحميد يستعطفه حتى يسمح له بما يريد، ولكن أبى السلطان أن يسمح له بالإقامة فى أى ارض من ممتلكاته، فإلى أين يذهب الطائر الشريد ؟ وفى أى عش يجد السكن والراحة النفسية ؟ وعلم ملك إيطاليا «اومبرتو» بقرار

السلطان، فبعث الى إسماعيل يبدى استعداده لقبوله ضيفا على إيطاليا وتخصيص قصر فخم يقيم فيه يقع فى أرقى نواحى مدينة نابولى، وقبل اسماعيل العرض من هذا العاهل شاكرا له وفاءه لذكرى أبيه الملك فيكتور عمانوئيل الذى كانت تربطه بالخديو مودّة حميمة، ولعل اسماعيل .. والقطار ينهب الارض قد جاشت على خاطره ذكريات الأيام الخوالى عندما كان يهبط العواصم الأوربية، فترتج المجتمعات، وتلبس المدن أحسن حللها وتبدى أجمل زينتها، وتتهيأ لاستقبال العاهل الشرقى الذى يذكرهم بملوك الف ليلة وليلة حيث ينثر عليهم القناطير المقنطرة من الذهب والفضة، ترى .. كيف تستقبله هذه المجتمعات بعد أن زال عنه المجد، وجفت من يده الأموال .. وصارت خزينته خاوية إلا من الذكريات (!!)

غروب ليس له شروق

أفاق اسماعيل من غفوته على عجلات القطار وقد توقفت عن صريرها الرتيب، فعلم أنه قد بلغ الاسكندرية، وركب اسماعيل وصحبه عربات مقفولة أقلتهم الى الترسانة، ومنها حملتهم القوارب الى داخل البحر حيث ترسو «المحروسة» وقد أزدحم سطحها بجمع من ذوى المقامات الرفيعة، وتمالك اسماعيل نفسه ليظهر أمام مودعيه رابط الجأش، فأخذ يلاطفهم واحد واحدا .. ويداعبهم بعبارات الود لعلها تذيب جبل الشجن الذى تراكم على قلبه، وكان من الصعب عليه أن يواصل تمثيل دور البطل الذى لا تهزه المحن،

فترك مودعيه، وأوى الى غرفته فى جوف السفينة، وعندئذ غادرها المودعون، ورفعت المحروسة مراسيها وبدأت تمخر العباب بينما السفن الراسيه فى الميناء، والمدافع المنصوبة على طابية كوم الناضورة تطلق مدافعها تحية لخديو مصر المخلوع وهو يغادر أرض مصر للمرة الأخيرة، وبينما كانت الشمس تلقى بنفسها عند حد الأفق حيث تختلط زرقة الماء بزرقة السماء، كانت شمس اسماعيل تسقط فى الغروب الذى يؤذن بليل أبدى ليس له شروق(!!)

وعندما حطت المحروسة رحلها على رصيف ميناء نابولى، لم يهبط اسماعيل، وظل قابعا فى جوفها خمسة عشر يوما، كان الأمل يراوده بأن تسمح حكومة مصر ببقاء المحروسة فى حوزته، فهى آخر قطعة يشم منها ثرى مصر ويتمنى أن يقضى فيها بقية عمره، ولكن الحكومة المصرية رفضت، وهددته بأن تقطع عنه راتبه السنوى إذا استولى على السفينة .

وعادت المحروسة الى مصر، ونزل اسماعيل فى القصر الذى تحيط به الحدائق البديعة، وعلى البعد منه يبدو بركان فيزوف الذى تهدر النار من قمته ولكن .. كل هذه المناظر الخلاّبة والحياة الرخوة، لم تفلح فى إخماد الحريق الذى يتفجر فى قلب اسماعيل حنينا الى وطنه، وكلما سمع عن أحداث الثورة العرابية التى أخذت بخناق ابنه توفيق وتكاد تعصف بعرشه، كلما راوده الأمل فى العودة الى

مصر، وبعث بالمكاتبات الى ولده يستعطفه، ولكن توفيق كان صارما فى رفضه عودة أبيه إلى مصر، فلجأ اسماعيل إلى الحكومات الأوربية مبديا الندم على ما بدر منه، معلنا استعداده لتنفيذ كل مطالبها اذا سمحت له بالعودة إلى بلده، وكان موقف الدول الأوربية لا يقل صرامة عن موقف الابن الذى رأى فى عودة أبيه ضياعا لعرشه، فازداد به تشبثا خاصة بعد أن انحاز الى انجلترا انحيازا مخزيا وسمح لهم باحتلال مصر لضمان بقائه فى مقابل إخماد الثورة.

صدود وجحود ونكران

أخذ اسماعيل يتردد على العواصم الأوربية التى تعرفه جيدا، وتذكر إسرافه وسفهه وانفاقه الأموال على توافه الأمور بغير حساب، ولكن ... شتان بين زياراته السابقة، وزيارته لها وهو مخلوع خاوى الوفاض، لقد وجد أبواب الفنادق الفاخرة موصدة فى وجهه لأنه لا يستطيع الوفاء بنفقاتها، فكان يقيم فى أحقر الفنادق، وكان يطرق أبواب الوزراء والكبراء ورجال المال والبنوك الذين طالما تمرغوا فى كرمه، فلا يجد إلا الصدود والجحود. وارتأى اسماعيل أن يستعطف السلطان عبد الحميد ليسمح له بالإقامة فى قصره - الأمركون - الذى اشتراه على ضفاف البوسفور، وجعله مقرا ومنتجعا كلما اقتضته الظروف الحج الى كعبة السلطنة العثمانية ووافق عبد الحميد، وفرح اسماعيل، وما درى أنه كان كالمستجير

من الرمضاء بالنار، فقد كانت اقامته فى قصره أشبه بحياة العصفور فى القفص، أحاط به الجواسيس من كل ناحية، وضيقوا عليه الخناق حتى اعتلت صحته، وتكالبت عليه العلل والأمراض .

لقد ظن اسماعيل أنه سيجد فى كنف السلطان ما بخل به الزمان ومن بره وعطفه ما يرد إليه بعض هناء الماضى، ولكنه كان فى الحقيقة ينتقل من سجن الى سجن، ومن منفى واسع الرحاب الى معتقل ضيق الجناب، ولو علم اسماعيل أن حياته فى الأستانه شر من مقامه فى نابولى لما طلب هذه الأمنية، ولما استبدل القيد بالحرية. فقد عاش فى تركيا، تبقى له من عمر وهو معذب النفس، منهوك القوى، عليل الجسد، فاقد الأمل، لا يطمئن إلى الحياة، ولا تطمئن الحياة إليه، و لا يساله الدهر، ولا يستسلم إليه حتى أنه طلب من السلطان أن يسمح له بالسفر إلى مدينة (إمس) المشهورة بمياهها المعدنية، فكان رد السلطان : «عندك فى الاناضول مياه (بروصة) المعدنية تستطيع أن تذهب إليها للعلاج .. وقد سبق لك - أيام كنت خديو مصر أن استشفيت فيها، وأعلنت وقتها انها افضل من حمامات أوروبا بأسرها»

ثلاثة أمراض وثلاثة أحزان

وعندما جلس عباس حلمى الثانى - ابن توفيق - على عرش مصر، ذهب لزيارة جده فى منفاه، وتجددت مساعى اسماعيل للعودة الى مصر، ولكن تصرف عباس لم يكن أفضل من تصرف

أبيه، فتجاهل مطلب جده، إلى أن جاءت التقارير الطبيه تقول أن الحالة الصحية للخديو اسماعيل بلغت حد الخطر، وبينما كان الخديو عباس يشهد حفلا بدار الاوبرا تلقى برقيه تنذر بسوء الحال، فاستدعى أعمامه واستشارهم، واستقر الرأى على أن يسافر الأمير أحمد فؤاد والأمير ابراهيم حلمى ليكونا بجانب والدهما ريثما يسعى عباس لعودة جده الى مصر، وفى صباح الغد استدعى عباس مجلس الوزراء وباحثهم فى الأمر، فأجمعوا على عدم الموافقة، خشية أن تجر عليهم عودة اسماعيل أزمه سياسية، فعارضهم الخديو عباس معارضه شديدة، ثم اضطر الى النزول على رأيهم، وسافر الأميران الى استانبول وبعثا ببرقية تحوى قرار الأطباء بأن اسماعيل مصاب بالالتهاب الرئوى، والسرطان المعوى، ومرض الاستسقاء .

لقد اجتمعت على الخديو اسماعيل ثلاثة أمراض، كما تحالفت عليه ثلاثة أحزان : حزنه على ضياع عرشه، وحزنه لخيبة مسعاه، وحزنه لفراق وطنه. لكن أحزانه كانت أشد إيلاما على نفسه من أمراضه، فعاد الخديو عباس يجتمع بالوزراء مرة، وثانية، وثالثة، ولكنهم أصروا على رفضهم عودته إلى مصر، واحتجوا بمعارضة الانجليز ورفض السلطان، واصدروا قرار بانتهاء البحث فى هذا الأمر. بينما كان اسماعيل يسير حثيثا إلى نهايته المفجعة .

للاستاذ طاهر الطناحى كتاب عنواته (ألحان الغروب) تناول فيها باسلوب أدبى شيق وبديع، اللحظات الأخيرة فى حياة المشاهير، ومنهم الخديو اسماعيل، وما لاقاه من عنت وقسوة وهو يعانى سكرات الموت، حتى ان الخديو عباس ساءه موقف مجلس الوزراء منه ومن جده، فبعث بسردار الجيش المصرى الاسبق «محمد راتب باشا» إلى الأستانة ليكرر الرجاء فى عوده اسماعيل رفقا بصحته، فلم يظفر بالقبول، وقست الأقدار على الخديو اسماعيل، وهو على فراش الموت، وعبست له فى أيامه الأخيرة بعد ما ابتسمت له فى الأيام الخوالى، واستسلم اسماعيل، ويأس من رجوعه إلى مصر حتى فى أيام سقمه، واستوت عنده الحياة والموت، بل كان الموت أهون على نفسه، وأشوق إلى قلبه من حياة عزل فيها عن عرشه، وحرم فيها من وطنه، وعانى فيها أشد الآلام .

وفى ١٧ يناير ١٨٩٥ تنبه اسماعيل من إغماء طويل أصابه، فاستدعى نجليه الأميرين أحمد فؤاد وابراهيم حلمى، وقال وهو يطارد عن نفسه الألم : «اذا مت فادفنونى فى مصر، مقر جدى وأبى، وموطن الآمى وأحلامى الذى عشت له، وتمنيت سعادته، وحرم علىّ العودة إليه»

ولما انصرف الاميران بعثا بهذه الوصية الى مصر، فأعد الخديو عباس قبرا فخما لجده فى مسجد الرفاعى، ومكث المريض العظيم

يعانى الآلام الفظيعة عدة أسابيع، وفى يوم ٢ مارس ١٨٩٥ لفظ النفس الأخير، فمضت روحه الى السماء تكشو عالم الأحياء الذى لا يرحم شيخاً من شيخوخته، ولا مريضاً فى مرضه، ولا محتضرا على فراش موته. مات اسماعيل بعد ما قضى ستة عشر عاما فى منفاه، وإذا كان الموت يحل المشكلات، ويذلل الصعاب، فقد حل موت اسماعيل تلك المشكلة الكبرى، والصعوبة العظمى التى تحطمت عندها جهود الأمراء، وتخاذلت أمامها مساعى العظماء، فما كاد يذيع نعيه فى البلاد، حتى سمح السلطان بنقل جثمانه إلى مصر، فعاد فى موكب حافل، ليس أشد إيلاما من موكب خروجه من وطنه، هذا الخروج الذى طوى آخر صفحة من حكمه، كما طوى الموت آخر صفحة من حياته فى هذه الدنيا .

عبيد وباشوات

كان الجوارى والعبيد يشكلون ركنا أساسيا فى كيان البيت المصرى حتى نهايات القرن التاسع عشر، ويندر أن يخلو بيت من بيوت الطبقة الوسطى من غلام أو فتاة من الرقيق السود أو الأحباش، أما الجوارى البيض، باهظات الثمن، فلا يوجدن إلا فى قصور العلية الحاكمين ومن يلوذ بهم من أعيان الترك والشركس، ويجلبن عن طريق النخاسين – تجار الرقيق – من أسواق القوقاز وبلاد القفجاق وسواحل البحر الأسود، وبعد حروب محمد على فى اليونان : دخل عنصر جديد فى سلك الجوارى البيض، وهن السبايا اليونانيات اللاتى عاد بهم جيش إبراهيم باشا من المورة، ويخضعن لتنشئة دينيه وتثقيفية مثل عزف الموسيقى وآداب القصور مما يؤهلن للحياة الجديدة. إلى أن يتم إهداؤهن أو تزويجهن من أفراد الأسرة العلوية أو من كبار ضباط الجيش أو الوزراء أو المديرين وكلهم من أعوان الخديوية .

ومن المفارقات الغريبة أن إحدى الجوارى اليونانيات .. واسمها نمراز - وكانت ضمن سرب السبايا، التحقت كوصيفة بقصر ابراهيم باشا، فقام بتزويجها من أحد رجال معيتة وهو رجل تركى اسمه أحمد حليم النجده لى، وأنجب منها فتاتين، تزوج إحداهما على بك شوقى وهو كردى تجرى فى عروقه الدماء العربية، فأنجبت له أمير الشعراء أحمد شوقى بك الذى عاش فى كنف جدته اليونانية «نمراز» بعد وفاة أبويه فكانت تصحبه معها وهو طفل الى قصر عابدين، حيث حظى باهتمام الخديو اسماعيل وظل شوقى طوال حياته وفيا لإسماعيل وأبنائه، وهو القائل لمن لامه على ميوله الخديوية :

أأخون إسماعيل فى أولاده

ولقد ولدت بباب إسماعيلا !

ورغم أن إسماعيلساير، فى الظاهر، الاتجاهات الأوروبية الحديثة لالغاء الرقيق، ورغم تأييده للدعوات التى تصاعدت فى انجلترا للقضاء على هذه التجارة المشينة، إلا أنه كان فى الحقيقه من المكثرين فى اقتناء الرقيق، وكانت قصوره الغناء تضم حوالى ألفين من الجوارى والمحظيات من شتى الألوان والأعراق، وكن يجدن عنده الرعاية والحياة الرغيدة، ولا يسمح لرجل بالنظر إليهن، وكان إسماعيل يقوم بإهدائهن الى كبار أعوانه فيتحولن الى زوجات مصونات أنجبن معظم الوزراء والساسة الذين شغلوا تاريخ مصر

فيما بعد. وكانت قصور هؤلاء العلية، صورة مصغرة من قصور سيدهم، وتضم فى حريمها أسرابا من الجوارى والعبيد ويكفى أن نلقى نظرة على التركة التى خلفها أحدهم، وهو الوزير المشهور اسماعيل باشا صديق (المفتش) لتعرف كم كان الجوارى يشكلون قطاعا كبيرا من ممتلكات هذا الرجل الذى نشأ من قاع المجتمع فى بيئة فقيرة، ثم أتاحت له المقادير أن يكون أخا للخديوى من الرضاع، فانفتح أمامه الطريق الى أعلا المراتب، حتى صار المتحكم فى مالية مصر، ولكنه لم يحفظ النعمة وتحول الى «شيخ منسر»، وسطا على الأموال والأراضى، وكان من أسباب إغراق مصر فى الديون، وبنى القصور الفخيمة وفرشها بأغلى الرياش، وزينها بأجمل الجوارى، فلما انقلب عليه الخديوى وأمر بقتله، بيعت جميع ممتلكاته فى المزاد، وشهد المزاد قناصل الدول الاجنبيه مما أثار تعجبهم من سفاهة الرجل، ومن هؤلاء السفير الأمريكى «إدون دى ليون» فروى مشاهداته فى كتاب عنوانه (مصر الخديوى) «ومال كون» فى كتابه (مصر فى عهد اسماعيل) والمؤرخ الانجليزى المعروف «ألفرد بتلر» فى كتابه (حياة البلاط فى مصر) وكلهم نشروا معلومات تفوق الخيال، أوردها إلياس الأيوبى فى كتابه (تاريخ مصر فى عهد الخديوى إسماعيل باشا) أقتبس منها الفقرات التالية التى تناسب موضوعنا :

وأما الجوارى فكن يزدن على سبعمائة، ما بين حورية شركسية بيضاء، ذات ثمن يفوق كل تقدير، وخمرية مسكرة، وسمراء غانجة، وحبشية شعرية ذات أعين بقرية، وبرونزية موشومة ذات نهود سفرجلية، وسودانية فحماء متقدة الدم الهائج.

وعند تصفية المزاد، اختير من الجوارى أجملهن خلقا، وأخفهن دما، وأدخلن فى الحريم الخديوى (لاحظ نفاق المؤرخ الأيوبى لسيده) أو أهدين الى كبار ضباط الجيش وكبار رجال الدولة، والباقيات بيعت الى من شاء شراءهن من الأفراد والنخاسين .

أما زوجات (المفتش) فما بين رعيات وسرارى، فكن ستا وثلاثين، لكل واحدة منهن ست جوار بيض، وجم غفير من الجوارى السود مخصصات لخدمتها، بحيث كان الساكنات داخل تلك القصور الثلاثة يوازى عدد سكان قرية صغيرة (!!)

السود والأحباش

كان اقتناء الجوارى البيض مقصورا على الطبقة الحاكمة، أما أثرياء الطبقة الوسطى فكان فى مقدورهم شراء السود والأحباش من الذكور بسبب رخص أسعارهم، فثمن الولد أو البنت السوداء لا يزيد على اثنى عشر جنيها، أما الأحباش فأغلى قليلا .. فيتراوح سعر الولد ما بين عشرين ومائة جنيه، أما سعر الجارية البيضاء فقد يصل إلى ألف جنية بسبب ما تتمتع به من مؤهلات وخبرة فى

إدارة شئون القصر، واصدار التعليمات الى من دونها من الجوارى الحبشيات أو الخصيان الذين لا يخشى من اختلاطهم بالحريم بعد أن أزيلت عناصر الذكورة من أجسامهم، وكانت هذه العملية البشعة تجرى لهم فى بعض الأديرة بأسيوط وفيها رهبان متخصصون فى ذلك. وكان ٩٠ ٪ من هؤلاء الصبية يموتون بسبب عملية الإخصاء، ولا يبقى سوى ١٠ ٪ يتكالب الأثرياء على شرائهم، ولذا كان سعرهم غاليا .

وكانت العصابات تنقض على قرى السود فى أدغال افريقيا وتقتنص منها من يوقعه سوء الحظ فى براثن هذه العصابات، ثم يساقون فى المراكب النيلية الى القاهرة حيث يباعون الى تجار الرقيق فى أسواق معروفة بالقاهرة والاسكندرية والمدن الكبرى. وكان هؤلاء التعساء يلقون أسوأ المعاملة من النخاسين، حتى أن بعض الغلمان العبيد كان يؤثر إغراق نفسه فى النيل على هذه الحياة القاسية. أما الجوارى البيض فكان الجلابون يشترونهن من أسواق بلادهم الأصليه باختيار وطواعية من ابائهن، وكان الآباء يعرضون بناتهم للبيع بدافع الفقر، أو سعيا وراء المستقبل الزاهر لبناتهم فى القصور المصرية، حيث يتمرغن فى النعيم، وتتاح لهن الفرصة للصعود إلى المراتب العليا كما حدث لأسلافهم المماليك، وكما حدث لشجرة الدر .

ومن خلال الصورة الوصفية التى يقدمها لنا المؤرخ الانجليزى «إدوار وليم لين» يمكن استخلاص الحالة التى كان عليها الجوارى فى مصر خلال القرن التاسع عشر .

وكان هذا الباحث قد هجر دراسته فى جامعة كمبردج، ويمم صوب مصر فى عام ١٨٢٥ مأخوذا بسحر الشرق، وهو أول من ترجم ألف ليلة وليلة الى اللغة الانجليزية، وفى القاهرة درس الرجل علم الاسلام واندمج فى الحياة المصرية اندماجا غريبا حتى أنه كان يؤدى الصلوات فى المساجد ويرتدى الملابس القاهرية حتى ظنه الناس تركيا، وتغلغل فى أعمق اعماق الحياة المصرية حتى وقف على دقائقها وأسرارها، ودخل البيوت وعرف ما يدور فيها من تقاليد وعادات بعد أن وثق فيه المصريون وأطلعوه على أدق أسرارهم الاجتماعية، وجمع كل ذلك فى كتابه الشهير (عادات المصريين المحدثين وتقاليدهم) وترجمه سمير دسّوم وفى الجزء الذى يتعلق بالجوارى والعبيد، نفهم من ملاحظات إدوار وليم لين ان الجارية السوداء كانت عنصرا ضروريا فى (شوار) العروس عند زواجها، فيشترى لها أبوها جارية تقوم على خدمتها بعد انتقالها الى بيت الزوجية، ولا يسمح للزوج بأن يخالطها بدون إذن سيدتها، وكان هذا السماح يحدث فى أحوال نادرة، وغالبا ما تمنع الزوجة جاريتها من الظهور سافرة الوجه فى حضور الزوج، فإذا اختلطت

به وأنجبت منه : يكون المولود عبدا .. إلا إذا قامت الزوجة بالتنازل عن ملكية الجارية للزوج .

أما الجوارى فى منازل المصريين المنتمين إلى الطبقة الميسورة أو المتوسطة : فهن حبشيات على وجه العموم ذوات سحنة داكنة برونزية، ولا يدل ذلك على نسبتهن إلى بلاد الحبشة، بل أراضى (الجلاّش) المجاورة، ومعظمهن بهيات الطلعة يجمعن بين العرق الزنجى والأبيض، وهن مقتنعات بأنهن لا يختلفن عن السكان البيض إلا اختلافا بسيطا، ولا يمكن بالتالى إقناعهن بالعمل كخادمات، وتقديم الطاعة المطلقة لزوجات أسيادهن، وشعور الجارية السوداء مشابه لشعور زميلتها الحبشية، ولكنها لا تمانع قط فى خدمة السيدات البيض، ويقع عليها عبء الخدمات الوضيعة فى البيت يقول إدوار لين أن معظم الجوارى البيض اللاتى رآهم فى مصر، كن من اليونانيات السبايا، وهن غالبا محظيات لكبار الأتراك. وأحيانا زوجات لهم، لأنهم يفضلونهن على نساء مصر الأحرار، ويتمتعن بمرتبة أعلى من المصريات بين العامة، فهن يرتدين ثيابا فاخرة، ويتزين بأغلى المجوهرات، وينغمسن فى كل وسائل الترفيه المتوفرة لهن، وقد رفضت معظمهم إعطائهن حريتهن بعد أن طابت لهن الحياة الجديدة فى مجتمع القصور، ويقمن على راحة الهوانم التركيات، أو احتمال مداعبات سيدها العجوز المخرف، فاذا أظهرت الملل أو الامتعاض (تطرح) للبيع من جديد -

مالم تكن حاملا – أو يتم إعتاقها وتزويجها من شخص يحيا حياة متواضعة لا يستطيع أن يؤمن لها الحياة الرغيدة التى اعتادت عليها .

ومن ملاحظات (لين) أن الجاريات يرتحن فى منازل الطبقة الوسطى فى مصر أكثر منه فى حريم الأغنياء، سواء كن محظيات فى حياتهن الجديدة، حيث لا توجد منافسات يؤرقن مضاجعهن، أو مجرد خادمات وضيعات، فخدماتهن فى الحالتين ضئيلة والقيود عليهن أقل .

وإن قامت علاقة بين الجارية البيضاء وسيدها الجديد، فوضعها كخليلة له أفضل من وضع الزوجة، فالزوج قد يطلق زوجته فى سورة غضب، فى حين لا يستطيع التخلى عن جاريته، إلا فى حالات نادرة جدا، وإن فعل فهو غير مضطر إلى إعالتها، وما عليه إلا أن يعتقها ويقدم لها مهرا، ويعمد الى تزويجها من شخص طيب السمعة، أو اهدائها إلى أحد من أصدقائه .

وعن عادات الجوارى والسيدات فى البيت المصرى خلال القرن التاسع عشر، كان يمكن للزوجة – كما للجارية – أن تتناول الطعام مع رب الأسرة، وأن تتعاطى التدخين، ويشهد (لين) من خلال تجربته الشخصية للزوجة المصرية بأنها طباخه ماهرة، ولديها خبرة فى تقديم أطباق لذيذة المذاق، وتعمل كل ما فى وسعها لإرضاء زوجها، وتعمد إلى اظهار مفاتنها والتفنن فى مشيتها لتلفت الانظار

إلى جمالها، أما فى حضور الزوج فتحتفظ له بالدلال والغندرة، لذا تراهن مسرورات ويطلقن العنان لمرحهن الصاخب فى مجتمع الحريم .

• حركة التحرير

ومن إنجلترا، فى نهاية القرن الثامن عشر، انبثقت الدعوة إلى تحرير العبيد، وبدأت من منطلق إنسانى وأخلاقى على يد رهط من طائفة «الكويكرز» الانجليكانية، ولقيت ترحيباً من بعض الأدباء والشعراء، مما شجعهم على التقدم بمشروع قانون لإبطال الرقيق، إلى البرلمان. ولقيت هذه الدعوة مقاومة من جانب الاستعماريين الذين كانوا يشرفون على تجارة الرقيق فى المستعمرات، فضلاً عن تسخيرهم العبيد فى المناجم والمزارع.

لم ييأس «الكويكرز» وواصلوا كفاحهم النبيل حتى تمكنوا فى سنة ١٧٨٨ من إقناع مجلس العموم بإصدار قرار يقضى بإبطال الإتجار فى الرقيق من دون أن يتضمن إبطال الرقيق نفسه، واقتدت فرنسا بإنجلترا فأصدرت قانونا مماثلا فى العام ١٨١٥ وهو العام الذى انعقد فه مؤتمر فيينا لتصفية امبراطورية بونابرت فأصدر المؤتمر قراراً بإبطال الرقيق. ومع ذلك ظلت ظاهرة اقتناء الرقيق سارية، فنشأت فى إنجلترا جمعية هدفها التخفيف من الويلات التى يعانيها الرقيق كخطوة لإبطاله تدريجاً. ولكن أصحاب الاتجاه الانسانى أصروا على إبطاله دفعة واحدة متسلحين بتأييد الرأى

العام، فأصدر مجلس العموم فى العام ١٨٣٢ قرار بتحريم الرقيق خلال عامين، واعتبار يوم أول (اغسطس) ١٨٣٤ موعداً نهائياً لتحرير عموم الرقيق، وتخصيص عشرين مليون جنيه لتعويض أصحاب الرقيق. وفى خلال سبع سنوات كان عدد «العبيد» الذين تم تحريرهم فى أملاك الهند الشرقية وحدها ١٢ مليوناً .

وسارت على الدرب نفسه دول أوروبية هى : السويد وفرنسا والدنمارك وهولندا، حتى إذا وصلت رياح «تحرير العبيد» الى الشرق، انتهزت انجلترا فرصة اندحار دولة محمد على، وحصره داخل حدود مصر، فتدخلت لدى السلطان العثمانى عبد المجيد، ليضع فى فرمان ١٨٤١ نصاً يفرض على محمد على «إبطال صيد السود لأنه عمل لا يتفق مع مبادئ العدالة والانسانية»، ولم يعترض محمد على، ليس فقط لأنه كان عاجزاً عن الاعتراض، لكن لأنه لم يكن فى حاجة إلى «صيد السود» بعد أن فشلت محاولته تجنيدهم فى الجيش الذى كان بصدد تكوينه، واستعاض عنهم بالفلاحين المصريين .

وعلى رغم هذا الالتزام الرسمى من جانب محمد على، ظلت تجارة «العبيد» واصطيادهم من أدغال السودان قائمة، وفشلت الجهود التى بذلها ابنه وخليفته سعيد باشا الذى زار السودان وأقام محطات عسكرية لمراقبة النخاسة والقبض على النخاسين الذين كانوا يشحنون بضاعتهم الى مصر عن طريق النيل، أو عن

طريق الصحراء، ذلك لأن زعماء القبائل فى السودان كانوا يجنون أرباحاً طائلة من وراء هذه التجارة التى تلقى سوقاً رائجة فى مصر. فلما آل الحكم الى الخديو اسماعيل أعلن عزمه على إلغاء تجارة الرقيق تمشياً مع نزعته الأوروبية المتحررة، واسترضاء للموجة العصرية التى جرفته، فبعث الحملات العسكرية الى السودان لإغلاق مراكز «صيد السود» .

إلا أن جهود إسماعيل تعثرت بسبب عاملين مهمين :

أولاً : مقاومة الأثرياء المصريين والمتمصرين لهذه النزعة، انطلاقا من مفاهيم دينية ترى من إبطال الرقيق عملاً منافياً للشرع. إلى هذا كان إسماعيل نفسه من أكبر هواة جمع الرقيق.

ثانياً : أما المقاومة العملية لتحرير «العبيد»، فكانت من جانب التجار الأوروبيين الذين كانوا يحملون الرقيق من السودان فى مراكب ترفع أعلام الدول الأوروبية مما يعطيها حصانة تحول دون تفتيشها .

وألقى اسماعيل فى وجه المجتمع الأوروبى بهذه الحقيقة المزرية عندما سألوه أثناء زيارته لندن عن أسباب استمرار تجارة الرقيق فى السودان ومصر، ووصف التجار الأوروبيين بأنهم أكبر المجرمين لأنهم يتاجرون فى الرقيق ويشحنونهم فى المراكب التى ترفع رايات الدول الأوروبية، فإذا أوقفتهم الشرطة المصرية زعموا أن الرقيق نوتية (بحارة) وأن النساء زوجاتهم، والغلمان أولادهم .

واعترف بأنه ليس حراً فى الضرب على أيدى النخاسين الأوروبيين، وتعهد بالقضاء على هذه التجارة اللعينة خلال سنوات معدودة إذا أعطته الدول الأوروبية حق تفتيش مراكب النخاسة ومصادرة محتوياتها، لأن النخاسة هى أس الرق، فإذا بطلت النخاسة بطل الرق خلال عشرين سنة .

الثورة المهدية

بعد عودته إلى مصر، اتخذ الخديو اسماعيل إجراءات عملية لضرب مراكز النخاسة فى السودان، وعهد بهذه المهمة إلى الكولونيل جوردون بعد أن زوده بالعساكر والأموال والصلاحيات، وفى ١٧ (مارس) ١٨٧٤ أصدر جوردون قرارا باحتكار تجارة العاج لحساب الحكومة، لأن تجارة العاج كانت الستار الذى يتخفى تحته تجار الرقيق لممارسة النخاسة. وتضمن القرار منع أى فرد من الذهاب إلى المديرية الاستوائية من دون تصريح مسبق من حكمدار السودان، ومنع إدخال البارود والاسلحة النارية الى تلك المنطقة .

إلا أن هذا الإجراء كانت له تداعيات معاكسة مما تسبب فى قيام الثورة المهدية، كما يذكر الدكتور محمد كمال يحيى فى كتابه «الجذور التاريخية لتحرير المرأة المصرية». وتفسير ذلك أنه لما صار حتما حصول تجار الرقيق على تصريح يمكنهم من إرسال مراكبهم فى النيل الأبيض الى المديرية الاستوائية، ترتب على التشدد فى

تنفيذ هذا الإجراء أن تعطلت الملاحة فى النهر. بالإضافة إلى أن تعطيل نشاط التجار سواء كانوا من تجار الرقيق أو من أصحاب التجارة المشروعة، لم يلبث أن أثار تذمرهم من الحكومة فصاروا ينتهزون كل فرصة لمقاومتها وتقويض أركانها، وكان تجار الرقيق على وجه الخصوص هم الذين آزروا محمد أحمد المهدى، واشعلوا الثورة فى السودان !

على أن الحكومة البريطانية تحت ضغط الرأى العام زادت من ضغوطها على الخديو اسماعيل كى يعقد معه معاهدة لتحديد مدة معينة يتم فى اثنائها إبطال تجارة الرقيق نهائيا من مصر والسودان، واسفرت هذه الضغوط عن إبرام «معاهدة الرقيق» مع بريطانيا فى ٤ أغسطس ١٨٧٧، وأورد المؤرخ الايوبى مضمون هذه المعاهدة على النحو الآتى :

أولاً : أن يبطل إدخال الأرقاء الى الأراضى المصرية ومرورهم ببرها أو بحارها .

ثانيـــاً : أن لا يسمح للسود والحبشان العائشين فى مصر بمغادرتها من دون أن يثبتوا أنهم أحرار.

ثالثـاً : أن يجمع النخاسون والمتاجرون بالرقيق فى أى بقعة من الأراضى المصرية ويحاكمون أمام محاكم عسكرية .

رابعــاً : أن تستعمل الحكومة المصرية نفوذها على قبائل افريقيا الوسطى لكى تحملها على وضع حد ونهاية لاقتناص الرقيق

.

خـــامـســاً : أن السفن البريطانية فى البحر الأحمر وفى المياه المصرية، لها حق تفتيش كل المراكب المصرية .

ســادســاً : إبطال بيع الرقيق من عائلة إلى عائلة فى القطر المصرى بعد مضى سبع سنوات، وفى السودان بعد مضى اثنتى عشرة سنة .

حرب دينية

على إثر توقيع المعاهدة، كثف غوردون نشاطه كحمدار للسودان لمطاردة تجار الرقيق مطاردة عنيفة لا هوادة فيها، فازدادت بالتالى درجة العصيان واشتعلت الثورة فى كل مكان، وعملت قوات غوردون، وكلها عناصر أوروبية، على إطلاق سراح الإماء والعبيد مما جعل التجار ينشرون بين الأهالى دعوى أن هذه الحرب التى يشنها «الكفار» إنما هى حرب دينية .

أما فى مصر، فأنشئت أربعة مكاتب فى القاهرة والإسكندرية والدلتا والصعيد، لتسجيل حالات عتق الرقيق مع إيجاد فرص عمل لهم، وتوفير التعليم لأطفالهم، ولكن هذه الاجراءات الحكومية لم يحالفها النجاح لأنها كانت تلقى مقاومة من المجتمع، كما يقول الدكتور كمال يحيى، إلى جانب أن أموالاً كثيرة كانت تستثمر من

امتلاك العبيد والجوارى بمعرفة أشخاص ينتمون إلى مختلف المهن والبيئات. واعتقد هؤلاء الاشخاص أنه لا يوجد أى مبرر يدعوهم إلى التخلى عن ممتلكاتهم، ومن ثم فليس من المستغرب أن يلجأ هؤلاء الأشخاص إلى كل الحيل للتهرب من تنفيذ القانون. ولم يكن عزوف المجتمع المصرى عن التخلى عن الرفاهية واقتناء «العبيد» هو العقوبة الوحيدة، إذ ظلت هذه البيئة لمدة لا تقل عن عشرين عاماً على الأقل، غير مهيأة لامتصاص عدد كبير منهم، وكان القضاة يمتنعون عن تحرير عقود زواج الفتيات المحررات بزعم أن ذلك يخالف الشرع، مما أدى إلى تحول معظم الفتيات الشركسيات والحبشيات المحررات إلى تعاطى الدعارة .

وكانت مشكلة «العبيد» الذكور عقب تحريرهم، لاتقل صعوبة عن مشكلة الفتيات المحررات، إذ كان الذكور يتركون من دون رعاية أو تدبير أعمال يرتزقون منها، فكان معظمهم يسارعون بالعودة الى أسيادهم ليعيشوا فى ظلال العبودية، وكان بعضهم ينضمون إلى عصابات اللصوص وقطاع الطرق .

محاكمة الباشوات

كان من الطبيعى أن تلقى جهود الخديو اسماعيل من أجل تحرير «العبيد» تأييداً من الكتاب والسياسيين الانجليز، لأنه فعل ذلك «على رغم أن تقاليد شعبه ومصالح جانب عظيم من رعاياه، ضده». وقال آخر : إن التحرير المصرى أعظم من التحرير

الإنكليزى والاميركانى، وهتف أحد اللوردات فى البرلمان : لاشك فى أن حاكم مصر الحالى عمل على إبطال الرقيق فى بلده، وتحسين حال رعاياه، أكثر من كل حاكم مسلم، بل ربما أكثر من كل حاكم مسيحى .

وبعد خلع إسماعيل، انتقل الإشراف على عملية مكافحة الرقيق الى سلطات الاحتلال البريطانى، فأنشأوا (قلم منع الرقيق) تحت إشراف ضابط إنجليزى كبير له عيون تراقب تجارة الرقيق التى صارت تجرى فى الخفاء وتقديم أصحابها إلى المحكمة العسكرية من دون النظر إلى مكانتهم الاجتماعية، حتى تفجرت فى عهد الخديو عباس حلمى الثانى قضية ضبط أربعة من كبار الباشوات اشتروا - سراً - عدداً من الجوارى السود، فلم تتحرج سلطات الاحتلال من محاكمتهم مما أحدث دوياً فى الأوساط المصرية والأوروبية .

وتفاصيل القصة يرويها المؤرخ أحمد شفيق باشا - الذى كان ضمن حاشية الخديو اثناء رحلته الصيفية الى المنتجعات الأوروبية عام ١٨٩٤ - عندما تلقى برقية من رئيس الوزراء، نوبار باشا، تعبر عن القلق والارتباك الذى أصاب الحكومة بعد أن اعتقلت السلطات البريطانية أربعة من علية القوم ضبطوا متلبسين بجريمة شراء ست من الجوارى السود، ولم ينكر نوبار تخوفه من أن تؤدى الحادثة الى ما لا تحمد عقباه، لأن الرقيقات ضبطن فى منزل

رئيس مجلس شورى القوانين (البرلمان) على شريف باشا وهو رجل له مكانته السياسية والاجتماعية وقد اشترى ثلاثا منهن. أما الأخريات اشتراهن - كل على حدة - محمد شواربى باشا، وحسين واصف باشا، والدكتور عبد الحميد الشافعى. وازداد الأمر تفاقما عندما نشرت «التايمز» اللندنية أن الخديو طلب منع المجلس العسكرى من ممارسة عمله، ما دفع عباس الثانى الى سرعة تكذيب الخبر حتى لايزج باسمه فى القضية، ويضعه فى مواجهة مع المعتمد البريطانى لورد كرومر .

وبدأت إجراءات المحاكمة أمام المجلس العسكرى برئاسة اللواء زهرى باشا وعضوية لفيف من كبار الضباط المصريين والانجليز، واستمرت المحاكمة عشرة أيام صدر بعدها الحكم بالسجن مدداً تراوح بين ستة وخمسة شهور على النخاسين اللذين جلبا الجوارى من السودان، وقاما بتهريبهن الى واحة سيوة، إلى أن تم بيعهن فى القاهرة فى منزل شريف باشا. وحكم على الدكتور الشافعى بالاشغال الشاقة لمدة خمسة شهور، وبراءة على شريف باشا والشواربى باشا، وصدق السردار - قائد الجيش - على أحكام البراءة. أما شريف باشا فزعم أنه يحمل الرعوية الايطالية، وهو امتياز يعفيه من العقوبات القانونية المصرية. ثم افادت القنصلية الايطالية أنه يحمل رتبة من ملك ايطاليا تبيح لحاملها أن يخاطب الملك بـ «ابن عمى العزيز» فتقررت محاكمته، ولكن أعفى منها بعد

أن قدم طبيبان إنجليزيان تقريراً يشهد بسوء حالته الصحية، وعندئذ أصدر الخديو عباس مرسوماً بإعفائه من المحاكمة والاكتفاء باستكتابه إقراراً قال فيه : «أقر أنني اشتريت ثلاث سودانيات للخدمة بدائرتنا، وبقين بالدائرة لحد يوم تسليمهن للحكومة، واعترف بأني مذنب فى هذا الفعل لعلمى أن هذا غير جائز ولكن حصل ذلك منى بنوع الاهمال، والآن قد ندمت وتأسفت على حصول ذلك، وعليه أطلب العفو والسماح من لدن أولى الأمر» .

فصدر الأمر العالى بالعفو عنه، كما صدر أمر آخر بإثبات تبرئة كل من الشواربى باشا وحسين واصف باشا، أما الدكتور عبد الحميد الشافعى فقد صدر مرسوم العفو عنه بعد أن مكث فى السجن حوالى شهرين .

وكانت هذه القضية ختام ظاهرة الرقيق فى مصر

هوية الصحافة المصرية

فى غمرة الأحزان التى عمت الوسط الصحفى لوفاة الأستاذ الكبير مصطفى أمين، كان من الطبيعى أن تشيد الأقلام، وتلهج الألسنة بمكانة هذا الصحفى العملاق الذى أسس مع توأمه المرحوم على أمين مدرسة صحفية مرموقة حفرت لنفسها نهجا جديدا، وأضافت إلى فنون الصحافة أساليب حديثة تأثر بها وسار على نمطها العديد من الصحف فى مصر والعالم العربى، وتخرج فيها مئات الصحفيين، ومنهم كاتب هذه السطور، ولا شك أن صدور صحيفة (أخبار اليوم) وتوابعها من صحف ومجلات يعد علامة بارزة فى تاريخ طويل قطعته الصحافة المصرية على امتداد ما يزيد على قرن ونصف قرن منذ صدرت (الوقائع المصرية) فى عام ١٨٢٨ تحت الاشراف المباشر لعزيز مصر محمد على باشا لتكون منبرا دعائيا لمشروعاته الكبرى، ... ومع بداية عصر إسماعيل ظهرت الصحف الأهلية بتشجيع من الخديوى على أمل أن تكون واجهة حضارية تسانده بالحق وبالباطل، ولكن سرعان ما تحررت هذه

الصحف من سيطرة الخديوى وتحولت إلى سلاح بتار في يد الشعب يواجه به مؤامرات النفوذ الأجنبى، ويدافع عن استقلال مصر وكرامتها .. وقام بإصدار هذه الصحف وتحريرها نخبة من أعاظم المفكرين المصريين الذين حملوا هموم الوطن، وشاركوا بأقلامهم فى كل المحن والمعارك التى شهدتها الحياة المصرية، وبشروا بأفكار جديدة قامت عليها النهضة المصرية الحديثة فى السياسة والثقافة والتعليم والاقتصاد والأدب والاجتماع .

ولدت الصحافة المصرية وتطورت وبلغت ذروة النضج على أيدى هذا الرعيل من أبناء مصر .. وإننا نغمطهم حقهم ونهون من تاريخهم ونضالهم إذا قلنا إن صدور (أخبار اليوم) فى نوفمبر ١٩٤٤ كان بداية «تمصير» الصحافة .. وقد تكرر هذا التعبير على أقلام بعض الكتاب وهم بصدد الإشادة بمؤسسى أخبار اليوم .. وهو قول يوحى بأن الصحافة المصرية – قبل أخبار اليوم – كانت غير مصرية .. وبلا هوية .. وتسرى فى عروقها دماء وافدة على مصر .. ولو قرأ الأستاذ مصطفى أمين هذا الكلام لاعترض عليه، لأنه يغاير الحقيقة التاريخية، ويطمس جهاد رواد نشأوا من تراب مصر، وبذلوا العرق والفكر والمال من أجل صحافة مصرية كانت لها الريادة والسبق في الشرق العربى، وبلغ بعضها المستوى الذى استحق عليه وصف (تايمز الشرق).. كل هذه الحقائق والابحاث أكدها مؤرخو الصحافة من أمثال الدكتور إبراهيم عبده والدكتور

عبد اللطيف حمزة والدكتور أحمد حسين الصاوى والدكتور سامى عزيز والدكتورة سهير اسكندر .. فليرجع إليها من يريد المزيد

وعندما صدرت (أخبار اليوم) فى عام ١٩٤٤، كانت صحيفة (المصرى) التى صدرت عام ١٩٣٦ تتصدر الساحة الصحفية والوطنية، ومع كونها لسان حال حزب الوفد، إلا أنها فتحت صفحاتها لكل أصحاب الأقلام الوطنية الشريفة، ولكل دعاة الفكر الحر المستنير سواء من اليمين أو من اليسار .. وقد فعلت ذلك اتساقا مع المفهوم الليبرالى لحزب الوفد، وقد جمعت صحيفة (المصرى) بين صحافة الرأى وصحافة الخبر فى معادلة محسوبة لقيت القبول من جماهير القراء. وقد وجدوا فيها وجبة مكتملة العناصر السياسية والخبرية والأدبية والعلمية والفنية، ولم يدخر أصحابها الإخوة الثلاثة: محمود وحسين وأحمد أبو الفتح وسعاً من أجل تطويرها الدائم .. فجلبوا لها أحدث المطابع وأقاموا لها شبكة من المراسلين فى كافة أنحاء البلاد، فضلا عن شبكة المراسلين فى العواصم العالمية واستعانوا بكبار الكتاب والمفكرين لتحرير المقالات والدراسات. وإلى ثالث الإخوة (أحمد أبو الفتوح) يرجع الفضل فى الارتقاء بصحيفة (المصرى) إلى المستوى الذى جعل منها حصنا من حصون الدفاع عن الحرية والديمقراطية، والتصدى لقوى البطش والطغيان والديكتاتورية .. حتى دفع الثمن من حريته، وقضى على (المصرى) بالصمت المؤبد .

وفى مجال المقارنة بين (المصرى) و (أخبار اليوم) يقول الدكتور إبراهيم عبده أن الأولى كانت متأثرة بالصحافة الإنجليزية، بينما ظهرت الثانية بفنها الصحفى الجديد متأثرة بالصحافة الأمريكية.

وهو يعتبر الفترة من ١٩٤٠ إلى ١٩٥٢ أزهى الفترات التى عاشتها الصحافة المصرية، فبالرغم من الرقابة العنيفة والقيود المفروضة بمقتضى الأحكام العرفية طوال سنوات الحرب العالمية وحرب فلسطين، إلا أن الصحفيين عاشوا أحداث تلك الأيام مجاهدين أبطالا، وكافحوا طغيان الملك بلباقة مكنتهم من تسجيل عورات النظام، وكشف المستور من سوءاته، وبيان وجه الحق فى المسائل العامة التى كانت تهز أعصاب المواطنين، وتؤرق حياتهم فى تلك الأيام .. وبلغ من ازدهار الصحافة فى تلك الفترة أن عدد الصحف والمجلات بلغ نحو مائة جريدة ومجلة معظمها تصدر باللغة العربية، وظهرت فى تلك الأيام وقبلها بقليل دور جديدة ومؤسسات صحفية مصرية خالصة. فى مقدمته المصرى وأخبار اليوم لتنافس صحافة الشوام المتمصرين كالأهرام والمقطم ودار الهلال، وجاءت صحافة المصريين بجديد فى الفن الصحفى لم يعرف فى الصحف الأخرى. وناقشت الصحف المصرية فى تلك الأيام المشاكل الاقتصادية والاجتماعية بشكل ملحوظ، وفى دراسة ممتعة عميقة وموضوعية أيضا، شهدت تلك الصحف أقلاما قوية مستنيرة، وبحوثا شائقة عن كل موقع فى الحياة المصرية يشغل بال المفكرين، وكانت حكومة الوفد من ١٩٤٢ - ١٩٤٤ أو حكومته منه ١٩٥٠ - ١٩٥٢ أكثر

الحكومات استجابة للتيارات الجديدة، بل كانت القوانين التى صدرت لصالح العمال والفلاحين فى فترتى حكم الوفد، من برامجه وأهدافه، وبذلك بشرت بها صحفه قبل أية صحيفة أخرى، وخاصة جريدة (المصرى) بالإضافة إلى حدث خطير تم خلال حكم الوفد وهو مجانية التعليم التى تقررت لأبناء الشعب الذين أعجزهم الفقر عن ارتشاف مناهل العلم التى كانت وقفاً على الأغنياء أو القادرين من الطبقة الوسطى .

• تاريخ البلاغ:

وقبل (المصرى) كانت هناك (البلاغ) التى أصدرها عبد القادر حمزة باشا سنة ١٩٢٣ لتعبر عن سياسة الوفد وزعيمه سعد زغلول، ولتواجه خصوم الحركة الوطنية بكل عنف، وعن عبد القادر حمزة يقول الدكتور ابراهيم عبده :

يجب أن نذكر لهذا الرجل نصيبه الموفور فى نهضة الصحافة المصرية، فقد كان من القلائل الذين انخرطوا فى هذه المهنة من أهل العلم والمعرفة، فهو من الطلائع التى تخرجت فى كلية الحقوق سنة ١٩٠٣، وكان على صلة قريبة من النشاط الصحفى أثناء الدراسة، فكتب عدة مقالات فى (الجريدة) ونشأت بينه وبين محررها أحمد لطفى السيد باشا علاقات من الودّ والتقدير، فقد كشفت مقالاته عن مواهب يعتز بها وتبشر بخير فى العالم الصحفى لهذا الشاب وهو فى مطالع العمر، وعلى عتبات الجهاد .

وعقب تخرجه تولى رئاسة تحرير صحيفة (الأهالى) بترشيح من أحمد لطفى السيد. فكانت لسانا مدوياً من ألسنة سعد زغلول هز أركان الاحتلال، وأرق مضاجع الانجليز، فعاقبوها بالتعطيل المتكرر حتى انتهى مصيرها إلى الغلق، وبعد أن تغيرت الظروف مع بداية الحياة الدستورية تمكن عبد القادر حمزة من إصدار (البلاغ) فى ٢٨ يناير ١٩٢٣ ولكن الحكومة لم تحتمل هذا القلم العف الذى تميز بالموضوعية والاتزان فى مناقشة الأمور، وتعرض صاحب البلاغ للاعتقال كما تعرضت الصحيفة للمصادرة ..

وأخذت تشق طريقها فى هذا المناخ الوعر حتى صارت سجلا للحركة الوطنية له قدره فى تاريخ هذه الحقبة من جهاد المصريين، فهو إلى جانب اهتماماته السياسية كان معنيا بشئون الاقتصاد والآداب والفنون، ومشاركا فى إنعاش النهضة النسائية، ومن يعد إلى صفحات (البلاغ) يجد عناصر الصحيفة تكاد تتوازن وتبلغ درجة النضج، ولولا ظروف الحرب العالمية التى حدت من النشاط الصحفى لكانت (البلاغ) من كبريات الصحف الحزبية العالمية.

وإلى جانب (البلاغ) اليومى كان يصدر (البلاغ الأسبوعى) صحيفة مصورة فى أربعين صفحة حافلة بالموضوعات الأدبية والسياسية والاقتصادية، ويشترك فى تحريرها نخبة من أصحاب الأقلام القوية مثل عباس محمود العقاد. ومحمد السباعى – والد الأديب يوسف السباعى – والأستاذ صبرى أبو علم، والأستاذ

محمود سليمان غنام، قطبى حزب الوفد، أما الأستاذ محمد فؤاد سراج الدين سكرتير عام الوفد فكانت مقالاته تتصدر الصفحة الأولى من (البلاغ) اليومى .

• كوكب الشرق:

وشهدت هذه الفترة صدور جريدة وفدية كان لها أثر كبير فى مجرى الحياة السياسية المصرية. وهى جريدة (كوكب الشرق) لصاحبها أحمد حافظ عوض. وقد نشر فى العدد الأول منها فى ٢١ سبتمبر ١٩٢٤ خطة جريدته وهى «العمل المتواصل لتحقيق الأمنية الوطنية العظمى .. ألا وهى استقلال مصر والسودان استقلالا تاما صحيحا، وستبقى هذه الغاية نصب أعيننا إلى أن نفوز بها أو نموت دونها، ولنا مع هذه الغاية الوطنية المصرية أغراض وغايات لها عندنا أهمية عظمى وهى العمل الدائم على شد أواصر الرابطة الإسلامية خصوصاً، والشرقية عموماً، أما وسيلتنا إلى ذلك فهى نشر العلوم والمعارف العربية وآثار المدنية الإسلامية والاحتفاظ بالميزات الشرقية».

ومن الصحف المصرية الخالصة التى شهدتها هذه الفترة صحيفة (الجهاد) لصاحبها محمد توفيق دياب. وكانت وفدية الهوية إلى جانب زميلتها (روزاليوسف) التى نشأت نشأة وفدية ثم انسلخت عن الوفد فى عام ١٩٣٤ .

ويلاحظ مؤرخو الصحافة أن حزب الوفد لم يكن يصدر صحفا، وانما يترك ذلك للأفراد الذين ينتمون إليه ويحملون فكره. ويعبرون عن سياسته. وما أكثر الصحف والمجلات التى كانت تصدر باسم الوفد. وأهمها صحيفة (الوفد المصرى) التى كانت يصدرها حامد طلبه صقر فلما صودرت فى عهد اسماعيل صدقى، أصدر (صوت الأمة) التى انتقلت ملكيتها إلى يس سراج الدين، وكان يتولى رئاسة تحريرها الدكتور محمد مندور ويشاركه فى تحريرها عدد من كبار الكتاب والصحفيين الذين كانوا شبانا فى ذلك الوقت مثل أنيس منصور ومحمود السعدنى.. وظلت توالى الصدور حتى عام ١٩٥٣ .

• السياسة:

ولا يستطيع باحث فى تاريخ الصحافة المصرية أن يغفل جريدة (السياسة) التى صدرت عام ١٩٢٢ مع ظهور حزب الأحرار الدستوريين، وبدء المرحلة الدستورية وتولى رئاسة تحريرها واحد من كبار المثقفين هو الدكتور محمد حسين هيكل باشا. ويصف الدكتور ابراهيم عبده صحيفة (السياسة) بأنها من أنضج الصحف المصرية من حيث دراستها للمباحث الداخلية والمسائل الخارجية وقد حرر فيها نخبة من الكتاب المصريين كطه حسين ومحمود عزمى وتوفيق دياب وغيرهم، وعنها تأثرت نشأة التجديد فى حياتنا الاجتماعية فقد دافعت عن المرأة وجعلت موضوعها حديثا يشغل

بعض صفحاتها، كما أفردت لها صحيفة مصورة تعنى بمسائلها المختلفة، وعن هذه الصحيفة عرف التهكم السياسى فى مقالات طه حسين، كما ظهر النقد البرلمانى عندما أصبحت الحياة الدستورية حقيقة واقعة، وكان صاحب هذا الباب الجديد فى الصحافة المصرية الدكتور محمود عزمى، عدا الأبواب الأخرى التى حفلت بها مثل القصة والنقد الأدبى والمشاكل الزراعية، وبهذا وبغيره كانت (السياسة) من أولى الصحف التى عرفت كيف تشغل المفكرين المصريين بمناهجها .

أما (السياسة الأسبوعية) التى عاشت فيها بين ١٩٢٦ و ١٩٤٩ فقد كانت بمثابة ملحق أدبى لشقيقتها اليومية، وبالتوازى مع (البلاغ الأسبوعى) .. وقاد هيكل قافلة التنوير فى الأولى، كما قاد العقاد كوكبة التثقيف فى الثانية. وصارت كل منهما ملتقى لآراء المثقفين وخيرة العلماء وقادة الرأى .

وفى ذلك يقول الدكتور محمود فهمى حجازى : فى تلك السنوات التى تلت إعلان الدستور فى مصر بوصفها دولة مستقلة، ظل تحقيق استقلال مصر السياسى عن التبعية الثنائية والتحرر الكامل من الاستعمار البريطانى أمل الحركة الوطنية، ولكن الانتماء الثقافى لمصر العربية جعل على مصر دورا كبيرا فى المنطقة العربية وانطلاقا من هذه الرؤية الثقافية العربية كتب هيكل : « السياسة الأسبوعية لم تنشأ لتكون واسطة الارتباط بين أفكار الشرق العربى

وبين جميع المتكلمين بالعربية» وهنا نجد فكرة الانتماء الثقافى العربى ماثلة، وأسماء المشاركين فيها وأقطار القارئين لها فى المشرق والمغرب خير تطبيق لذلك.

• ولادة الأحزاب:

فإذا ماعدنا قليلا إلى الوراء - إلى مطلع القرن العشرين ونهايات القرن التاسع عشر - فسوف نكتشف قوة الصحافة المصرية الوطنية وتأثيرها على الحياة السياسية، إلى الحد الذى أصبحت فيه الصحافة البوتقة التى تنصهر فيها أمانى الشعب وكفاحه النبيل ضد السيطرة الأجنبية، وسعيه الدائب إلى التخلص من كافة قيود التبعية سواء كانت تركية أو بريطانية. ثم لم يلبث هذا الانصهار أن أفرز بدايات الأحزاب المصرية التى ولدت وترعرت فى رحم الصحافة :

* فمن صحيفة «الجريدة» ولد حزب الأمة .

* ومن صحيفة «اللواء» ولد الحزب الوطنى .

* ومن صحيفة «المؤيد» ولد حزب الإصلاح . على المبادىء الدستورية

وكانت صحيفة «المؤيد» أسبق هذه الصحف إلى الصدور في عام ١٨٨٩، بفضل كفاح وإصرار شاب أزهرى هو الشيخ على يوسف، ولم تلبث أن صارت لسان حال الحركة الوطنية، ولتواجه السموم

التى كانت تنفثها صحيفة «المقطم» المعبرة عن سياسة الاحتلال البريطانى والداعية إلى بقاء الإنجليز فى مصر حتى يشيب الغراب. وكان أصحاب المقطم : فارس نمر ويعقوب صرّوف، وشاهين مكاريوس من الشوام الذين قدموا إلى مصر هربا من الطغيان العثمانى فى سوريا ولبنان، وطمعا فى الاستمتاع بمناخ الحرية النسبى الذى كان قائما فى مصر. وكان صدور المقطم بإيعاز وتشجيع من المعتمد البريطانى «كرومر» فى عام ١٨٨٨. وأحدث صدورها صدمة للحركة الوطنية فرأت أن خير وسيلة لمقاومة الصحافة العميلة، هو إصدار صحيفة مصرية لحماً ودماً .. فكانت «المؤيد» .. فقامت برسالتها خير قيام، والتف حولها رجال الحركة الوطنية يمدونها بالمقالات النارية التى تحبط سموم «المقطم» .

• صحف الشوام:

وهنا يجب أن نحتاط ولا نصدر حكماً عاماً بالإدانة على الصحافة اللبنانية التى استوطنت مصر قياساً على مسلك «المقطم»، فلم يكن كل الصحفيين الشوام على شاكلة أصحاب «المقطم»، وإنما وقف الغالبية العظمى منهم إلى جانب القضية الوطنية، وشاركوا بأقلامهم فى كشف مساوئ الاحتلال، وكان معظمهم يلتهبون حماسة لاستقلال مصر وحياتها الدستورية. وتعرضت صحفهم للمصادرة والعنف مثلما تعرضت الصحف الوطنية .

يقول الدكتور ابراهيم عبده عن تاريخ جريدة «الأهرام» : إنها بدأت لينة للاحتلال ورجاله وإن حفلت صفحاتها خلال عام ١٨٨٢ - عام الاحتلال - بآراء الصحف الانجليزية والفرنسية فى المسألة المصرية، بيد أن الأهرام تحمل علم الجهاد وحدها منذ بدأت سنة ١٨٨٤ فتودع العام المنصرم «وداعا لا يمازجه أسف، ولا يقابله كدر بل هو واقف إزاءه وقوف ضعيف سلبه خصمه متاعه، يستعطفه فلا يحنو، ويستصرخه فلا يعى» ثم تعقب ذلك بنشر مآسى مصر، وتنتقى أقوال الصحف الانجليزية التى برمت بالسياسية البريطانية فى مصر فتقول : «يلوح أن حالة مصر فى الحاضر أسوأ منها يوم تولى الانجليز إدارة السياسة المصرية عقب احتلالهم القاهرة. ثم تحدث فى حياة مصر أزمة السودان. وانهيار الحكم المصرى فيه، فتلقى الأهرام بدلوها فى أمره وحوادثه، وتعرض المسألة السودانية. والأزمة التى أعقبتها وتصف خيبة الأمل التى لحقت جيوش مصر بأنها من صنع الانجليز، وتشيد بحكومة شريف باشا التى استقالت احتجاجا على إخلاء السودان، وتحمل الأهرام بشدة على من وافق على الانسحاب، وتنشر أحاديث أمراء ألوية الجيش لإظهار أخطاء الحكومة وإهمالها فى الحرب، ثم تذكر المحاربين الذين ضحوا بأرواحهم «تخليدا لذكر مصرنا العزيزة» .

وبذلك تولت الأهرام التنفيس عن كرب المصريين، وكانت حوادث السودان وغيرها من مواقفها المشرفة، وهى حوادث أكبرتها فى عين التاريخ. ونالت تقدير المصريين الذين وضعوها فى مكان الزعامة

من أفكارهم وآلامهم، **لأنها** كانت تشتد فى نقدها كأكثر الصحف الوطنية تطرفا .

وكان خصوم «**الأهرام**» يتهمونها بالميل إلى فرنسا، ويرون فى ذلك عاراً لا يمكن **أن تمحوه** المواقف الوطنية المشرقة، ويرى الدكتور إبراهيم عبده **فى هذا** الاتهام من التجنى ما لا يقبله المؤرخ المنصف، فالأهرام **بقيت فى** تاريخ مصر الحديث عشر سنوات تحمل لواء المعارضة **وحدها**، وتحيى ميت الرجاء فى نفوس المصريين، وهى التى **نقلتهم** من الذهول إلى يقظة مهدت للحزب الوطنى وجوده، وليس **يعيبها** أن تعجب بفرنسا مادامت «لا تهمل المصلحة الوطنية»، **وتاريخ** **الأهرام** فى الأعوام التى تلت الاحتلال أفضل من تاريخ **مجالس** **مصر** النيابية، وأعز عند المؤرخ منها، وأن مصر نفسها لم **تختلف عن الأهرام** فى إيمانها بفرنسا وأملها فيها، وكان هذا موقف **مصطفى** كامل زعيم النهضة الوطنية قبل الاتفاق الودى عام ١٩٠٤ .

• الولاء للاحتلال :

وإذا كانت بعض **الصحف** الشامية فى مصر لا تخفى انحيازها إلى الاحتلال. فإن **بعض الصحف** المصرية كانت أشد ولاء للاحتلال مثل صحيفة **(الوطن) لصاحبها** ميخائيل عبد السيد التى هللت للاحتلال تهليلاً **منقطع النظير**، وحملت على العرابيين وأظهرت الشماتة فى هزيمتهم، **بل** فزعت لتخفيف حكم الإعدام على أحمد عرابى إلى النفى **خارج البلاد** .

فالولاء للاحتلال لم يكن سياسة **مقصورة** على بعض صحف الشوام، كما لم يكن الإيمان **بالقضية الوطنية** مقصورا على الصحف المصرية. وإنما كانت كل **صحيفة** تحدد موقفها حسب مصالحها وحساباتها الخاصة. **ولكن الذى** يهمنا فى هذا الحديث هو التأكيد على «مصرية» الصحافة **وكيف أنها** قامت منذ نشأتها وفى كافة أطوارها التاريخية على **أكتاف المصريين** .. وانطلقت هذه الصحف من عقالها **فى** عصر **الخديوى إسماعيل**، ولم تجامله أو تهادنه أو تسكت على تصرفاته **الخرقاء التى** وضعت البلاد تحت النفوذ الأجنبى فى الوقت الذى كان **فيه الشعب** يعانى الفقر. وفى ذلك يقول الدكتور سامى عزيز : **إن الحرية** التى منحت للصحف الوطنية أعطت الوطنيين فرصا **عديدة للتحدث** عن المظالم التى يحسونها، ونشر مطالبهم الوطنية، **ونشأت فى** مصر نواة لطبقة وسطى ذات وعى ونضوج، وكانت **مصالحها الاقتصادية** وأوضاعها **الطبقية** تتعارض تعارضا تاما مع **مطامع الأجانب**، وكان اسماعيل يعتقد أنه من الأفضل منح **الصحافة حرية** تامة على اعتبار أنها ستساعده فى تعبئة الرأى العام ضد **التدخل** الأجنبى، ولم يفكر قط فى أن هذه الصحافة ستتجرأ **على نقد** تصرفاته الشخصية، وإسرافه الباهظ، وطريقته **فى الحكم، وهكذا** نسى اسماعيل فى غمرة محاولاته لوقف التدخل الأجنبى **أن الصحافة** سلاح ذو حدين. ولم يفطن إلى أن حرية الصحافة **مكنتها من** أن تعلق على مباذل الخديوى وحاشيته، وكان تلك بداية **أشعرت المصريين** بقوتهم وحاجة

الحاكم، إليهم، وقدرة الرأى العام على الوقوف فى وجه الظلم، والمطالبة بالحقوق ومراقبة الحكام ونقدهم .. وهذا الشعور إذا وجد فى أمة كان لابد له من قادة يصوغونه صياغة قوية يلهبون بها شعور من شعر، وينبهون بها من لم يشعر كما يقول أستاذنا أحمد أمين .

• مرآة الشرق:

وأنت تدرك من هذا أن الصحافة المصرية ولدت قوية وعفية منذ يومها الأول، وما كادت تجتاز مرحلة الصبا حتى أخذت توسع من دائرة الحرية التى انفسحت أمامها، وبلغت فى مجال النقد إلى حد التطاول على الخديوى إسماعيل وعائلته وحاشيته. انظر كيف كان ابراهيم اللقانى محرر صحيفة (مرآة الشرق) ينتقد العائلة المالكة ويحملها مسئولية الفساد الذى استشرى فى مصر، ويقول : «أن الفساد يرجع إلى أمراء البيت المالك وجهلهم بواجباتهم نحو وطنهم، وسوء تدبيرهم، واختلال أحوالهم، أنهم لا يعرفون شرعاً، ولا يرضون قانوناً، ولا يسمعون رأيا، ولا يقبلون نصحا، بل تعدوا الحدود، وانتهكوا المحارم، وثلموا الأعراض، وحاربوا العدل، فطغوا وبغوا، ونهبوا، وسلبوا، وفتكوا وهتكوا، شادوا القصور وغرسوا البساتين، واقتنوا الحور والغلمان، وتأنقوا فى المآكل وتفننوا فى المشارب، وزينوا الملابس، وسحبوا مطارف العجب والخيلاء، بينما أفراد الرعية على مرأى منهم حفاة عراة يتضورون جوعاً، ويتلظون ظمأ، ويموتون من البرد» .



هز القحوف

سأقدم لك صورة واقعية عن الريف المصرى فى القرن السابع عشر الميلادى (الحادى عشر الهجرى) أى عندما كانت مصر تحت حكم الدولة العثمانية، والصورة كتبها أديب مصرى خفيف الظل سليط اللسان ركيك الأسلوب اسمه الشيخ يوسف بن محمد عبد الجواد بن خضر الشربينى. وقد أراد أن يرسم فيها واقع الفلاح المصرى فى بيته وفى حقله وبين أفراد أسرته وأهل قريته وفى معاملاته مع السلطة المحلية التى ينعدم وجودها إلا عند جباية الأموال، ولم يكن الرجل مجاملا للفلاح كما يفعل بعض الأدباء فى عصرنا على سبيل الملق والمراءاة .. بل كان واقعياً فى تشخيص حياة الفلاح وطباعه وأخلاقه. وتجاوز فى هذه الواقعية الى درجة الغلو والإسراف، فنسب الى الفلاحين كل النقائص فى عاداتهم وتقاليدهم الموروثة وتصرفاتهم فيما بينهم .. وتنّدر باسمائهم وملابسهم ونسائهم واحتفالاتهم وطعامهم وشرابهم . واتخذ من كل

ذلك مادة لكتابه الذى أطلق عليه عنوان «هز القحوف فى قصيدة أبى شادوف» ..

كلنا يعرف الشادوف وهو الآلة التى كان يستخدمها فقراء الفلاحين فى رفع المياه من الترع والقنوات لرى الأرض. أما «أبو شادوف» فهو كناية عن الفلاح المصرى .. ذلك أن الشيخ الشربينى ابتدع شخصية كاريكاتورية أطلق عليها هذا الاسم. مثلما يفعل رسامو الكاريكاتير فى عصرنا مع أم سحلول وأبو جلمبو ورفيعة هانم وابن البلد والمصرى أفندى وكمبورة .. الخ. ولاشك أن اختيار الشادوف هو اختيار له مغزى يستهدف تصوير الشخصية فى حالة من التخلف والفقر. أما «القحوف» فمفردها «قحف» .. وهو تعبير ريفى مصرى صميم يطلقه أهل الريف للتندر على الشخص الذى تتجمع فيه صفات الجلافة والحمق والغلظة. وقدم الشربينى تفسيرا لغويا للقحف بأنه لباس للرأس يصنع من الصوف أو الشعر بطريقة مضحكة وقال : ان غالب الخلابيص يلبسون الطراطير .. ويضعون القحف فوق الطرطور لأنه واسع من جهة الرأس وضيق من أعلاه وقصير عن الطرطور. ولك أن تتصور هذه الصورة الكاريكاتورية التى رسمها أديب فى القرن السابع عشر للخلابيص ومفردها «خلبوص» .. وهو كداب الزفة الذى يتصدر الأفراح ويجمع «النقطة» من المدعوين لحساب العوالم .

• إسفاف:

والكتاب الذى نحن بصدده، يحمل اسم (هز القحوف فى قصيدة أبى شادوف) مكون من قسمين أولهما هو قصيدة أبى شادوف التى كتبها الشيخ يوسف الشربينى على لسان شخصيته الهزلية فى حوالى أربعين بيتا بأسلوب غاية فى الاسفاف والهبوط الأدبى لفظا ومعنى، فهى محشوة بالكلمات النابية والألفاظ التى تخدش السمع وتؤذى الحياء، أما من ناحية وزنها الشعرى، فان الشاعر الكبير طاهر أبو فاشا يصفها بأنها من نوع الشعر (المزبلح) أى أنها ليست من الفصحى وليست من الزجل .. واذا كان لابد من تسميتها فهى من شعر العامية..

أما القسم الثانى من الكتاب فهو أشبه بمذكرة تفسيرية لقصيدة أبى شادوف. وشرح لما تضمنته من ألغاز يصعب فهمها على غير أهل الريف . ويقع فى حوالى ١٣٥ صفحة، ولم يلجأ فى شرحه للقصيدة الى قواميس اللغة المعروفة، ولكنه اعتمد على قاموس هزلى من بنات افكاره أسماه (القاموس الأزرق والناموس الأبلق). أما الشخصية المحورية فى الكتاب - وهو أبو شادوف - فيزعم الشيخ يوسف الشربينى أن أمه لما ولدته ألقته فى مزود البقرة، وجاء عجل فلعقه بلسانه فسمته «عجيلا» تصغير عجل، ثم اشتهر باسم أبى شادوف لما مال عليه الزمان، وأصبح أجيرا لسقى المزروعات. بآلة الشادوف، ويقول أن أبا شادوف كان فى مستهل حياته يتمتع

بسعادة من نوع خاص، فهو قوى يرعى الغنم ويقفز فى الحقول ويلهث وراء الحمار أثناء رحلته التقليدية فى نقل روث البهائم من الزرائب الى الحقول لتسميدها، يمشى حافيا عاريا، ويبالغ فى تصوير قذارته بطريقة مقززة .. كل ذلك أيام سعادته (!!) فما بالك به فى أيام تعاسته (!!) ويقول ان أبا شادوف كان قويا ممتلئا (مجعمصا) .. ويصف ذلك فيقول :

أبو شادوف من يومه مجَعْمص شبيه الجرو يتنطط بقوة وأبوه اليوم شيخ الكفر قاعد حدا الصراف وراسه جنْب حدْوَه ويزعم الشيخ الشربينى ان والد أبى شادوف كان شيخا للكفر وكان على شئ من اليسار فهو يملك حمارا أعرج وعنزين وحصة فى ثور ونصف بقرة فضلا عما كان فى بيته من الدواجن وبعض الأدوات وربما كان له حصة فى أرض يقوم بزراعتها، وهذا سر سعادة أبى شادوف، ولكنها سعادة لم تتم، فقد مات أبوه، وبعد مرور أيام الحداد سحب أبو شادوف النبوت، وأصبح شيخا على الكفر، وجلس مجلس الاعيان، ولكنهم حسدوه وحرضوا عليه القائمقام - وكيل الملتزم - فخلعه من المشيخة وصادر بعض مقتنياته، ولكن أبا شادوف دخل فى صفقة بيض باعه فى البندر فى عيد شم النسيم فتضاعفت أرباحه فكان يعطى - ويتمكرم - فقصده الشعراء والادباتية ليمدحوه، ولكن الزمان غدر بأبى شادوف، وتكالبت عليه المؤامرات حتى عاد الى فقره ووساخته لدرجة أن القمل والحشرات

كانت تملأ ملابسه .. وهكذا تمضى حياة أبى شادوف وتدور من حولها حياة الناس فى مجتمع القرية فى جدهم ولهوهم وعملهم وعبثهم وسرورهم وأحزانهم .

• وثيقة:

ومؤرخو الأدب يتخذون من كتاب هز القحوف نموذجاً لانحطاط الادب المصرى فى العصر العثمانى، ولكن دارسى التاريخ العام يتخذون منه وثيقة تلقى الضوء على واقع الريف المصرى فى مرحلة من أحلك مراحله وأشدها ظلما وظلاما .. فقد ابتليت مصر بالاحتلال العثمانى على يد السفاح السلطان سليم الأول فى عام ١٥١٧ م ومن يومها أصبحت مصر ولاية تابعة للسلطان بعد أن كانت دولة مستقلة لها احترامها ومكانتها وهيبتها فى الشرق الاوسط. والذى يهمنا اليوم هو التركيز على العلاقات المباشرة بين الفلاحين المصريين ودولة العثمانيين لانها ترتبط ارتباطا وثيقا بموضوع الكتاب الذى وضعه الشيخ يوسف الشربينى عن حالة الريف المصرى تحت حكم العثمانيين .

وكانت الدولة العثمانية بعد احتلالها مصر، قد ألغت نظام لإقطاع العسكرى الذى ابتدعه الأيوبيون فى غضون الحروب الصليبية، وبمقتضاه كانت الارض تقسم الى اقطاعات صغيرة توزع على كبار القادة والامراء والضباط للانتفاع بريعها مقابل اشتراكهم فى الحروب، وبقى هذا النظام طوال العصر المملوكى،

فلما جاء العثمانيون وضعوا للأرض نظام «الالتزام» أى توزيع البلاد والقرى بحيازاتها الزراعية فى المزاد، فمن يرسو عليه المزاد يصبح ملتزما بدفع الضريبة المالية المقررة مقدما الى الحكومة، ثم يتولى بعد ذلك جمع هذه الأموال من الفلاحين مضافا اليها ما يستطيع جمعه من مال زائد يدخل جيبه وهو ما يسمى الفائض .. أو «الفايظ» بالتعبير التركى .. وله مفهوم مؤثم لعلاقته بالربا .. وكان للملتزم سلطة مطلقة فى استخدام كافة أدوات القهر لإجبار الفلاحين على دفع المال .. مثل الفلقة والعدة والكرباج والعروسة .

وتطفح كتب التاريخ بما عاناه الفلاح المصرى فى هذه المرحلة من جور وظلم وعذاب .. وكان من الطبيعى ان ينعكس كل ذلك على شخصية الفلاح ومعاملاته مع أقرانه أو معاملاته مع السلطة، وكان يمثلها فريق من الموظفين الجبارين مثل الكشاف والكاتب والدلال والمساح والمشد بخلاف شيخ القرية الذى كان يقوم مقام العمدة ويمثل السلطة على النطاق المحلى.

وقد انعكست هذه المظالم على اخلاق القرية، ففسدت الطبائع وانحطت القيم، وتغيرت القلوب، وانتشرت الرذائل من كذب ونفاق وملق ونصب وتحايل .. واختل الامن، وكان بعض الفلاحين يهجرون أرضهم ويتحولون إلى رجال عصابات يقطعون الطرق وينقضّون على المزارع لسرقة المواشى والمحاصيل، وفرض الاتاوات والفرد على الموسرين، وأصبح شيوخ «المنسر» من أهم الشخصيات التى

يخطب الجميع ودها.. وكان أشهر هؤلاء أبناء قبيلة «حرام» ومنها نشأت كلمة حرامى .. أى لص .

كل ذلك وغيره جعل منه الشيخ يوسف الشربينى موضوع كتابه «هز القحوف» بأسلوب مغرق فى التهكم، ونسج من يوميات القرية المصرية بانوراما مليئة بالتفاصيل، وجعل من شخصية أبى شادوف المحور الذى تدور من حوله الأحداث فى هذا العالم الصغير الذى هو فى الحقيقة مصر كلها، وكان أول عهدى بهذا الكتاب عندما كنت طالبا بكلية الآداب، وسمعت عنه لأول مرة من أستاذنا الجليل المرحوم الدكتور عبد اللطيف حمزة، وكان عالما فى تاريخ الأدب المصرى فى العصر الأيوبى وما بعده، وكان الدكتور حمزة يتحدث عن «هز القحوف» كمثل على الإنحطاط الأدبى فى العصر العثمانى، وكنموذج على التخلف الفكرى، حتى بلغ من سوء حال الأدب فى ذلك العصر انه لم ينبغ فى مصر شاعر واحد يستحق أن يشار اليه، واقتصرت الحركة العلمية على وجود طائفة من المعممين الذين اهتموا بكتابة الشروح والحواشى والتعاليق والتقارير على المؤلفات القديمة، وانتهى عصر الابتكارات الأصيلة والتآليف العلمية، والتصانيف الأدبية، لقد مضى عصر السيوطى والنويرى والقلقشندى وجاء عصر الشربينى .

وبقيت ذكرى هذه الأحاديث عالقة بذهنى حتى وقع فى يدى نص كتاب «هز القحوف» من إعداد : محمد قنديل البقلى وكتب له المقدمة

الدكتور محمد طلعت عيسى أستاذ علم الاجتماع بجامعة القاهرة، وقد صدر الكتاب عام ١٩٦٣ عن دار النهضة العربية، ووصف الدكتور طلعت أهمية الكتاب فى أنه يكشف لنا النقاب عن أساليب التنشئة غير السوية التى تتمثل فى التخلف الثقافى، وسيطرة المعتقدات والأساطير والنوادر التى تغرس عند عمد لإشاعة الخنوع والرضا بما هو قائم بالفعل، وقد تناول الشربينى بوجه خاص أثر التعاليم الدينية الخاطئة فى نفوس الجهلاء، ولكنه لم يستطع أن يوجه النقد صراحة فاستعان بالرمزية فى شرحه لقصيدة أبى شادوف، مستخدما فى ذلك العبارات الماجنة التى تمثل شخصية ساخرة لا تملك الا العبث بالألفاظ واستخدام الغريب منها والخارج على المألوف كأداة تنفيس عن كبت عميق لا يقدر صاحبه على أن يواجه الواقع الاجتماعى بأساليب اصلاحية بناءة، ولهذا جاء هذا المؤلف متسما بصبغة وصفية تقريرية مصاغة فى قالب هزلى ماجن، فهو يستعين مثلا بمصطلحات الخطباء يوم الجمعة أثناء شرحه لتقاليد وعادات أهل الريف، ويرجح الدكتور طلعت عيسى أن يكون هدف الشيخ الشربينى من ذلك أن ينبه قادة الفكر من رجال الدين ووعاظة الى مسئوليتهم الأخلاقية فى التنشئة الاجتماعية المعنوية، ولأنهم أقرب فئات القادة الاجتماعيين إلى نفوس الفلاحين، فأنه يقع عليهم عبء التوجيه الروحى، وإثارة مشاعر العزة والإحساس بالظلم بين المواطنين حتى يتحرروا من قيود الذل والاستعباد التى يرزحون تحتها .

● **العونة:**

ويتناول محمد قنديل البقلى الجانب السياسى فى كتاب هز القحوف حيث يظهر جليا فى علاقة أهل الريف بالكشاف والملتزم وشيخ القرية، حيث يعمل الكرباج فى ابتزاز أقوات الفلاحين، وتجميع الأموال والثروات فى أيدى الحاكمين. فقد كانت مصر بقرة حلوب تدر على الغرباء الخير، وكانت السخرة (العونة) فى أشق الأعمال شيئا مألوفا فى ذلك الوقت، يدفع إليها الفلاحون والعمال، وكان موتهم من الجهد والارهاق شيئا مألوفا أيضا، حتى أنهم كانوا يدفنون وفيهم رمق الحياة لأنهم عجزوا عن مواصلة العمل وسقطوا من الإعياء .

وكانت الضريبة والمكوس تفوق الاحتمال، فإذا فرّ منها الناس فرضت على ذوى قرباهم .. وقد ترددت على ذلك أمثلة كثيرة فى الكتاب، ويرصد البقلى فى «هز القحوف» الصدع الاجتماعى وكان كل فرد لا هم له إلا أن ينجو بنفسه من جور الحاكم، ويلفت نظر الباحث كثرة قصائد المديح والموشحات فى الكتاب، ويفسر ذلك بتواكل الشعب واعتماده على الغيبيات فى إنقاذه من الظلم، ويقارن ذلك بما كان يفعله المصريون فى عصر لاحق عندما كانوا يرددون : يا عزيز .. يا عزيز .. كبة تاخد لانجليز .. وهكذا نجد المصريين ينفسون دائما بالنكتة اللاذعة .. أو التمنيات الطيبة .

وظل كتاب «هز القحوف» موضع تعليق من كبار نقاد الأدب ومؤرخيه، فقد كتب عنه الاستاذ الدكتور شوقى ضيف دراسة وافية نشرها فى مجلة (الكاتب المصرى) فى الاربعينات، وكذلك فعل العلامة أحمد أمين فقد تناول الكتاب فى دراسة فى مجلة (الثقافة) عام ١٩٤١ .

وقد وقف الدكتور ضيف أمام الجانب الرمزى فى اسلوب الشيخ الشربينى، ولجوئه الى التلميح، حيث التصريح يؤدى بصاحبه الى الجحيم، وقد أشار الشربينى نفسه الى هذه الرمزية بقوله انه ينشر كتابه «لان النفوس الآن متشوقة الى شئ يسليها من الهموم، ويزيل عنها وارد الغموم» ويعلق الدكتور شوقى ضيف على ذلك قائلا : أكبر الظن ان هذه الهموم والغموم التى يشير اليها الشربينى، انما هى ماكان يصبه العثمانيون وأحلافهم من المماليك على رؤوس المصريين من أسواط العذاب، ودائما نجد مصر - حينما يجثم على أنفاسها كابوس دولة غاشمة - تنفس عن همها وغمها بالفكاهة الساخرة على نمط ما صنعه الشيخ يوسف الشربينى، فهو لم يجرؤ على أن يسخر من شخصية الحكام العثمانيين والمماليك، وإنما ارتد الى الشعب يصور ما هو عليه من فقر وجهل وضعف فى أسلوب لاذع من السخرية والتهكم. وفى أثناء ذلك صور مظالم الحكام وأذنابهم .

أما الأستاذ أحمد أمين فيرى ان الشربينى كان ظالما ومتحاملا على الفلاحين المصريين، وكان أولى به أن يصب سخطه على ظالميهم، ويعارضه فى ذلك الأستاذ طاهر أبو فاشا اذ يقول فى كتابه الذى وضعه منذ بضع سنين عن «هز القحوف» : إننا لا نكون منصفين اذا جردنا أحكامنا على «هز القحوف» من النظر الى طبيعة عصره وظروفه، ففى هذا العصر وقف الخوف من الحكام لأصحاب الأقلام بالمرصاد، فإذا حاول أحدهم أن يمس الأوضاع السائدة فلن يأمن على نفسه أو ماله أو عياله، ولهذا ماتت الكلمة الحرة الصريحة إلا فى أحوال نادرة لها ظروفها، ولهذا لجأ الكتاب إلى التعريض والرمز، فهو لا يتكلم عن الظالم، وإنما يتكلم عن المظلوم وعن الظلم وقد لا يسميه، ولاشك أن فى عرض الجريمة تعريضا بالمجرم، فهو حين يصف الهاوية التى انحدر اليها الفلاح - أبو شادوف - يصف بطريقة ضمنية لون الحكم ونوعيته .

• عذر:

اما عن الألفاظ الداعرة والعبارات العارية المغرقة فى المجون والغلمانيات فإن طاهر أبو فاشا يعترف بأن الشربينى أفرط فيها حتى تجاوز الحد، ولكنه يلتمس له العذر فيما كان سائدا فى ذلك العصر من انتشار الأدب المكشوف وكثرة السقطات الادبية باستثناء من تأثموا من ذلك .. وقليل ما هم ..

ويرى أبو فاشا ان كتاب «هز القحوف» لقى ظلما من جانب نقاد الأدب الذين أخذوا عليه لغته الرديئة وأسلوبه البذئ، ونظروا اليه من الظاهر فوجدوا لغة عارية مبتذلة ونظما ركيكا وخروجا فاحشا على مقتضيات الحشمة، فطرحوه جانبا وانتقصوه، وعقلوا عن مضمونه ومحتواه، ولذلك يرى ان الكتاب يحتاج الى قراءة جديدة، ورؤية جديدة، ونظرة موضوعية تنفذ من قشوره إلى صميمه، ولا تمنعهم مباذله السطحية من الغوص وراء مضمونه فقد لا تكون لقصيدة أبى شادوف – من الناحية الفنية – قيمة ادبية، ولكن الذى يهمنا هو تلك الصورة الدقيقة للمجتمع المصرى فى الثلث الاخير من العصر العثمانى، وشرحها للحياة السياسية والاجتماعية فى تلك العهود.

على كل حال .. لقد حدثتك عن الشيخ الشربينى، ولكنى لم أحدثك حتى الآن عن محتوى الكتاب وما يضمه من غرائب هذا العصر.. ولكى تتعايش مع كتاب «هز القحوف فى قصيدة أبو شادوف» لابد من أن تتخفف من قواعد اللغة العربية ومن قيود التقاليد والآداب التى يلتزم بها الكاتب عندما يتحدث عن قومه، فأنت أمام رجل من القرن السادس عشر الميلادى وهو القرن الذى شهد بداية الانحطاط الثقافى والاجتماعى والاقتصادى ودخلت مصر مرحلة الظلام الدامس تحت حكم العثمانيين وسوف تجد نفسك أمام كاتب ترك لقلمه العنان ليسترسل ويكتب كل ما يخطر على باله من خواطر أو انطباعات بلا رابط يجمع بينها، وبلا ضابط يقى صاحبها من الشطط والغلو والتجنى، فهو يتكلم مثلا عن تقاليد

القرية المصرية فى **الأفراح** والمآتم، ولا مانع عنده من أن يقطع الحديث ليروى أسطورة **من العصر** الجاهلى أو يحكى قصة من صدر الأسلام، أو **يستشهد** **بأبيات** من الشعر الركيك ..

الكتابة فى هذا العصر **لم تكن لها** تقاليد أو آداب كما كان الحال فى العصر السابق .. **أو العصر** اللاحق .. وسوف تكتشف ان الشيخ الشربينى كان **رجلا** خفيف الظل .. يذكرك بطريقة المازنى فى السخرية مع **الفارق الكبير** فى الاسلوب، ولكنه يحمل نفس الروح النقادة **الساخرة** **وإن** جنحت إلى الإسراف فى النقد إلى درجة التحامل والتجنى **على** أهل الريف، ولا تزال بعض الصور التى قدمها الشربينى **ماثلة** حتى الآن عن القرية ولكنها تخلو من التحابيش التى **أضافها المؤلف** وأكسبها نكهة مغرقة فى الإسفاف والمبالغة .

فهو يستهل كتابه **بسرد** بعض الطرف والملح والنوادر التى يبرر بها وضع هذا الكتاب، **وكيف** ان النفوس الآن متشوقة الى شئ يسليها من الهموم **ويزيل عنها** وارد الغموم، وان الأرزاق قد تساق لمن لا يدرك الحظ **فى الأوراق**، وان صاحب البلاغة قد يموت من الجوع، وهو ينصح **الشخص** بأن يكون مع زمانه بحسب حاله، ويدارى وقته بما يناسب **أحواله**، وأن يكون حذرا من دهره وصولته، ويرقص للقرد فى دولته، **ويعاشر** الناس على قدر أحوالهم، ويدور معهم، وينسج على **منوالهم**، ويندرج فى مدارج خلاعاتهم .. وينتقل

الشـربينى مـبـاشـرة من سـرد هذه النصـائح إلى سـرد حكاية خلاصتها أن بعض الملوك مات إمامه فقال لوزيره وخواص دولته : انظروا لنا إماما يكون ورعا وزاهدا فيه لين وهدوء نفسى، فأجتمع رأيهم على رجل بالمدينة فيه هذه الأوصاف إلا أنه فقير الحال .

فلما مثل الإمام المرشح أمام الملك أكرمه وعظمه وأعلى منزلته، وصيره أرقى من وزرائه وأجرى عليه النعم، فلما رأى نفسه على هذه الحال تعاظم على أبناء جنسه واحتقر أرباب الدولة فاتفق رأيهم على الكيد له، فلما كان يوم الجمعة وأراد الملك أن يصلى فى بعض المساجد أرسل السجادة ففرشت له فى ذلك المسجد، ودخل فجلس عليها هو وذلك الإمام، واتفقوا على أن يضعوا تحت السجادة صورة صليب صغير من الذهب المطعم بالجوهر، فلما فرغ الملك من الصلاة وأراد الانصراف رفع الفراش السجادة فرأى الصليب فعرضه على الملك فأنكره، وقال لأرباب دولته : ما هذا الأمر ؟ فقالوا له ان هذا كافر ومستتر علينا وأشاروا إلى الإمام، فغضب الملك وأمر بقتله، ولما مرت جنازته أنشد بعضهم :

كـــان والله تقـــيـــا صـــالحـــا

منصـــفـــا عـــدلا ومـــا قط اتهم

فأجابه أخر يقول :

كـــان لا يدرى مـــا مـــداراة الورى

ومـــــداراة الورى أمـــــر مــــهم

ولا يتحرج الشربينى من أن ينصح قراءة بأن السلامة فى مداراة الناس، وحسن الانطباع معهم بلطف الايناس، وأن يكون الشخص متنقلا فى أطوارهم، دائرا تحت فلك أدوارهم، ويستدل على ذلك بأبيات يفخر بأنها من نظمه يقول فيها :

فطورا ترانى عـــالما ومـــدرســـا

وطورا ترانى فــاســقــا فلفــوســا

وطورا ترانى فى المزامــر عــاكــفــا

وطورا ترانى ســـيـــدا ورئيـــســـا

مظاهر أنس ان تحـــقــقت ســـرها

تريك بدورا أقـــبلت وشـــمـــوســـا

• طباعهم:

ويخيل اليك أن الشيخ الشربينى سوف يمضى إلى الحديث عن الهدف الذى من أجله ألف كتابه ولكنه لا يكاد يذكر جملة أو جملتين حتى يتوقف ليذكر ما وقع لعوام أهل الريف، ووصف طبعهم وأخلاقهم وذواتهم وأسمائهم. ولكنه لا يتطرق الى الفضائل أبدا .. فعينه لا تقع إلا على المساوئ والعيوب وهو يعلل هذه المساوئ بأسباب غير منطقية ولا مقبولة، فيقول : «أما سوء أخلاقهم وقلة لطافتهم فمن كثرة معاشرتهم للبهائم والأبقار، وعدم اكتراثهم بأهل

اللطافة، وامتزاجهم بأهل الكثافة، وملازمتهم المحراث والجرافة، وهز قحوفهم حول الأجران، وطردهم فى الملق والغيطان، ودورانهم حول الزرع، ونطهم فى الحصيدة والقلع، إذ الواحد منهم لا يعرف غير الحزام والنبوت والنقز (وهو غصن شجرة رفيع يستخدمه الفلاح فى سوق المواشى) والبنتوت (وهى قطعة صغيرة من الخشب تربط الناف الذى يوضع على كتفى الثورين بالمحراث) والساقية والفرقلة، والعياط والفارة والطبلة والزمارة ومزراقه وهز رداه وحزامه الليف، والتبن والشنيف حافيا فى الحر والحلافى (الأرض التى تنبت فيها الحلفا)، وعياطه فى الظلام بالسعد أو بالحرام (وهما فصيلتان من العربان قامت بينهما حروب) ويقع منهم على البلاد الهجوم، ويخرج إليهم الآخرون بالتمام، فيقع بينهم الحرب والعناد، وتخرج بسببهم البلاد وتقطع الطريق على العدو والصديق، ويترتب علي ذلك المفاسد، وتمتنع عن بلادهم الفوائد. وكل هذا من قلة عقلهم وكثرة جهلهم وسوء أخلاقهم وعدم اتفاقهم، إذ كلهم فى الظاهر مسلمون، والقتل عندهم مثل الديون، وأيضا عندهم قلة الوفا، وعدم الانس والصفا، لا يؤدون الفرض، ولا يعرفون السنة من الفرض، إن عاملتهم أكلوك، وان نصحتهم أبغضوك، وإن أقمت لهم الشرع رفضوك، وإن ألنت لهم الجانب مقتوك، العالم عندهم حقير، والظالم عندهم كبير، عندهم قابض المال أعز من العم والخال، سود الوجوه، إذا رأوا معروفا أنكروه» .

• **أفراحهم:**

وعلى هذه الوتيرة يمضى صاحب كتاب هز القحوف فى التجنى على أهل الريف، فهم فى نظره أهل كل نقيصة. وليس فيهم فضيلة تستحق الاشادة أو التسجيل. وينتقل الشربينى إلى نقد تقاليد الفلاحين فى أفراحهم، فهم «إذا أقاموا أفراحا لا تكون إلا بالعياط والصراخ والصياح وشدة الاضطراب والكرب، وربما وقع فيها البطح والضرب، وشاهدنا كثيرا من أفراحهم وما يقع فيها من عدم نجاحهم - وستأتى كيفية أفراحهم وأعراسهم - وعدم ذوقهم مع جلاسهم، وأما إكرامهم للضيوف فهو هز الأردية والقحوف، والجلوس على المصاطب ونفش اللحى والشوارب، وان حصل منهم الكرم بالاضطرار يكون العدس والبيصار والكشك الحامض بالفول، أو نوع من المدمس والبقول، ولو مكث الشخص منهم مدة فى مصر ودمياط، لم يكتسب من اللطافة قيراط، وبعض أكابرهم المشار إليه والمعول فى الأمور عليه، إذا طلع مصر لمقابلة الأمير أو قضاء حاجة من الوزير، ترى عليه لبسا محبوبا، ومع ذلك يمشى حافيا بلا مركوب، وأمورهم ليس لها انضباط، وأحوالهم شياط وعياط، ووردهم عند الأسحار : التفكر فى الغنم والأبقار، وتسبيحهم فى الظلام : هات النبوت والحزام، حط العلف، وهات الكلف» (طعام المواشى) ويعقب على ذلك ببيتين من الشعر يقول فيهما :

لا تسكن الأرياف إن رمت العــــلا

ان المذلة فى القــــرى مــــيــــراث

تسـبـيـحـهـم هات العلف حط الكلف

علق لثـــورك، جـــاك المحـــراث

ثم يستطرد الشربينى فى ذكر مثالب أهل الريف وتصويرهم فى حال مزرية منفرة، فهم «لا يرحمون صغيرا، ولا يوقرون كبيرا، يجتمعون لحساب المال فى المساجد، وليس فيهم راكع ولا ساجد، أولادهم دائماً عرايا، وتراهم فى صورة المجانين، الرحمة فيهم قليلة، والرأفة متروكة ذليلة، كما أنهم يكتبون لطرد النمل : أرحل أيها النمل كما رحلت الرحمة من قلوب مشايخ القرى» .

وفى سبيل جمع الأسانيد فى التحقير من شأن الريف، ينسب الشربينى الى الإمام الشافعى رضى الله عنه أنه أوصى بعدم سكنى القرى «فيضيع علمك وجاهك» وينسب الى سيدى عبد الوهاب الشعرانى أنه قال لبعض تلاميذه : عليك بسكنى المدن، فإن المقت إذا نزل فى بلاد الريف طوفا، يكون فى المدن كخلخال الرجل.

وفى رأى الشيخ يوسف الشربينى ان الساكن فى الريف «معدوم اللذات لأنه دائما فى انقباض وطر وجرى وكر وفر وحبس وضرب ولعن وسب وهوان وشجار وشيل تراب، وحفر آبار، وخروج للعونة على جهة السخرة، وتعب شديد بلا أجرة، وإذا كان ذو فضل ضاع فضله أو ذو عقل ذهب عقله، أو ذو مال أغروا عليه الحكام، أو تجارة نهبوه فى الظلام، فالحق عندهم مضاع، والباطل عندهم مذاع، وحكم الله ليس له اندفاع» .

ويصل المؤلف الى قمة السخرية من الأسماء التى يطلقها أهل الريف على أولادهم، فهى كأسماء العفاريت أو رقع وجليجل وعفر ودعموم، وقسيط وشلاطة ولهاطة وشقليط ومقليط، وصغار وبهوار وجعمار، وسمنوت وبرغوت، والعفش والنبش، وكسبر وقفندر، وجنين وبنين، ومحمد (بكسر الميم والحاء) وغير ذلك من الأسماء وان كانت لا تعلل، فإن أسماءهم هذه تشبه التقليب، وقد يسموا بالفال، كما اتفق ان رجلا ولد له غلام فسمع رجلا آخر يقول : يا أعمش العين ! فقال نسميه نعموش، فسمى بذلك، واتفق أن رجلا ولدت زوجته أنثى فسمع رجلا يقول لآخر : هات الزبل، فقال لأمها : نسميها زبيلة ! فسميت بذلك، وزبيلة تصغير زبلة، ومر رجل فرأى ولدا يضرب أباه ويسخر به، فقال له : يا غلام : إن لأبيك عليك حقاً، ألا تنهره ولا تؤذيه، وأن تحسن الأدب معه ولو كان كافرا، فقال له : يا سيدى وأنا الآخر لى عليه حق فقال له : وما حقك عليه ؟ فقال له : أن يحسن اسمى، ويعلمنى القرآن، وأن يرشدنى إلى أحسن الصنائع، وهذا سمانى «دبوس» وعلمنى لسان المجوس (يقصد لغة الحكام الأتراك) وصيرنى بين الناس خلبوس، أفلا أضربه وأسخر به وأسبه؟ فقال له : بل صكه بالنعال، فإنه مستحق لأقبح الفعال .

• أسماء النساء:

وانتقل الشربينى من نقد أسماء الرجال من أهل الريف الى نقد أسماء النساء، مثل : زعره وبعره، هيكله وميكله، واخطيطة وحويطة

ومعيكة ودعيكة ودكيكة، وشبارة وشرارة وزرارة وعلاره وعباره، وشلباية وعطاية، وعليوة، وخليوة وهدية، أما كنية النساء فهى : أم جعيص وأم محيص، وأم رميح وأم عرام وأم زوام، وأم شقيرة وأم صقيرة، وأم شواهى وأم دواهى .

ويصف هذه الأسماء والألقاب بأن وجودها كالعدم، وانما هى الفاظ يضعونها مناسبة لذواتهم ليطابق الاسم المسمى، وأما النساء فيدخلن الأفران، ويضرمن فيها النيران، ويعبق عليهم الدخان، وتظهر لهن روائح الدمس، حتى يصرن فى قلس، ثم ينمن على شىء من القش، وما تيسر على القصل والعفش، وغالب طعامهن المدمس والبيسار (البصارة) .

ويعود الشربينى الى الحديث عن أفراح الفلاحين، الذى وعد به قبل قليل، فهى فى نظره مثل قيام الغارات، أو تعفير الكلاب فى الحارات، يدورون بالعريس وكأنهم فى غارة، فتسمع الصراخ والصياح ونبح الكلاب، ومدح الشعراء، وضرب الطبول، وحوله تلعب المشاه والجدعان، وتسمع خبط النبابيت، وتشاهد نط الأولاد، وربما كان هزلا وانقلب حقيقة، وضربوا بعضهم البعض، وقد يحدث قتل وموت، ويعقب الفرح ترح، ويزيد الهم والنكد، وبعد زفة العريس يفرشون له جنب الجورة، ويجلسون على نخع أو حصير أو برش من أبراش البير، وتأتى العروس كأنها فحل جاموس، يتقدمها الشاعر

بالرباب وخلفها تصيح الصبايا بالزغاريد، ويمشى الجدعان بالمصابيح، ويرشون الملح اتقاء للحسد والنظرة .

ثم انهم يجتمعون حول العروس، وينادى من بينهم رجل فلفوس وبيده شملة من شرموط : هاتوا النقوط، صاحب العرس بقى فى أمان، هاتوا يا نساء هاتوا يا جدعان، فيدفع الشخص منهم الدرهم والدرهمين ومنهم من يرمى نصف أو نصفين (عملة من الفضة أو النحاس) ثم انهم يدخلونهما إلى غرفة الفرن أو البيت ويسرجون لهما بشئ من عكار الزيت، ويفرشون لهما شيئا من التبن أو القصل، ويصنعون لهما وسائد محشوة من قشر البصل، ، ويغلقون عليهما الباب، ويدقون لهما بالحجارة على الاعتاب فعرسهم هتيكة، وفرحهم مصيبة .

ثم انهم عند الصبيحة يجتمعون مشاة فى الضهرية، ويقيمون حكومة بينهم وبين العريس لا قيمة لها ولا قدر ويقولون : حكمنا عليك يا فلان بأن تحضر العيش والمش ورطل دخان،

• أسطورة :

ويحكى الشربينى اسطورة تنم عن حقده على الفلاحين وتجنيه عليهم، وعدم ثقته فى تطورهم إذا توافرت لهم سبل التعليم، فهو يرى ان الطبع يغلب التطبع، وانه لا أمل فى إصلاح حالهم، فيقول :

يحكى أن أحدا من الملوك خرج مع وزيره للتنزه فمرا على فلاح يحرث فى الأرض وقد وضع على رأسه لبدة بالية، ولبس ملابس مهلهلة وقد اسود قفاه من الحر وتشققت قدماه من الحفا ومن شدة البرد وكان حاله فى كرب .

فقال الملك لوزيره : ما حال هذا الرجل ؟

فقال له : يا ملك، هذا من فلاحى الريف، ينشأ الشخص منهم على التعب والنصب والهم والغم والطرد والجرى، وقلة معرفته بالدين لجهله ولا يجد من يرشده للعبادة ويعلمه الصلاة حتى أصبح فى هذه الحالة، فهم همج الهمج، لا يعرفون غير الثور والمحراث . وقد صور حالتهم الشاعر :

من فــــاته العلم وخطاه الغنى

فــذاك والكلب على حـــد ســـواء

فقال الملك الوزير : هل ترى إذا أخذناه وعلمناه القرآن واشغلناه بالعلم، وألبسناه ملابس النعم، يتغير طبعه ويرق قلبه وتخف ذاته وينتقل من طور الكثافة الى طور اللطافة ؟

فقال الوزير : أيها الملك، أما سمعت قول الشاعر :

لا يخـــرج الإنســـان عن طبـــعـــه

حـــتى يعـــود الدر فى ضـــرعـــه

من كـــان من جـــمـــيـــزة أصله

لا ينبت التـــفـــاح من فـــرعـــه

وقال آخر :

الطبع والروح فى جسم لقد خلقالا ينفد الطبع حتى تنفد الروح .

وقـال بعـضـهم : يحـوّل عن كـره ولا يحـول عن طبـعـه وحكى أن أعرابيا مر بقارعة الطريق فرأى ذئبا صغيرا، فرحمه وأخذه الى منزله، وكان عنده شاة ترضع، فرباه عليها إلى أن كبر، فاعتدى على الشاة وبقر بطنها وولغ فى لحمها ودمها . فلما رجع الأعرابى ورأى ما فعل أنشد :

غـــذيت بدرها ونشـــأت فـــينا

فـــمـن أنبـــاك أن أباك ذيب

إذا كـــان الطبـــاع طبـــاع ســـوء

فـــلا أدب يفـــيـــد ولا أديب

ومن ذلك ما حكى : أن جماعة قصدوا اصطياد ضبعة، فالتجات الى أعـرابى ودخلت منزله، فـخرج الأعـرابى اليـهم وبيده السـيف مصلتا، وقال لهم : لا تتعرضوا لضيفى فإنه قد استجار بى ! فقالوا : يا هذا لا تحل بيننا وبين صيدنا فقال : هذا لا يكون أبدا ولا أسلمه لكم وجعل يغذيها اللبن، وفى يوم من الأيام خلع الأعرابى

ملابسه ليغتسل فأبصرته الضبعة فهجمت عليه وشقت بطنه وولغت في لحمه ودمه. ولما علم ابنه أنشد :

ومن يفعل المعروف في غير أهله

يجازى كما جوزى مجير أم عامر

أعد لها لما استجارت بقربه

من الدر زلبان اللقاح الدواسر

وأشبعها حتى إذا ما تمكنت

فرثه بأنياب لها وأظافر

فقال لذوى المعروف هذا جزاء من يوجه معروفا إلى غير شاكر

ويحكى أيضا أن رجلا سافر إلى مدينة فاشتد به الجوع فرأى رجلا يبيع الزلابية، فوقف قبالة دكانة حائرا، فرق له قلب الزلابى ورحمه، وناداه ليغذيه صدقة عنه. فدخل الرجل، وقدم له الزلابى ما يكفيه منها مع العسل فأكل حتى شبع. وتصادف مرور محتسب المدينة ينادى أهل السوق ويزن عليهم ويحذرهم نقص الموازين ويأمر صناع الزلابية أن يتركوها حتى تنضج، وإذا بهذا الرجل يحمل ما بقى من أكله ويعجنه بيده ويقدمه للمحتسب إثباتا لغش بائعها، فأخذ المحتسب صانعها وأشبعه ضربا .

التفت صانع الزلابية الى هذا الرجل ونظر له نظرة فيها اللوم على ما فعل. وقال : ما ذنبى معك، لقد أشفقت عليك وأطعمتك حتى شبعت صدقة عنى، ثم سأله عن اسمه واسم أبيه وسأله عن اسم أمه :

فقال له : مرجانة وهى جارية سوداء .

فسكت الرجل برهة ثم قال : لقد ورثت الطبع الخبيث عن أمك .

• استطراد :

بعد هذه العينة من القصص والحواديت يخيل إليك أن المؤلف قد نسى حكاية الفلاح والملك، ولكنك لا تلبث أن تكتشف أن كل هذه النوادر إنما كانت على سبيل التدليل على أن انطبع يغلب التطبع، وان الانسان لا يتغير حتى لو تغيرت ظروفه الاقتصادية والاجتماعية. ويعود الشربينى الى قصة الملك مع الفلاح فيقول :

– لم يتعظ الملك بكل هذه الحكايات ولم يعتبر وأخذ الفلاح وأنعم عليه وخلع عليه الملابس الحسنة الفاخرة وقيد له من يعلمه القرآن حتى حفظه وبرع فى العلوم وخاصة علم الرمل والحرف حتى صار يخرج الضمير ويكشف عن الضائع :

وفى يوم من الأيام أرسل الملك لوزيره ليثبت له خيبة فراسته فى الفلاح .

فلما حضر الوزير طلب من الملك أن يختبره وينظر طبعه وخلقه .

استدعى الملك الفلاح فلما حضر قال له : بلغنى انه صار لك قوة فى إخراج الضمير وبيان الضائع .

قال : نعم ان شاء الله .

قال الملك : إن مرادى أن أضمر علي شئ وتبينه لى وانتزع الملك خاتمه من اصبعه دون أن يعرف، وأطبق عليه يده وقال له : أنظر ما فى يدى ؟

فأقام الرجل الأشكال وقال : فى يدك شئ مدور و خالى الوسط!

قال الملك : صدقت ولكن أى شئ هو ؟

صمت الرجل ساعة ثم قال : أظن أنه حجر طاحون !

سمع الوزير هذا الجواب وضحك ساخرا وقال للملك : غلب عليه طبعه الأول .

اغتاظ الملك وسلب الرجل نعمته وأعاده إلى حالته الأولى .

• انحطاط ثقافى :

بلغ الريف المصرى فى عصر «أبو شادوف» درجة موغلة فى الفقر والتخلف والانحطاط الثقافى والاجتماعى والاخلاقى ولك أن تتصور جحافل أهل الريف فى صورة جماعات من الأشباح

تسترها خرق زرقاء بالية كانت فى الأصل نسيجا يدويا من التيل الأبيض، ولكن الفلاح لم يكن يجرؤ على استعمال الثياب البيضاء

فكان يصبغها بالنيلة الزرقاء الكئيبة لكى تعبر بصدق عن حالته النفسية، وبات هذا اللون القاتم علامة مميزة للفلاح المصرى، وكانت جموع الفلاحين تعيش فى كهوف من الطين تتسع لعائلاتهم ومواشيهم، وغذاؤهم الدائم هو الشعير والجبن القريش والبصل والكشك والفول المدمس والعدس والبصارة، أما اللحوم والطيور فلا يتذوقها الفلاح إلا فى المواسم والأعياد.

واذا أردت أن تضع يدك على مفتاح المشكلة الاجتماعية فى مصر عبر مراحل تاريخها فستجده فى نظام الملكية الزراعية الذى اختلف من عصر إلى عصر، ولكنه كان فى كل العصور مرتبطاً بالتزامات باهظة أثقلت كاهل الفلاح المصرى وجعلت منه رقيقا مسخرا يعمل فى الأرض بلا عائد مجز، ولا يحصل بالكاد إلا على ما يقيم أوده ويحفظ عليه حياته ليظل قادرا على مواصلة العمل، أما الجانب الأكبر من خيرات الأرض فكان يذهب إلى الدولة الحاكمة عبر سلسلة طويلة من الجباة القساة الذين لا تعرف الرحمة سبيلا إلى قلوبهم .

كان نظام «الالتزام» الذى جاء به العثمانيون من أعقد وأقسى النظم التى عرفها تاريخ الملكية الزراعية فى مصر، هو نظام لا يخضع لموظفين تابعين للحكومة، وانما يتكفل فيه من يشاء، من الامراء المماليك ورجال العسكرية العثمانية ومشايخ العرب وبعض مشايخ الأزهر والتجار وغيرهم .. بتحصيل الضرائب المقررة على

أراضى قرية، أو أكثر أو أقل، عن الالتزامات تعطى فى مزاد علنى اتفاق بين هذا الشخص - الذى أصبح رسميا يحمل لقب «ملتزم» - وبين الحكومة، وكانت الالتزامات تعطى فى مزاد علنى ومن يرسو عليه المزاد تقوم الدولة باعطائه «تقسيطا» أى سندا بذلك، وأمرا «نميقة» الى مشايخ الحصة التى يقع فيها الالتزام، وإلى الفلاحين، تأمرهم فيه بالخضوع لأوامره ودفع الاموال المقررة على أرض الحصه له، حيث انه بمقتضى تقسيط الالتزام يصبح الملتزم ممثلا للحكومة، ويدفع للحكومة مقدما ما يعادل ضريبة سنة من الأموال المقررة على الحصة يسمى «حلوانا» .

وكان الهدف من تطبيق نظام الالتزام فى مصر - إلى جانب تأمين جباية الاموال المقررة على الأراضى - حماية الفلاحين من عبث موظفى نظام المقاطعات الذى كان سائدا فى العصر السابق - المملوكى - ومنع المغالاة فى تقدير الضرائب المقررة على الفلاحين، وكان يشترط على الملتزم فى التقسيط (سند الالتزام) الذى يعطى له : «حفظ البلد الذى تحت يده ومراعاة أهله بالرحمة وعدم الظلم» .. ولكن ... بعد مضى فترة من بدء تطبيق النظام فى مصر، بدأت تظهر فى دفاتر الالتزام، ضرائب أخرى إلى جانب الميرى: المضاف .. الفائض .. البرانى .. الكشوفية .. ولكل منها نظام وأساليب تعسفية فى جمعه (راجع كتاب الريف المصرى فى القرن الثامن عشر للدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم) .

•فزع:

وقد أعطانا الشيخ **يوسف** الشربينى فى كتابه (هز القحوف) صورة وصفية لحالة **الفزع** التى كانت تنتاب الفلاح عندما كان يحين موعد سداد المال **الميرى** .. أو مال السلطان .. أو مال الديوان .. وقد كان موعد **سدادها مهولا** عنده، نظرا للقسوة التى كان يسلكها الجباة أثناء عملية **الجباية**، فيقول على لسان أبو شادوف : ويوم يجى الديوان تبطل **مفاصلى** وأهر على روحى من التخويف، ثم يشرح الشيخ الشربينى **أسباب** حالة الغم والنكد التى كانت تصيب الفلاح عندما يهبط **القرية** «النصرانى» أى الصراف – حيث كانت وظيفة الصرافة **مقصورة** على الاقباط منذ عهد وزارة يعقوب بن كلس وزير العزيز بالله – **يقول** صاحب هز القحوف :

«وهو أن النصرانى **اذا** حضر الى القرية، أو الكفر، وفرد المال على الفلاحين حكم **الحوالى** والقوانين التى جرت بها العادة، وشرع فى أخذها فيكثر **الخوف** والحبس والضرب، لمن **لا** يقدر على غلاق المال، فمن الفلاحين **من يقترض** الدراهم بزيادة (الربا) أو يأخذ على زرعه إلى أوان **طلوعه** بناقص عن بيعه فى ذلك الزمن، أو يبيع بهيمته التى تحلب **على** عياله، أو يأخذ مصاغ زوجته يرهنه أو يتصرف فيه بالبيع **ولو قهرا** عليها، ويدفع الثمن للنصرانى، أو لمن هو متولى قبض المال، **وان** لم يجد شيئاً، ولا يرى من يعطيه وخشى الملتزم أو المشد (**مرشد القرية**) من خرابة (هروبه) من البلد، أخذ

ولده رهينة عنه حتى يغلق المال، أو يأخذ أخاه، ان لم يكن له ولد، أو أحدا من أقاربه أو يوضع فى الحبس للضرب والعقوبة، حتى تنفذ فيه أحكام الله تعالى، ومنهم من ينجو بنفسه فيهرب تحت ليله، فلا يعود إلى بلد قط، ويترك أهله ووطنه من هم المال، وضيق المعيشة، فلابد على كل حال من تغليق المال، ولو حصل من ذلك الهم والنكال، كما فى المثل الذى اشتهر وعم «مال السلطان يخرج من بين الظفر واللحم»، ومادام الفلاح على شئ من المال فهو فى هم شديد، ويوم السداد عند الفلاح عيد .. ».

• هجرة:

وقد كان لهذه الاعباء المالية الباهظة أثرها السيئ على الفلاح وعلى الملتزم - باعتبارهما عنصرى المشاركة فى ادارة الارض - الامر الذى انعكس على الانتاج القومى وأدى إلى خراب الأرض وبوارها .. وهبوط الثروة الزراعية .

أما عن أثار هذه الاعباء بالنسبة للفلاحين فقد تمثلت فى هجرهم لقراهم، حتى ان كثيرا من القرى أصبحت خاوية على عروشها ولم يبق فيها أحد من سكانها، بل وصل الامر بالفلاحين ان أهل عدة قرى كانوا يتجمعون فى قرية واحدة ليبتعدوا عن أعين الجند المكلفين بجباية «الفرد» وغيرها من صنوف الضرائب، فما يكاد هؤلاء الزبانية يهبطون الى القرية التى تجمع فيها الفلاحون حتى يلحقها الخراب ويهجرها الفلاحون الى غيرها الى ان يلحقهم

الجند. وبلغ من هذا الخواء السكانى ان اقليما من أخصب أقاليم مصر وهو المنوفية لم يبق فيه عند أواخر القرن الثامن عشر سوى ٢٥ قرية فيها بعض السكان، اما باقى القرى فقد أصبحت خرابا يبابا .. ليس فيها ديار ولا نافخ نار على حد تعبير الجبرتى.

أما بالنسبة للملتزمين، فان أثار هذه الاعباء تمثلت فى ان كثيرا من حصص الألتزامات أصابها البوار، نتيجة لهجر الفلاحين لقراهم، فتأثر بذلك حال الملتزمين، وبخاصة صغارهم، ونتج عن بوار حصصهم عجزهم، عن سداد الاموال الاميرية المقررة على حصصهم، وقد حاول بعض الملتزمين انقاذ حصصهم بمنع الفلاحين من الهروب بأن أصبحوا يتكلفون بسداد ما على حصصهم من مغارم، بأى سبيل، ويكتب الملتزم على نفسه المواثيق التى يتكفل فيها بسداد هذه المغارم بأجل معلوم ثم يقوم بجمعها من الفلاحين شيئا فشيئا، حتى ان بعض الملتزمين كان يستدين هذه المبالغ بالربا كى ينقذ حصته، ورغم هذه المحاولات فقد أفلس معظم الملتزمين، وأصبح الواحد منهم يتكفف الناس، وبات الملتزم – فى نهاية القرن الثامن عشر – مثل فلاحية ضحية لعملية الابتزاز بل واصبح عرضه للطرد من حصته، وضاعت هيبة الملتزمين فى نظر الادارة حتى دخل نظام الالتزام مرحلة الاحتضار قبل ظهور محمد على الذى قضى على هذا النظام بضربة واحدة وأحل محله نظام الاحتكار .

• واقعية :

واذا كـان لصـاحب هز القحـوف من فـضل، يغـفـر له رداءة الاسلوب وسوء التعبير وقسوة الوصف، فانما يتمثل فى تسجيله تلك الصور الواقعية لحالة القرية المصرية فى مرحلة انعدمت فيها المصادر التاريخية، وجف فيها رحيق الثقافة. صحيح ان الرجل كان فقيرا فى رؤيته التاريخية .. ضحلا فى ثروته اللغوية، مسرفا فى سخريته واستخفافه، إلا انه حفظ لنا لوحات وصفية لتلك الحياة البشعة التى عاشها الفلاحون المصريون فى كنف العسكرية العثمانية، وقدم لنا عديداً من الرسوم الكاريكاتورية التى تحولت الى مادة يستخلص منها المؤرخون حالة الريف المصرى فى مرحلة حالكة الظلام، والقوى التى كانت تتحكم فيه والاصطلاحات الفنية التى كانت سائدة فى ذلك العصر، فانت حين تقرأ كتاب (هز القحوف) سوف تصادفك كلمات : الكاشف والكشوفية والسنجق والخولى والصراف، وكلها أسماء لاصحاب الوظائف الذين كانوا على صلة بالقرية .

فالكشوفية هى الضريبة المخصصة لسد نفقات الادارة المحلية فى الاقاليم، وكانت مصر فى العصر العثمانى مقسمة الى ١٤ اقليما فى الوجهين البحرى والقبلى، ويضم كل اقليم حوالى ٢٨٠ قرية، ومعنى ذلك ان عدد القرى أو النواحى في ذلك العصر كانت حوالى ٤٠٠٠ قرية. وكان كل اقليم يسمى «كاشفية» ويحكمه

«الكاشف» الذى كان يقضى معظم شهور السنة فى القاهرة ليكون على مقربة من القلعة مقر الوالى التركى ومركز الدسائس والمؤامرات .

اما مشايخ القرى فيمثلون الجهاز المتنفذ فى القرية، وهم من أبناء القرية نفسها، وقد كان فى كل قرية شيخ واحد أو عدد من المشايخ وصل فى بعض الاحيان الى ٢٠ شيخا فى القرية الواحدة، وكان فى القرية وظيفة اسمها «المشاهد» وشاغلها مسئول عن تسجيل أطيان القرية فى دفتر لديه حوضا حوضا وفدانا فدانا ويسجل أسماء الفلاحين الذين يقومون بزراعة ارض القرية وحصة كل منهم والمال المقرر على كل فلاح، وكان الملتزم يقوم بتعيين «مباشر» يعتبر بمثابة الوكيل له فى حصة الالتزام ويعاونه عدد من الكتبة النصارى، وكان المباشر يعين كل الصيارفة فى حصة الالتزام. وكان الصراف يقوم بجباية الأموال المقررة على الفلاحين طبقاً لما هو مدون بسجل شاهد القرية ودفع النفقات الادارية التى تتطلبها مصلحة الالتزام. وتقول المصادر المعاصرة ان بعض هؤلاء الصرافين لم يؤدوا عملهم بأمانة واخلاص، ورغم انهم كانوا يتقاضو أجرا على عملهم من أموال الفلاحين ومن أموال الملتزمين إلا أنهم استغلوا نفوذهم اسوأ استغلال وفرضوا سلطانهم على الفلاحين حتى عبر الشيخ الشربينى عن خوف الفلاحين منهم بقوله:

وهم عبيد قابض الأموال فعندهم كالعم أو كالخال

ويجلسون عنده فى أدبِ

أو يقف الواحد منهم كالصبى

أما «المشد» فهو مرشد القرية، وهو تابع لشيخ القرية ومهمته إحضار الفلاحين من بيوتهم وقت الحساب وأثناء دفع الأموال، وإبلاغ أوامر الملتزم إلى أهل القرية وضرب الفلاح اذا تكاسل عن العمل. ويعاون المشد فى عمله رهط من الخفراء وهم المسئولون عن الأمن فى القرية، وهناك الكلاف الذى يتولى مسئولية رعاية بهائم الملتزم التى ترعى فى (الوسية) وهو قسم من الأرض معفى من الضرائب .

• غرامة الأكل:

هذه المصطلحات وغيرها تصادفك بكثرة وانت تتابع هذه الصور الوصفية فى كتاب (هز القحوف) .. واليك هذه الصورة التى رسمها الشيخ يوسف الشربينى للمظالم التى وقعت للفلاحين بسبب إرغامهم على تقديم وجبات الطعام لجيش الجباة عندما يهبطون الى القرية كالنسور الجارحة .

يقول الشيخ الشربينى تحت عنوان (غرامة الأكل) :

الوجبة ووقت مجيئها وحضورها بمجرد. طلوع المشد أو الملتزم أو النصرانى إلى الكفر أو البلد فتوزع على الفلاحين بحسب ما

يخصهم فى الارض من القراريط والفدن ونحو ذلك، فمنهم من يكون عليه فى الشهر يوم ومنهم من يفعلها فى كل جمعة مرة ومنهم من يجمعها فى كل ثلاثة أيام وهكذا بحسب كثرة الفلاحين وقلتهم وحسب زيادة الارض ونقصها فلا بد منها فى كل يوم مدة الأقامة، فيقوم الرجل بكلفة المشد والنصرانى ان كان حاضرا وجميع من يكون من طائفة الملتزم، ويلتزم بأكلهم وشربهم وجميع ما يحتاجون اليه من عليق دوابهم وما يتمنونه عليه من المآكل من اللحم والدجاج، ولو كان فقيرا ألزموه بذلك قهرا عليه و إلا حبسه المشد وضربه ضربا موجعا وربما هرب من قلة شئ يضعه فيرسل المشد إلى أولاده وزوجته ويهددهم ويطلب منهم ذلك فربما رهنت المرأة شيئا من مصاغها أو ملبوسها على دراهم، وأخذت بها الدجاج أو اللحم وأطعمتهم وحرمت أولادها من الاكل منه خوفا على نفسها من انه لا يكفيهم مثلا، وقد يربى الفلاح الدجاج فلا يأكل منه شيئاً ويحرم نفسه وعياله من خوف من الضرب والحبس، ومثل الدجاج السمين فيبقيه لأجل هذه البلية ويطبخ بالسيرج ويأكل الخبز الشعير، ويصنع لهم القمح الزريع ويأكل الجبن القريش المالح ويتكلف شراء الجبن الطرى الحلو، ويرسله فى الوجبة. كل ذلك خوفا على نفسه من هذه الأمور وسميت «وجبة» لكونها صارت على الفلاحين حكم الامر الواجب عليهم للملتزمين فلابد من فعلها للمشد بالقرية أو النصرانى أو الملتزم اذا حضر – كما تقدم بيانه – واذا أسقطها بعض الملتزمين جعل فى مقابلها شيئا معلوما من الدراهم وأضافة

الى المال ويلزمهم بدفعه الى المشد بالقرية تؤخذ منهم كل عام، فهى من انواع الظلم والأكل منها حرام ما لم تكن من الفلاحين عن طيب نفس وانشراح صدر، بحيث ان الملتزم يرضيهم بشئ من الارض أو غيرها فى مقابلة ذلك .

وبعض الملتزمين يتعفف عنها بالكلية ولا يجعل عليهم شيئاً لا للمشد ولا لغيره الا اذا تبرعوا بشئ من عند أنفسهم فعلى هذا لا تكون حراما ويحل الاكل منها .

• غرامة البطالين:

ومثل الوجبة غرامة البطالين واستخدامهم بغير أجرة مالم يكن عن رضا منهم فى مقابل السكنى وترك الزرع ونحوه، فكل ما كان فيه اضرار فهو حرام. قال الشاعر :

كن كيف شئت فان الله ذو كرم   وما عليك اذا أذنبت من باس

الا اثنتان فلا تقربهما ابدا   الشرك بالله والاضرار بالناس

فإن قيل : ان الامير أو غيره اذا التزم بقرية وجد فى دفاتر من التزم بها قبله الوجبة وغرامة البطالين وغير ذلك مما هو من أنواع الظلم فيجعل ذلك على أهلها حكم الحوادث السابقة، كما جرت به العادة، فهل يكون الاثم عليه أو على من أحدث هذا قبله أو عليهما معا ؟

ويناقش الشيخ الشربينى قضية المسئولية. مناقشة فقهية دينية، ويخيل اليك انه خلع رداء الفكاهة والسخرية وارتدى الجبة والعمامة وأخذ يقول :

الجواب : ورد فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم انه قال : من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ، أى من أتى بشئ لم يكن موجودا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وهو المسمى بالبدعة فهو ردّ أى مردود ومعناه باطل لا يقتدى به وفيه بيان عن أنه لا فرق بين ان يكون أحدثه بنفسه أو سبقه به غيره. فالإثم على كل من فعله أو أمر بفعله. اذ كل فعل لم يكن على أمر الشارع ففاعله آثم لقوله صلى الله عليه وسلم : من أحدث حدثا وأوى محدثا فعليه لعنة الله، وفيما تناوله الحديث رد على ذوى العقول الفاسدة والحكم مع الجهل والجور ونحو ذلك مما لا يوافق الشرع، فاتضح الجواب وبان الصواب .

الفهـرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٨٣٥ / ٢٠٠١

I.S.B.N 977 - 01 - 7125 - 5